فى
اللهجات العربية

دكتور / إبراهيم أنيس
أستاذ بكلية دار العلوم - القاهرة
وعضو مجمع اللغة العربية سابقاً



مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

اسم الكتــــاب : **فى اللهجات العربيــة**

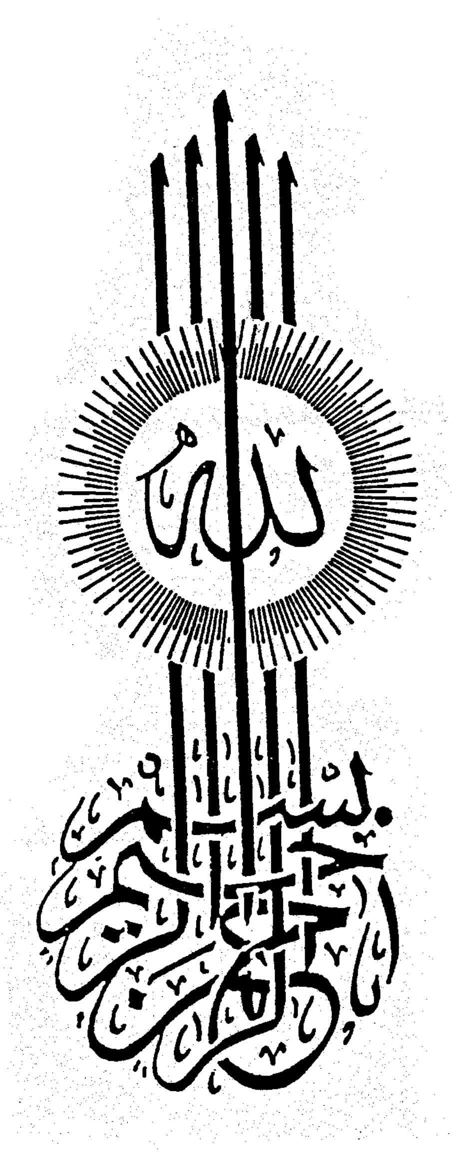
المــــــؤلف : **د . ابراهيم انيس**

النــاشـــــــــر : **مكتبة الأنجلو المصرية**

الطبـــاعـــة : **مطبعة أبناء وهبه حسان**

رقــم الإيــداع : **٥١٤١ لسنه ٢٠٠٣**

الترقيم الدولى : I.S.B.N : 977- 05 - 1974- X


الله
بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

مضى أكثر من اثنتى عشرة سنة على ظهور الطبعة الثانية لهذا الكتاب وعدة سنوات على نفاذ هذه الطبعة . وخلال هذه المدة أشعر أن دراسة اللهجات العربية قد نمت فى بلادنا وازدهرت ، وأصبحت الكليات الجامعية تعنى بها كل العناية ، بل خصصت لها أقسام مستقلة فى بعض الكليات ، ونوقشت بعض الرسائل الجامعية التى عرضت لهذه الدراسة ، وكان آخر هذه الرسائل وأوفاها فى البحث تلك الرسالة التى نال عليها الدكتور أحمد الجندى درجة الدكتوراه من كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٦٥ ، وعنوانها «اللهجات العربية كما تصورها كتب النحو واللغة» ، وكان لى حظ الاشتراك فى مناقشتها .

ويبدو لى أننا لم نعد الآن بحاجة إلى مزيد من البحث والتنقيب فى بطون الكتب القديمة ، التى عرضت فى ثناياها اللهجات العرب بقدر ما نحن فى أمس الحاجة إلى دراسة اللهجات العربية الحديثة ، فتلك هى التى نفتقدها أو لا نزال نتطلع إليها ، ولم نقطع فيها لسوء الحظ شوطاً بعيداً برغم ما لدينا الآن من إمكانيات التسجيل الصوتى ؛ وأجهزة التجارب النطقية . ففى بعض كلياتنا الجامعية ، لم تستغل معامل للتجارب الصوتية الاستغلال الكافى فى دراسة اللهجات الحديثة بالبلاد العربية . وأرجو ألا يمر زمن طويل قبل أن نجد لدينا دراسات مستفيضة ، وبحوثاً عميقة فى هذه اللهجات الحديثة كى نستكمل معرفتنا للهجات أجدادنا من العرب القدماء ، وبالله التوفيق .

نوفمبر ١٩٦٥



مقدمة الطبعة الثانية

ظهر هذا الكتاب للمرة الأولى منذ ست سنوات بمثابة دعوة إلى البحث فى اللهجات العربية قديمها وحديثها ، بعد أن طال إهمالها وانصرف الباحثون عنها ، وكان بدءاً موفقاً لتلك الرحلة الطويلة الشاقة التى لابد منها فى مثل هذه الدراسة .

وقد حفزنى على مواصلة الدراسة والبحث فى اللهجات ما لقيه هذا المجهود المتواضع من حماس وتشجيع فى الهيئات العلمية ، وما لمسته من إقبال طلبتى فى كلية دار العلوم على هذه الدراسة القديمة فى مادتها الحديثة فى تصويرها وتفسيرها ، مما جعلنى أستعين بالنابهين منهم على جمع الكثير من شواردها ورواياتها ، فاستطعنا معاً أن نجمع كل الروايات المنسوبة التى وردت فى معجم لسان العرب لابن منظور ، وفى كتاب المخصص لابن سيده ، ثم بوبناها ونظمناها على ضوء ما درسناه من نظريات صوتية حديثة ، فبدت فى آخر الأمر عملا علمياً ضخماً ، نقوم الآن بتهذيبه وتوضيح الغامض منه ، وتحقيق المبتور من أجزائه، راجين ألا يمر زمن طويل ، قبل أن تتضح لنا معالم هذه اللهجات فى صورة دقيقة مؤكدة .

ورغم ما بذلناه حتى الآن من جهود مضنية ، لا نزال بعيدين عن الهدف الذى نتطلع إليه ، ولا تزال بعض نواحى هذه اللهجات العربية القديمة يكتنفها الظلام والغموض ، ولا سبيل لكشف هذا الظلام إلا بعد أن تتم معرفتنا ودراستنا للهجات الحديثة فى الأقطار العربية المختلفة .

ومما يبعث على شحذ الهمم ومتابعة الدراسة فى اللهجات ما اتجه إليه مجمع اللغة العربية من تشجيع هذه الدراسة والعمل على النهوض بها ، فقد خصص إحدى لجانه لدراسة اللهجات ، وضم إليها من أعضائه عدداً من العلماء الأجلاء الأفاضل الذين شرفونى بالانضمام إليهم كخبير لهذه اللجنة .

ولم تقتصر العناية بدراسة اللهجات فى السنوات الأخيرة على المحدثين من علمائنا أبناء العربية ، بل شملت أيضاً بعض المستشرقين من علماء أوروبا . ويكفى هنا أن نشير إلى ذلكر المؤلف القيم الذى ظهر فى العام الماضى لأحد المدرسين

فى جامعة أكسفورد ، وهو الدكتور «رابين» C. Rabin تحت عنوان :

(Ancient West - Arabian)

وفيه يحاول المؤلف النابه البرهنة على أن غرب الجزيرة العربية قد انتظمته فى العصور الجاهلية لغة مستقلة فى خصائصها وظواهرها وتطوراتها .

ومهما يكن من الأمر فقد أطلعنا الدكتور «رابين» على مصادر وروايات لم نقف عليها قبل ظهور كتابه ، وكان فى عرضها دقيقاً أميناً ، مما يستحق له الإعجاب والتقدير .

ونحن إذ ننشر الطبعة الثانية لكتاب اللهجات العربية ، بعد أن نفدت الطبعة الأولى ، نشعر بالاطمئنان على مستقبل هذه الدراسة ، ونرقب فى غبطة وسرور نموها ونهضتها فى السنوات الأخيرة التى زادت فيها معرفتنا بكثير من خصائص اللهجات وتنقلات القبائل وغير ذلك من أمور تكشفت لنا بعد غموض ، واتضحت لنا بعد إبهام . وكان من الطبيعى أن يظهر لهذه الدراسات التى قمنا بها خلال السنوات الست الأخيرة أثر كبير فى الطبعة الثانية لهذا الكتاب ، وأن يكون لها صدى قوى فى بعض مسائله ، مما جعلنا نزيد من الشرح والبيان فى بعض النواحى ، ونغير أو نحور فى بعض الآراء التى جاءت فى الطبعة الأولى . وقد راعينا فى كل هذا الاقتصاد الذى تحتمه رغبة الناشرين من ظهور الكتاب فى حجم معين ، كما يمليه علينا الحرص على تجنب المسائل التى لم يتم نضجها ، أو التى لم نفرغ من بحثها .

نفع الله بهذا الكتاب الطلاب والدراسين من أبناء العربية ، إنه سميع مجيب الدعاء .

سبتمبر سنة ١٩٥٢ .

إبراهيم أنيس

مقدمة الطبعة الأولي

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وبعد :

فقد ترددت زمناً غير قصير قبل أن أقدم على نشر هذا الكتاب الذى يعرض للهجات العربية القديمة ، لأن البحث فى مثل هذا قد يكون من عمل الهيئات العلمية ، ولا يقوم به فرد وحده . وذلك لتشعب الموضوع ، ووعورة الطريق إليه ، وما يحتاج من بحوث مستفيضة قد تنفد أعمار الأفراد دون أن تكمل ، أو يكشف عن كل غوامضها وأسرارها .

ولكنى حين رأيت انصراف أهل العلم فى مصر عن هذه الناحية من البحث اللغوى ، واكتفاءهم بترديد بعض الروايات الشائعة فى ثنايا كتب التاريخ والأدب دون فهم لها ، أو نظر فيها ، أو عناية بعرضها عرضاً علمياً صحيحاً مؤسساً على أحدث النظريات التى قررها المحدثون فى دراسة اللهجات قديمها وحديثها ، أقول حين رأيت هذا أقدمت على نشر كتاب أستحث به الهمم على العناية بمثل هذه الدراسة ، راجياً ألا يمر زمن طويل قبل أن نرى بحوثاً جليلة تكشف لنا عن كل أسرار اللهجات العربية .

وتعد دراسة اللهجات من أحدث الاتجاهات فى البحوث اللغوية . فلقد نمت هذه الدراسة بالجامعات الأوربية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، حتى أصبحت الآن عنصراً مهماً بين الدراسات اللغوية الحديثة ، وأسست لها فى بعض الجامعات الراقية ، فروع خاصة بدراستها ، تعنى بشرحها ، وتحليل خصائصها وتسجيل نماذج منها تسجيلا صوتياً يبقى على الزمن .

وقد اعتمدت فى هذا الكتاب على المشهور من روايات الأقدمين التى جاءتنا مبتورة حيناً ، وممسوخة حيناً آخر ، لم تراع الدقة فى نقلها ، بل لم تنسب فى غالب الأحيان إلى قبائلها أو بيئاتها . ولست أعرف بين علماء العربية على كثرتهم ، وكثرة ما كتبوه فى كل فرع من فروع اللغة ، من عنى باللهجات فأفرد لها مؤلفاً مستقلا يجمع شتاتها ، ويشرح غامضها ، وإنما هى روايات متناثرة نجدها فى بطون كتب الأدب واللغة والتاريخ .

وقد ظلت الحال هكذا حتى دوت صيحة للمرحوم حفنى ناصف بك ، فى رسالته الصغيرة التى سماها : «مميزات لغات العرب» ، والتى ألقاها فى مؤتمر المستشرقين الذى انعقد بمدينة فيينا فى أوائل سنة ١٣٠٤ هجرية ، فكانت الصيحة الأولى ؛ ولكنها لم تحفز الهمم ، ولم تسمع المتصامين عن كل بحث جديد فى اللغة . فها هو ذات قد مضى على نشرها نحو ستين عاماً ، دون أن نسمع لعالم آخر صوتاً ، أو نرى له إنتاجاً فى هذا الشأن الجليل .

وقد كانت هذه الرسالة الصغيرة عمادنا فى كثير مما رويناه هنا ، بعد عرضه عرضاً علمياً مؤسساً على ما تقرره النظريات الحديثة فى دراسة اللهجات . ولعل صيحتى لا تذهب أيضاً هباء ، ولعل جامعاتنا ومعاهدنا العلمية تعنى فيما بعد بهذه الدراسة الجليلة الشأن .

وستظل آراؤنا فى اللهجات القديمة مجال الجدل والنقد ، وأحكامنا عليها أقرب إلى الترجيح منها إلى اليقين ، ما لم تؤسس على أسس علمية صحيحة ، وما لم تتبع الطريق المستقيم فى دراساتها . إذ لابد لدراسة اللهجات العربية القديمة من الاعتماد على أسس ثلاثة :

أولها : وأهمها دراسة اللهجات العربية الحديثة دراسة مستفيضة فى كل البيئات العربية . وليس هذا بالأمر الهين ؛ بل ليس هذا من عمل فرد واحد ، وإنما هو من عمل الهيئات والجماعات ؛ لأنه يتطلب السفر إلى تلك البيئات ، والإقامة فيها زمناً كافياً لتعرف خصائصها ، وما امتازت به . فهناك لهجات مصرية ، وأخرى عراقية ، وثالثة شامية ، ورابعة مغربية ، وأخيراً لهجة البلاد الجزيرية فى عرصنا الحالى . وفى كل بيئة من هذه البيئات لهجات حديثة يتكلم بها الناس ، وهى تشترك فى بعض الصفات ، ولكنها تختلف فى أمور مهمة تميز لهجة كل بيئة عن الأخرى ، حتى فى قراءتهم القرآن الكريم قد نلحظ بعض الفروق الصوتية التى تميز المصرى من الشامى ، والشامى من العراقى ... وهكذا .

وربما كان السر فى تباين هذه اللهجات الحديثة أنها : أولا انحدرت من لهجات عربية قديمة متباينة . فلم تكن القبائل التى نزحت إلى هذه البيئات ذات لهجة واحدة ، بل لقد وفدت إليها فى عهود الغزو الإسلامى وبعده ، ومعها لهجاتها المختلفة ، وأقامت بها وكل منها يحتفظ بخصائصه ومميزاته فى لهجات التخاطب التى تأثر بها أهل البلاد المفتوحة ، وبدأوا يحذون حذوها فى لهجات كلامهم وفى تخاطبهم . هذا رغم أن تلك القبائل قد احتفظت جميعها باللغة

النموذجية ، لغة الأدب والدين التى نزل بها القرآن الكريم ، فكانوا بها يكتبون ويقرأون ، وينظمون الشعر ويخطبون . فإذا خلوا إلى أنفسهم ، أو عنّ لهم من أمور حياتهم ما ليس بذى بال ، عبروا عنه بلهجتهم الخاصة ، دون حرج أو تردد . فكلامهم فى حياتهم العادية كان يخالف إلى حد كبير لغة الكتابة والأدب ، التى كانوا يلجأون إليها فى المجال الجدى من القول .

وتلك اللهجات المتباينة التى وفدت من شبه الجزيرة قد غزت بيئات معمورة يتكلم أهلها لغات غير عربية ، منها القبطى والرومانى والفارسى والآرامى والبربرى وغير ذلك من اللغات كانت شائعة فى البيئات التى تناولتها الفتوحات الإسلامية . وهنا كان لابد من صراع بين اللهجات الغازية واللهجات المغزوة أدى فى معظم الحالات إلى انزواء اللهجات المغزوة ، أو القضاء عليها قضاء تاماً .

ولكنها لم تنزو أو لم يقض عليها إلا بعد أن تركت بعض الآثار فى اللهجات الغازية من الناحية الصوتية على الأقل . فتركت القبطية قبل انزوائها بعض الآثار الصوتية فى ألسنة المصريين حين تكلموا اللهجات العربية . وإذا علمنا أن القبطية ظلت يتكلم بها فى بعض النواحى المصرية حتى القرن السابع عشر(١) ، استطعنا أن ندرك إلى أى مدى يمكن أن تكون لهجاتنا الحديثة قد تأثرت ببعض الآثار القبطية من الناحية الصوتية .

وقد حدث ما يشبه هذا فى البيئة العراقية والشامية والمغربية وهكذا . وإذا أضيف إلى كل هذا أن اللهجات العربية الحديثة قد تطورت فى بيئاتها المختلفة تطورات مستقلة ، لما أحاط بها من ظروف اجتماعية مختلفة فى كل بيئة من تلك البيئات ، ولما طرأ عليها بعد الفتح العربى من ظروف سياسية اختلفت أيضاً فى تلك البيئات ، فهناك آثار فارسية ، وأخرى تركية ، وثالثة أوربية(٢) (فرنسية وإيطالية بل وإنجليزية أيضاً) ، إذا تذكرنا كل هذا عرفنا لماذا اختلفت اللهجات العربية الحديثة فى بيئاتها ، ورأينا هذا الاختلاف أمراً طبيعياً .

ومع هذا فقد احتفظت هذه اللهجات الحديثة ببعض الآثار القديمة ، التى يمكن أحياناً إرجاعها بسهولة إلى لهجات عربية قديمة ، وأحياناً يصعب هذا إلا بعد بحث دقيق ، ودراسة عميقة .

---

(١) Mallon صفحة ١

(٢) ظهر أثر هذه اللغات الأوربية فى المدن الساحلية بصفة خاصة ؛ لا سيما فيما يتعلق باستعارة الكلمات الأجنبية واستعمالها فى لهجات التخاطب .

فمن الممكن مثلا أن يعزى النطق الخاص بالقاف فى نواحى بنى سويف والفيوم وبعض مديرية الجيزة وأهل أبيار ورشيد وضواحيها والمحلة الكبرى والبرلس وبلبيس ، للهجة فى قريش .

ومن الممكن أيضاً أن ننسب إبدال الهمزة عيناً بين سكان البوادى المصرية إلى لهجة تميم .

ومن الممكن أن ننسب ما نسمعه الآن من بعض أهل الشام والعراق حين يقفون على التاء المربوطة «بالتاء» ، إلى اللهجات اليمنية القديمة أو بعبارة أدق لهجة حمير .

ومع الممكن أن نعزو كسر حرف المضارعة ذلك الأمر الشائع فى معظم اللهجات المصرية ، إلى قبائل مثل بهراء من قضاعة .

ومن الممكن أن ننسب الصيغة العلمية «مديون» إلى لهجة تميم التى روى عنها مثل هذا .

ومن الممكن أن نعزو ميلنا إلى التسهيل فى الهمزة ، إلى القبائل الحجازية .

ومن الممكن أن ننسب ما هو معروف عن نواحى المحلة الكبرى وما حولها وجزيرة بنى نصر وأبيار وكثير من مديريتى البحيرة وبنى سويف من ميلهم إلى قطع أواخر الكلمات حين الوقوف ، إلى لهجة طئ التى عرفت بهذا .

ومن الممكن أن ننسب الإمالة المشهورة فى كثير من نواحى الريف المصرى إلى قبائل مثل تميم وأسد .

فنحن نرى من هذا أن كثيراً من الصفات التى نلحظها الآن فى لهجاتنا الحديثة يمكن – بعد الدراسة والتمحيص – إرجاعها إلى لهجات عربية قديمة .

ولكمال الكشف عن أسرار اللهجات الحديثة ، لابد من دراستها دراسة علمية صحيحة ، وتسجيل نماذج منها تسجيلاً صوتياً ، لنعرف أولا ما تتصف به كل لهجة من خصائص . هذا ودراستنا لها يجب أن تبدأ وصفية ، نشرحها ونسجلها ونحلل أصواتها وكلماتها ، دون التعرض فى البدء إلى أى نوع من المقارنات ، أو الحكم على أية صلة بلهجة قديمة ، فإذا فرغنا من الدراسة الوصفية التحليلية لكل لهجة من اللهجات الحديثة نكون قد خدمنا أغراضاً جليلة : منها تسجيل لهجاتنا التى تكوّن مرحلة تاريخية من حياتنا الاجتماعية ، ومنها إشباع رغبة العلماء منا فى الدراسات الأكاديمية البحتة للهجات الحديثة ، ثم بعد هذا وفوق هذا تصبح تلك الدراسة نواة أو مادة نستغلها فى دراسة اللهجات العربية القديمة .

ثانيها : دراسة القراءات القرآنية دراسة واسعة ، غير مكتفين فيها بما روى فى بطون الكتب ؛ بل يجب أن تطبق تلك الروايات على ما نسمعه فعلا من أفواه المجيدين للقراءات فى البيئات العربية المختلفة ، مستخدمين فى دراستنا النظريات الصوتية الحديثة ، والمقاييس والآلات التى تستخدم فى معامل علم الأصوات .

هذا إلى جانب دراسة القراء وما روى عنهم ، والبيئات التى تأثروا بها أو نشأوا فى كنفها ، وما اختلطوا به من قبائل عربية ، ثم نستخرج من هذه الدراسة ما مرجعه فن القراءات ، أو اجتهاد القدماء من القراء ، وما يمكن أن يعزى إلى لهجة قديمة أبيح القراءة بها ، أو ببعض خصائصها . فقد احتفظت لنا القراءات القرآنية بعناصر مهمة مرجعها اختلاف اللهجات العربية القديمة ، ولابد من نسبتها إلى قبائلها أو بيئاتها .

ثالثها : جمع الروايات المتناثرة فى بطون اللغة والأدب ، مما يمت إلى اللهجات القديمة بصلة ، ثم تمحيصها وتحقيقها وإصلاح ما فسد منها فى رواية مبتورة ، أو رواية ممسوخة ، سالكين طريقة تتبع السند التى عنى بها علماء الحديث لنميز الحق من الباطل ، والصحيح من الزائف . هذا إلى دراسة تاريخية مستفيضة لتنقلات القبائل قبل الإسلام وبعده ، وبيئاتها الاجتماعية فى العصور المختلفة ، وما خالطت من أمم أو شعوب .

نرى من كل ما تقدم أن دراسة اللهجات القديمة ، والكشف عن أسرارها ، ونسبتها إلى قبائلها ليس بالأمر الهين اليسير ؛ لأنه لابد قبل البدء بها من جمع المادة بها ، وهذا الجمع يتطلب جهوداً عظيمة يجب أن يقوم بها عدد من المشتغلين باللغات .

فإذا جمعت تلك المادة ، بدأنا مرحلة المقارنة ، واستنباط القوانين التى خضعت لها اللهجات العربية فى عصورها الأولى ، وقوانين تطورها بعد الفتح الإسلامى .

ولست أدعى فى كتابى هذا أنى قمت بقسط كبير مما ذكرت ، أو أنى اتبعت الطريق العلمى الدقيق التى يجب اتباعها فى دراسة اللهجات ؛ ولكن ما لايدرك؛ كله لا يترك كله .

ولعل المستقبل يكفل لنا بمساعدة الهيئات العلمية أن نجند لهذا العمل الضخم جميع المعنيين بمثل هذه الدراسات ، حتى تتم وفق الأصول العلمية الصحيحة .

إبراهيم أنيس



-١-

اللهجة(*)

اللهجة فى الاصطلاح العلمى الحديث هى مجموعة من الصفات اللغوية تنتمى إلى بيئة خاصة ، ويشترك فى هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة . وبيئة اللهجة هى جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات . لكل منها خصائصها ، ولكنها تشترك جميعاً فى مجموعة من الظواهر اللغوية التى تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض ، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث ، فهماً يتوقف على قدر الرابطة التى تربط بين هذه اللهجات .

وتلك البيئة الشاملة التى تتألف من عدة لهجات ، هى التى اصطلح على تسميتها باللغة . فالعلاقة بين اللغة واللهجة هى العلاقة بين العام والخاص . فاللغة تشتمل عادة على عدة لهجات ، لكل منها ما يميزها . وجميع هذه اللهجات تشترك فى مجموعة من الصفات اللغوية ، والعادات الكلامية التى تؤلف لغة مستقلة عن غيرها من اللغات .

وقد كان القدماء من علماء العربية يعبرون عما نسميه الآن باللهجة بكلمة «اللغة» حينا ، «وباللحن» حينا آخر . نرى هذا واضحاً جليا فى المعاجم العربية القديمة وفى بعض الروايات الأدبية . فيقولون مثلا : الصقر بالصاد من الطيور الجارحة وبالزاى لغة (بضم اللام وكسرها) . وقد يروى لنا أن إعرابيا يقول فى معرض الحديث عن مسألة نحوية : «ليس هذا لحنى ولا لحن قومى» . وكثيراً ما يشير أصحاب المعاجم إلى لغة تميم ولغة طئ ولغة هذيل ؛ ولا يريدون بمثل هذا التعبير سوى ما نعنيه نحن الآن بكلمة «اللهجة» .

ويظهر أن العرب القدماء فى العصور الجاهلية وصدر الإسلام لم يكونوا يعبرون عما نسميه نحن «باللغة» إلا بكلمة «اللسان» ، تلك الكلمة المشتركة اللفظ والمعنى فى معظم اللغات السامية شقيقات اللغة العربية . وقد يستأنس لهذا الرأى

(*) "Dialect"

بما جاء فى القرآن الكريم من استعمال كلمة «اللسان» وحدها فى معنى اللغة نحو ٨ مرات .

أما الصفات التى تتميز بها اللهجة فتكاد تنحصر فى الأصوات وطبيعتها ، وكيفية صدورها . فالذى يفرق بين لهجة وأخرى ، هو بعض الاختلاف الصوتى فى غالب الأحيان . فيروى لنا مثلا أن قبيلة تميم كانوا يقولون فى «فزت» ، «فزد» ، كما كانوا ينطقون بالهمزة عينا . كما يروى أن «الأجلح» وهو الأصلع ينطق بها «الأجله» عند بنى سعد .

وتتميز بيئة اللهجة بصفات صوتية خاصة تخالف كل المخالفة أو بعضها ، صفات اللهجات الأخرى فى اللغة الواحدة . غير أن اللهجة قد تتميز أيضاً بقليل من صفات ترجع إلى بنية الكلمة ونسجها ، أو معانى بعض الكلمات : فيروى أن بنى أسد كانوا يقولون فى «سكرى» ، سكرانة ، وأن بعضاً من تميم كانوا يقولون «مديون» بدلا من «مدين» . كما تذكر المعاجم أن كلمة «الهِجْرس» تعنى القرد عند الحجازيين ، وتعنى الثعلب عند تميم . ولكن يجب أن تكون هذه الصفات الخاصة التى مرجعها بنية الكلمات ودلالتها ، من القلة بحيث لا تجعل اللهجة غريبة على أخواتها ، بعيدة عنها ، عسرة الفهم على أبناء اللهجات الأخرى فى اللغة نفسها . لأنه متى كثرت هذه الصفات الخاصة ، بعدت باللهجة عن أخواتها ، فلا تلبث أن تستقل وتصبح لغة قائمة بذاتها . ويكفى أن نبحث فى اللغة العبرية ، شقيقة اللغة العربية عن نظائر للكلمات العربية الآتية :

[رجل ، فتى ، العم والخال ، الجبل ، البحر ، النجم ، الشجر] ، ونحو ذلك من كلمات كثيرة الشيوع فى لغتنا ، حتى ندرك أن كلا من اللغتين الشقيقتين قد استقلت بمجموعة كبيرة جداً من الكلمات . فإذا أضيف إلى هذا ما اختلفت فيه هاتان اللغتان من حيث صيغ الأفعال وأنواع الجموع وأداة التعريف ، وغير ذلك من ظواهر لغوية كثيرة ، استطعنا أن ندرك لماذا يعتبرها اللغويون لغتين مستقلتين .

فلابد أن تشترك لهجات اللغة الواحدة فى الكثرة الغالبة من الكلمات ومعانيها ، وفى معظم الأسس التى تخضع لها بنية الكلمات ، وفوق هذا وذاك فى تركيب الجمل . فإذا اختلفت معانى معظم كلماتها ، واتخذت أسساً خاصة فى بنية كلماتها ، وقواعد خاصة فى تركيب جملها ، لا تسمى حينئذ لهجة ، بل لغة مستقلة ، وإن ظلت تتصل وغيرها بوشائج تجعلها تنتمى إلى فصيلة واحدة من

الفصائل اللغوية .

فالفصيلة اللغوية تتألف من عدة لغات ، ترجع جميعها إلى أرومة واحدة ، وقد احتفظت كل منها بصفات يسهل على اللغوى إرجاعها إلى ذلك الأصل القديم. والعناصر التى تحتفظ بها لغات الفصيلة الواحدة هى تلك العناصر التى لا يصيبها إلا قليل من التغير رغم مرور الزمن عليها ، ورغم تطور فروع الفصيلة الواحدة .

وتلك العناصر القديمة تكاد تنحصر فى الأمور الآتية :

١ – الضمائر .

٢ – الأعداد .

٣ – أسماء الإشارة والموصول .

٤ – الاشتراك فى معانى نسبة كبيرة من الكلمات ذات الدلالات القديمة كالأرض والسماء وألقاب الأسرة كالأب والأم والأخ والابن .

٥ – أدوات الربط بين أجزاء الجملة .

٦ – الاشتراك العام فى كيفية تركيب الجمل .

أما تلك الصفات الصوتية التى تميز اللهجات ، فيمكن أن تلخص فى النقاط الآتية :

١ – اختلاف فى مخرج بعض الأصوات اللغوية .

٢ – اختلاف فى وضع أعضاء النطق مع بعض الأصوات .

٣ – اختلاف فى مقياس بعض أصوات اللين[1] .

٤ – تباين فى النغمة الموسيقية للكلام .

٥ – اختلاف فى قوانين التفاعل بين الأصوات المتجاورة ، حين يتأثر بعضها ببعض .

تلك هى أهم الصفات التى نلحظ بعضها أو كلها بين لهجات اللغة الواحدة . وليس من الضرورى أن نجد كل هذه الفروق ممثلة فى لهجات لغة من اللغات ، بل قد نشهد بعضاً منها فقط .

---

(١) أصوات اللين اصطلاح علمى حديث لما يسمى بالحركات طويلها وقصيرها ، انظر للمؤلف كتاب «الأصوات اللغوية» صفحة ٣٠ .

وتتباعد اللهجات أو تتقارب بعضها من بعض ، على قدر اشتمالها على الصفات السابقة ، وعلى قدر شيوع تلك الصفات . فقد يكون للغة الواحدة لهجات متقاربة ، لا يفرق بين لهجة وأخرى منها سوى صفتين أو ثلاث من تلك الصفات، في حين أن لهجات بعض اللغات متباعدة لا تكاد تستبين للسامعين ، ولا يكاد يفهمها كل الأفراد في شعب من الشعوب .

ومن العسير أن نضع حداً أدنى للفروق بين لهجات اللغة الواحدة ، متى وجد امتازت لهجة عن أختها ، أو قيل إن هذه لهجة وتلك لهجة أخرى ، وكلاهما في لغة واحدة . نعم من العسير وضع هذا الحد الأدنى ، لأن عملية النطق ليست إلا نشاطاً عضلياً يختلف أداؤه باختلاف أفراد البيئة اللغوية الواحدة . وقد برهنت التجارب الدقيقة التي قام بها علماء الأصوات اللغوية على أنه لا يكاد يوجد شخصان في بيئة واحدة ينطقان نطقاً متماثلا تمام التماثل ، بل لابد أن تلحظ الأذن المدربة بعض الفروق الصوتية الدقيقة . وقد ظهر هذا جلياً حين سجل نطق بعض الأفراد في البيئة اللغوية الواحدة . بل إن من العلماء من يؤكدون أن المرء نفسه يختلف نطقه بعض الاختلاف في كل مرة يتكلم فيها ، وإن اشتركت الكلمات نفسها في قوله . وذلك لأن عضلات النطق لا تؤدي عملها بالصورة نفسها في كل مرة . على أن مثل هذه الفروق الدقيقة بين نطق المرء ونفسه في ظرفين متماثلين ، أو بين أبناء اللهجة الواحدة ، ليست من الأهمية في الدراسة اللغوية بحيث يعنى بها ، ويحللها ويشرحها . وإنما يكتفي اللغوي عادة بملاحظة تلك الصفات العامة التي تميز لهجة من اللهجات ، والتي يشترك فيها كل أفراد تلك اللهجة ، وهي الصفات التي نراها ممثلة دائماً في كلامهم ، وتصدر عنهم بالسليقة دون تكلف أو تعمد .

هذا إلا أن الظروف الاجتماعية في البيئة الواحدة قد تولد أنواعاً من اللهجات الخاصة كتلك التي نراها بين أصحاب حرفة من الحرف أو بين اللصوص وطريدي القانون أو بين طائفة من الناس قد انعزلت عن المجتمع لسبب ديني أو سياسي .

وهكذا لا يكاد ينتهي مثل هذا التشعب في اللهجات . لهذا يكتفي المحدثون في غالب الأحيان بالنظر إلى صفات اللهجة العامة ، تلك الصفات التي تنتظم جميع الأفراد في منطقة جغرافية معينة .

ولهذا كله كان من العسير تحديد الحد الأدنى الذي تتميز به اللهجات ، وإنما

يمكن أن يقال إنه متى برزت صفات خاصة ، واتضحت للسامعين ، وظهر اختلافها عن صفات البيئات الأخرى للغة الواحدة ، أمكن القول أن هناك لهجة قد نشأت وتميزت ، وندرس حينئذ على أنها لهجة متميزة . وليس هناك رابط بين اللهجة الواحدة ككتلة متميزة ، وبين سعة بيئتها أو عدد سكانها . فقد تتكون لهجة مستقلة فى بيئة جغرافية ضيقة قليلة السكان . غير أننا نلحظ بصفة عامة أن اللهجات العربية القديمة كانت منعزلة فى بيئات ضيقة قليلة السكان ، فى حين أن اللهجات الحديثة قد اتسعت رقعتها ، وكثر المتكلمون بها .

فإذا وجد فى بيئة اللهجة الواحدة منطقة صغيرة ذات خصائص متميزة تخالف ما يشيع فى هذه اللهجة من صفات ، كأن نجد قرية تنطق بالقاف نطقاً يشبه الجيم غير المعطشة فى وسط مديرية ينطق فيها بهذه القاف همزة ، سميت مثل هذه القرية جزيرة لغوية Speech-Island . ويعنى اللغوى الحديث بمثل هذه الجزائر اللغوية عناية كبيرة فى دراسة اللهجات ، ويحاول أن يتعرف تاريخ هذه القرية والسر فى احتفاظها بمثل هذا النطق .

- ٢ -

كيف تتكون اللهجات

هناك عاملان رئيسيان يعزى إليهما تكوُّن اللهجات فى العالم ، وهما :

(أ) الانعزال بين بيئات الشعب الواحد .

(ب) الصراع اللغوى نتيجة غزو أو هجرات .

وقد شهد التاريخ نشوء عدة لغات مستقلة للغة الواحدة ، نتيجة أحد هذين العاملين أو كليهما معاً .

فحين نتصور لغة من اللغات قد اتسعت رقعتها ، وفصل بين أجزاء أراضيها عوامل جغرافية ، أو اجتماعية ، نستطيع الحكم على إمكان تشعب هذه اللغة الواحدة إلى لهجات عدة . فقد تفصل جبال أو أنهار أو صحارى أو نحو ذلك ، بين بيئات اللغة الواحدة . ويترتب على هذا الانفصال قلة احتكاك أبناء الشعب الواحد بعضهم ببعض ، أو انعزالهم بعضهم عن بعض ، ويتبع هذا أن تتكون مجاميع صغيرة من البيئات اللغوية المنعزلة ، التى لا تلبث بعد مرور قرن أو قرنين أن تتطور تطوراً مستقلا ، يباعد بين صفاتها ، ويشعبها إلى لهجات متميزة ، إذ لابد من تطور الكلام وتغيره على مرور الزمن . ولكن الطريق الذى يسلكه الكلام فى هذا التطور يختلف من بيئة إلى أخرى ؛ لأن ظروف الكلام تختلف بين البيئات المنعزلة .

ولو أمكن أن تتحد تلك الظروف لاتخذ الكلام طريقاً واحداً فى تطوره ، وشكلا واحداً فى تغيره ، ولظلت البيئات المنعزلة ذات لهجة واحدة لا تتشعب إلى صفات متباينة ، ولكن الواقع المشاهد أن البيئات متى انعزلت أشكالا متغايرة فى تطور لهجاتها ؛ فليس للانعزال الجغرافى وحده كل الأثر فى تكون اللهجات ؛ بل يجب أن يضم إليه الانعزال الاجتماعى ، واختلاف الظروف الاجتماعية بين البيئات المنعزلة ، فمن بين هذه البيئات المنعزلة ما تتخذ فيه العلاقة بين أفراد الأسرة شكلا خاصاً ونظاماً خاصاً ، ومنها ما قد تشتهر فيه مهنة خاصة ، أو تتصف بطبيعة خاصة فى تربتها تصلح لنوع خاص من الزراعة أو الصناعة . فأبناء البيئات الزراعية لهم من الظروف الاجتماعية ما يخالف ظروف أبناء

البيئات الصناعية أو التجارية .

فتلك الظروف الاجتماعية التى لا تكاد تقع تحت حصر ، هى التى تساعد الانعزال الجغرافى على اختلاف الطريق الذى يسلكه الكلام فى تطوره .

وكما أن هناك اختلافاً بين الظروف الاجتماعية ، فى البيئات المنعزلة من الأمة الواحدة ، هناك عوامل اشتراك بينها جميعاً ، قد ترجع إلى رابطة سياسية أو نعرة قومية ، أو اتجاه خاص فى التفكير . وتلك العوامل المشتركة بين بيئات الأمة الواحدة ، هى التى تحافظ على استمرار نوع من الوحدة بينها ، وتعرقل من ذلك التغير الذى قد يباعد بين بيئتها . ولا يزال الأمر بين عوامل انفصال ، وعوامل اتصال ، هذه تباعد بين اللهجات ، وتلك تقرب بينها . ولكن الغلبة فى جميع الأمثلة التاريخية كانت دائماً لعوامل الانفصال فى آخر الأمر ، فتشعبت اللغات إلى لهجات ، واستقلت اللهجات وتميزت بعضها عن بعض . ولكن كان لابد لهذا التشعب من زمن طويل حتى يتحقق وجوده .

وخير مثل يمكن أن يضرب لهذا الانعزال الذى يشعب اللغة الواحدة إلى لهجات ، تلك اللهجات العربية القديمة فى جزيرة العرب قبل الإسلام . وأحدث الأمثلة لهذا الانعزال ما حدث للإسبانية والإنجليزية حين انتشر كلاهما فى بقاع بعيدة ، الأولى فى أمريكا الجنوبية ، والثانية فى أمريكا الشمالية . وبدأنا الآن نلحظ فروقاً صوتية بين إسبانية أوربا وإسبانية أمريكا ، وإنجليزية أوربا وإنجليزية أمريكا .

فانتشار اللغة الواحدة فى بيئات منعزلة يكوّن لهجات ، لا تلبث أن تستقل وتتميز بصفات خاصة .

أما العامل الرئيسى الثانى لتكوين اللهجات فهو الصراع اللغوى نتيجة غزو أو هجرات إلى بيئات معمورة . فقد يغزو شعب من الشعوب أرضاً يتكلم أهلها لغة أخرى ، فيقوم صراع عنيف بين اللغتين الغازية والمغزوة ، وتكون النتيجة عادة إما القضاء على إحدى اللغتين قضاء يكاد يكون تاماً ، أو أن ينشأ من هذا الصراع لغة مشتقة من كلتا اللغتين الغازية والمغزوة ، يشتمل على عناصر من هذه وأخرى من تلك .

وقد حدثنا التاريخ عن أمثلة كثيرة للصراع اللغوى . فقد غزا العرب جهات كثيرة متعددة اللغات واستطاعت اللغة العربية آخر الأمر أن تصرع تلك اللغات فى مهدها ، وأن تحل محلها . فقد تغلبت على الآرامية فى العراق والشام ، وعلى

القبطية في مصر ، والبربرية في بلاد المغرب ، والفارسية في بعض بقاع مملكة فارس القديمة .

كما يحدثنا التاريخ أن غزو الرومان لجهات كثيرة في أوربا ، جعل الرومانية تحل محل عدة لغات كان يتكلم بها وفي تلك الجهات .

وقد استعرض المحدثون من علماء اللغات الأمثلة التاريخية للصراع اللغوي فرأوها أنواعاً ، وقد رأوا أن نتيجة الصراع تختلف حسب كل نوع وظروفه :

١ - فهناك غزو كان الغزاة فيه قليلي العدد ، قد اقتصر على جيش قوي كامل العدة ، ظهر تفوقه ساعة القتال ، فلما وضعت الحرب أوزارها ، وبدأ الغزاة حياة سلمية مع أهل الأرض المغزوة ، ظهرت قلتهم ، وضعف أثرهم ، وبدأ المستوطنون منهم يهجرون لغتهم الأصلية ، متأثرين بلغة البيئة الجديدة . غير أن اللغة المغزوة قد تستعير في مثل هذه الحالة بعض الكلمات والأساليب من اللغة الغازية ، كتلك التي تعبر عن نظام الحكم ، وأمور الجيش ونحو ذلك . وخير مثل لهذا غزو النورمنديين لإنجلترا في القرن الحادي عشر ، إذ تغلبت اللغة الإنجليزية على لغة الغزاة بعد زمن ما ، وقد تركت النورماندية الفرنسية آثاراً ضئيلة باللغة الإنجليزية . ويطول زمن الصراع أو يقصر في مثل هذه الحالة ، على حسب قرب اللغتين الغازية والمغزوة إحداهما من الأخرى ، وعلى قدر اعتزاز الغزاة بموطنهم الأصلي ، وتمسكهم بتقاليدهم وعاداتهم ، ومقدار اختلاطهم بالشعب المغزو .

٢ - وهناك غزو كثر الغزاة فيه ، وتبعه موجات من هجرات لذلك الشعب الغازي ، جاءت بطوائف كثيرة من الناس ، يستعمرون الأرض ، ويشتركون في مهنها وحرفها ، ويلتمسون الرزق من مواردها ، زراعة أو صناعة ، فلا يدعون مجالا لاجتلاب الخير إلا طرقوه ، ولا مورداً للحصول على نفع إلا أسرعوا إليه .

وفي مثل هذه الحالة نرى الغزاة يكونون الطبقة العليا والوسطى ، في حين أن من قهروا في عقر دارهم يكونون الطبقة الدنيا ، تلك الطبقة الضعيفة المقلدة التي تعتز بصفات الغالب ، وبكل ما جاء به ، ومن بين ذلك اللغة . فلا تلبث اللغة المغزوة في صراعها إلا زمناً قصيراً بعده تنهزم تاركة آثاراً ضئيلة جداً في اللغة الغازية التي تشيع بين الناس ، وتصبح لغة الخاص والعام . وتكاد تنحصر تلك الآثار التي تخلفها اللغة المغزوة في صفات صوتية خاصة ، أو بضع كلمات تعبر عن مهن حقيرة ، أو عن أشياء اختصت بها البيئة المغزوة من حيوان أو نبات . وخير مثل لهذا ، غزو الأنجلوساكسون لبلاد الإنجليز قديماً ، ذلك الغزو الذي

قضى على اللغة «الكلتية» القديمة التى تركت آثاراً ضئيلة جداً فى اللغة الإنجليزية الغازية .

٣ – أما هجرة شعب إلى أرض معمورة ، دون غزو منظم تقوم به جيوش محاربة ، وإنما الأمر أمر منافسة فى طلب العيش ، فقد حدثت أمثلة له فى العصور التاريخية ، حين هجر قوم من الساميين إلى بلاد ما بين النهرين ، وكونوا على أنقاض السومريين ، تلك المملكة التى عرفت فيما بعد بمملكة البابليين والآشوريين . وقد قضت هذه الهجرة السامية على اللغة السومرية بعد أن تركت فى اللغة السامية آثاراً ، وأحدثت بها أحداثاً جعلتها تباين أخواتها السامية فى جهات أخرى .

واحتكاك اللغات الغازية ومعها لهجاتها المتباينة ، باللغات المغزوة التى تشتمل على لهجات أيضاً ، يولد لنا أنواعاً جديدة من اللهجات . فنحن حين نستعرض اللهجات العربية الحديثة ، نراها قد اتخذت فى مصر شكلا من الأشكال يباين ذلك الذى اتخذته فى العراق أو الشام أو بلاد المغرب .

ويمكن أن تعزى تلك المباينة بين اللهجات العربية الحديثة إلى اختلاف لهجات الغزاة من العرب ، وإلى التطور المستقل فى تلك البيئات الجديدة ، وفوق هذا وذاك إلى أثر اللغات الأصلية فى هذه البيئات . فقد تركت القبطية قبل زوالها آثاراً فى العربية المصرية ، كما تركت الآرامية آثاراً مباينة فى عربية بلاد الشام ، وكما تركت البربرية آثاراً أخرى فى عربية بلاد المغرب وهكذا .

من أجل هذا نشهد الآن لهجات متباينة فى البلاد العربية ، ويجب أن نعمل جاهدين على التقريب بينها .

- ٣ -

وحدة النطق فى البلاد العربية

نزحت اللغة العربية من شبه الجزيرة مع الفتوح الإسلامية واستقرت فى بيئات معمورة جديدة كانت آهلة بسكان يتكلمون لغات متباينة ، بعضها قريب الشبه بلغة الفاتحين والأخرى لا تكاد تمت إليها بصلة . وبدأ الصراع اللغوى يتخذ صوراً مختلفة فى تلك البيئات المغزوة ، فهو هزيل حيناً وعنيف حيناً آخر ، حتى تم الفتح واستقرت الدولة العربية وكان أن انتظمت اللغة العربية تلك النواحى التى تأثرت بالثقافة العربية الإسلامية ، والتى تعرف الآن بالدول العربية الشقيقة .

وقد نزحت اللغة العربية إلى تلك البيئات المتعددة فى صورتين : إحداهما موحدة منسجمة وتلك هى لغة الآثار الأدبية والقرآن الكريم ، تلك اللغة النموذجية التى نمت وازدهرت قبل الإسلام فى بيئة مكة والحجاز ، والأخرى تشتمل على تلك الصفات الكلامية التى امتازت بها لهجات القبائل المتباينة إبان الفتوح الإسلامية .

وقد ظلت اللغة الأدبية موحدة فى البيئات العربية الجديدة زمناً طويلاً لم يصبها إلا القليل من التغيير حين استقلت هذه البيئات بعضها عن بعض ، ولكنها كانت دائماً مفهومة وفى متناول المثقفين من الناس الذين كانوا ولا يزالون القلة فى تلك البيئات ، كما ظلت الآثار الأدبية القديمة نماذج تحتذى ويعتز بها وتقوم على دراستها والعناية بها تلك القلة من الناس فى جميع عصورنا التاريخية .

ورغم ذلك الاستقلال السياسى الذى أصاب الدول العربية فى عصور الانحلال ، فقد ظل الاتصال الثقافى وثيقاً ، يكتب المصرى للعراقى كما يكتب الشامى للمغربى ، فيقرأ بعضهم لبعض ويعجب بعضهم بمؤلفات بعض ، لأن أداة الكتابة كانت واحدة أو تكاد تكون واحدة ، ومحور الثقافة متحد بين الجميع إذ يجمعهم دين واحد وتقاليد متحدة إلى حد كبير .

وكان المصرى يرحل إلى بيئة بغداد ليقرأ القرآن على قارئ مشهور ، أو ينزح المغربى أو الشامى إلى الديار المصرية يقرئ بعض الناس ما تيسر من كتاب الله . هذا إلى أن تدوين تلك المؤلفات فى كل نواحى الثقافة قد حد من تطور

تلك اللغة وتغيرها ، وجعل منها أداة مشتركة بين البلاد العربية . وقد سلمت من طفرات التطور والتغير لأن الآثار الأدبية التى سجلت بها فى العصور الأولى للإسلام قد ظلت بمثابة الحراس عليها ، إذ اتخذتها كل العصور مثلها العليا ، يهدف احتذاءها كل متعلم .

أما لغة الكلام وأحاديث الناس فى شئونهم العامة وأداة التخاطب بينهم فى التافه من القول ، فقد اتخذ صورة خاصة فى كل بيئة من البيئات العربية . فالناس فى أغانيهم وفى أسواقهم وبين المرء وأهله ، وفى الحديث إلى أطفالهم وأجيالهم الناشئة قد اصطنعوا لهجات متباينة ، منها انحدرت تلك اللهجات العربية الحديثة التى نشاهدها الآن فى البلاد العربية ، والتى نلقبها حيناً بالعامية وأخرى بالدارجة، دون أن نحفل بها أو بدراسة خصائصها ، بل تركناها تنمو فى أفواه الكثرة من الناس وتتطور مع الزمان تطوراً مستقلا فى كل بيئة من البيئات العربية، حتى أصبحت لغة سليقة يتحدث بها المرء دون شعور بخصائصها .

وليس مما نهدفه هنا البحث عن كيف نشأت لهجات الكلام فى البيئات العربية ، وكيف تباينت هذا التباين الذى يباعد بين أبناء ثقافة وتقاليد متحدة الأصول ، بل يكفى أن نشير إلى أن الغزاة من العرب ومن تبعوهم فى الهجرات الكثيرة قد جاءوا بلهجات عربية قديمة اختلفت بعض الاختلاف .

وتلك اللهجات المختلفة هى التى صرعت لغات الكلام فى البيئات الجديدة وحلت محلها بعد قرن أو قرنين من الزمان ، ولكن لا فى صورتها الأصلية ، بل فى صورة جديدة من بعض النواحى ، نتيجة صراعها مع تلك اللغات المغزوة التى لم تسلم قيادها إلى اللغة الغازية إلا بعد أن تركت بها بعض الآثار وصبغتها بصبغة خاصة . وقد اختلف الصراع اللغوى شدة وضعفاً فى البيئات المفتوحة ، وحيث كان الصراع هزيلا ضعيفاً شهدنا اللغة العربية أو لهجات الكلام فيها تخرج من مثل هذا الصراع سالمة لم يمسسها ضر ، وهو ما يحدث فى الجهات الغربية من شبه الجزيرة .

أما فيما بعد من الجهات فقد كان الصراع عنيفاً ، خرجت منه اللغة الغازية مشوهة لا نكاد نتبين فيها كثيراً من صفاتها الأصلية . هذا إلى أن الصراع كان بين العربية ولغات متباينة ، مما جعل الأثر المتروك فى اللغة الغازية متبايناً أيضاً.

فإذا أضيف إلى هذا أن البلاد العربية قد استقل بعضها عن بعض بعد سقوط الدولة العباسية ، وأن لهجات الكلام فيها قد أهملت وتركت وشأنها تنمو فى الأفواه

وتورث إلى الأجيال الناشئة فى صور جديدة دون حد من هذا التطور المستقل ، أدركنا السر فيما نشاهده الآن من فروق لغوية بين لهجات الكلام فى البيئات العربية .

تلك هى الحقيقة التى لا نستطيع أن نفر منها ، بل يجب أن نواجهها فى شجاعة ، وأن نفكر كيف نقرب بين هذه اللهجات حين ينطق أهلوها جميعاً لغة واحدة هى اللغة الفصيحة .

واللغة من أقوى الدعائم على التوثيق بين الأفراد فى الشعوب ، إن لم تكن أقواها . وأوضح العناصر اللغوية التى توحد بين البيئات تلك التى تتعلق بالناحية الصوتية منها ، لا سيما ونحن مقبلون على عصر فيه الدراسة اللغوية دراسة سمعية أكثر منها دراسة بصرية . فيجب ألا تنفر آذاننا من نطق بعضنا البعض ، لأن فى مثل هذا تفرقة بين أبناء الأمة العربية التى نعمل على توحيدها أو التقريب بينها .

وليس أبعث على نفور العربى من أخيه العربى من أن يسمعه ينطق الكلام نطقاً يخالف نطقه . فإذا تم لنا التقريب بين نواحى النطق فى البلاد العربية ، فقد تم لنا كل شىء ...

عناصر اختلاف النطق :

وتكاد تنحصر نواحى الاختلاف الصوتى بين لهجات الكلام فى الأمور الآتية :

١ - اختلاف فى نطق بعض الأصوات الساكنة كالكاف التى هى فى النطق الصحيح صوت شديد ، ونسمعها فى بعض اللهجات الحديثة صوتاً أميل إلى الرخاوة (تش) كما هو الحال فى بعض لهجات فلسطين وسوريا .

وكالقاف التى نسمعها الآن فى أفواه المجيدين للقراءات صوتاً مهموساً رغم أن القدماء من علماء مخارج الحروف قد وصفوها لنا على أنها مجهورة . وكالطاء التى ينطق بها فى معظم اللهجات الحديثة صوتاً مهموساً ، ومع هذا فقد رواها القدماء بين الأصوات المجهورة . وكالضاد التى نقرأ وصفها فى كتب القدماء ثم لا نكاد نجد لها فى الأفواه ذكراً إلا ربما فى نطق بعض العراقيين لها وبعض البلاد العربية الأخرى . وكالجيم التى اختلفت بين اللهجات الحديثة فطوراً شديدة كما فى النطق المصرى ، وأخرى أميل إلى الرخاوة كما هو الحال فى النطق الفصيح المروى فى كتب القدماء ، وثالثة كثيرة الرخاوة كتلك الجيم التى كثر تعطيشها كما

فى نطق المغاربة وبعض السوريين . وكالأصوات اللغوية (الذال والثاء والظاء) التى يميل حتى المتعلمين منا إلى النطق بها زاياً وسيناً وزاياً مفخمة على الترتيب.

ورغم أن القدماء قد وصفوا لنا الأصوات الساكنة وصفاً دقيقاً من ناحية المخرج والصفة ، ورغم تواتر القراءة القرآنية عن طريق التلقى والمشافهة جيلا بعد فقد جيل ، تطورت بعض الأصوات فى قراءتنا وأصبح بعضها مهموساً بعد أن كان مجهوراً ، كما أصبح بعضها شديداً بعد أن كان رخواً . واختلف هذا التطور بين بيئة وأخرى من البيئات العربية حتى أصبح الطفل العراقى الآن يخلط فى إملائه بين الضاد والظاء ، كما يخلط الطفل فى بعض قبائل السودان بين القاف والغين ، ولابد لهذا من أن تتخذ نطقاً نموذجياً يخضع له الجميع ونورثه الأبناء فى مدارسنا ، نطقاً نشترك فيه حين نعمد إلى اللغة الفصحى . والأمر فى هذا هين سهل لا يجد المتعلم بعد المران الكافى مشقة أو عنتاً فى تعود هذا النطق الذى نجمع عليه .

فإذا لوحظت الفروق الضئيلة التى أشرت إليها سابقاً وأمكن اتخاذ نطق نموذجى موحد بيننا فى هذه الفروق ، لا نلبث أن نشهد وحدة تامة بين الدول الشقيقة فيما يتعلق بالأصوات الساكنة .

٢ - اختلاف فى نطق بعض أصوات اللين Vowels ، تلك الأصوات التى سماها بعض القدماء بالحركات حين تكون أصوات اللين قصيرة ، وسموها حين تكون طويلة بحروف المد . ونحن فى الاصطلاح العلمى الحديث نجمع بين هذه وتلك فنسميها جميعاً أصوات اللين ، لأن الفرق بين الفتحة وألف المد ليس إلا فرقاً فى الكمية . وكذلك الحال بين الكسرة وياء المد . وينظر إليها المحدثون من علماء الأصوات نظرة واحدة ، لأنها جميعاً تكوّن مجموعة من الأصوات اللغوية وثيقة الاتصال بعضها ببعض .

ورغم توارث القراءات القرآنية جيلا بعد جيل عن طريق التلقى والتلقين ، فقد أهمل فى أمر أصوات اللين العربية ولم يعن بها القراء عناية كافية ، بل تركت وشأنها تتخذ فى الأفواه أشكالا كثيرة حتى صارت إلى ما نشهده الآن من فروق خطيرة بين البلاد العربية الشقيقة . وكأن القدماء قد ظنوا لخلو الرسم العربى من هذه الأصوات فى غالب الأحيان ، أنها ليست عنصراً من عناصر اللغة ، فى حين أنها لكثرة شيوعها فى الكلام والنطق ، أوضح وأبرز فى تكوين الفروق بين اللهجات .



لهذا أكرر القول بأن الانسجام فى أصوات اللين أولى بالعناية من الأصوات الساكنة ، بل تلك هى المشكلة الخطيرة التى يجب أن نواجهها وأن نعمل على حلها، وذلك بأن تتخذ مقاييس خاصة لأصوات اللين نمرن عليها ونتعودها ولا نحيد عنها ، مهما صادفنا فى هذا من عنت وعسر .

٣ - اختلافنا فى موضع النبر من الكلمة : وهذا هو المظهر الصوتى الثالث الذى يفرق بين النطق فى البلاد العربية ، بل ويفرق أيضاً بين لهجات الكلام فى الإقليم الواحد حتى فى نطقهم القرآن الكريم . فاستمع مثلا إلى قاهرى أو من أبناء الوجه البحرى يقرأ قوله تعالى «فتحرير رقبة مؤمنة» أو قوله «ويل لكل همزة لمزة» فستراه يضغط فى الكلمات (رقبة ، مؤمنة ، همزة ، لمزة) على مقطع خاص فى كل منها يخالف ما يصنعه الرجل من أهل الصعيد حين يقرأ هاتين الآيتين . ذلك هو مثل واضح يبين ما نعنى باختلاف موضع النبر بين نطق أبناء الدول الشقيقة .

وسائل توحيد النطق :

بقى بعد هذا أن أعرض عرضاً سريعاً لبعض الوسائل ، التى أرجو أن تمكننا من التغلب على تلك الحوائل الصوتية التى تفصل بيننا وتجعل نطقنا متبايناً .

ليس من المعقول طبعاً أن نطمع فى جعل كل فرد من المتعلمين يدرك تلك الفروق الصوتية إدراكا علمياً ، بل إن هذا يكاد يكون مستحيلا . وإنما الذى يمكن أن نهدفه هو أن نتخير طبقة منهم تدرك تلك الفروق ذلك الإدراك العلمى بعد دراسة مستفيضة لها فى معاهد المعلمين . فلنعمل إذاً على تكوين ما أسميه بالمدرس الخاص ؛ أى الذى يصلح للتدريس فى بيئة معينة من البيئات العربية يكون قد درس عاداتها الصوتية دراسة علمية صحيحة ، تلك العادات التى كونتها لهجة الكلام فيها ، وأصبح الناس هناك يتميزون بها عن غيرهم ، ثم يكون مع هذا على علم تام بخصائص النطق النموذجي الذى نهدفه ، والذى نرجو أن ينتظم كل البيئات العربية ، ليحاول التوفيق بين صفات صوتية مصدرها لهجة الكلام فى كل بيئة وتلك الصفات الصوتية التى ستتم المواضعة عليها فى النطق النموذجى للغة الفصحى . فمتى عرف كل هذا سهل عليه تخير النماذج الخاصة التى يدرب عليها تلاميذه الصغار تدريباً سمعياً ، دون حاجة إلى الالتجاء إلى اصطلاح فى أو شرح علمى .

ويحسن أن يختار هذا النوع من المدرسين اختياراً خاصاً من بين أولئك الذين لهم آذان موسيقية مرهفة وممن وهبوا القدرة على تقليد الأصوات . وحين

نصطلح على النطق النموذجى الذى نرتضيه جميعاً يسجل هذا النطق تسجيلاً صوتياً ويدرس دراسة علمية مفصلة لهذا النوع من المعلمين فى معاهدهم ، فإذا انتهوا من هذا وزعوا على البيئات العربية ليكونوا رسل الوحدة الثقافية بين هذه البلاد ، عنهم يتلقى التلاميذ الصغار ذلك النطق النموذجى بطريق المحاكاة والتلقين . ومن حسن الحظ أن الصغار من النشء أقدر على التقليد والمحاكاة .

وهناك وسائل أخرى ربما تكون أعم نفعاً ، لأنها تكفل لنا تكرار هذا النطق النموذجى على آذان الناس فى كل وقت وكل مكان ، لا تقتصر على البيئة المدرسية ، بل يتأثر بها الخاص والعام أينما كانوا ، وتلك هى الإذاعة وأفلام السينما والروايات المسرحية . فإذا نشأنا المذيعين والممثلين تنشئة خاصة راعينا فيها الغناية بنطقهم وجعلنا منهم أداة نافعة لنشر ذلك النطق النموذجى بين الناس يسمعونهم فيحاولون تقليدهم ، استطعنا بهذا أن نقطع شوطاً بعيداً فيما نهدف إليه من تقريب النطق بين أبناء الدول الشقيقة . ولا مناص من جعل أداة القول فى كل هذا تلك اللغة الفصيحة التى نقرؤها فى تراثنا الأدبى القديم وفى صحفنا ومجلاتنا الحديثة ، ففيها قدر مشترك كبير بين جميع البلاد العربية .

- ١ -

اللغة العربية قبل الإسلام

طفولة اللغة العربية :

حين نفكر فى حال اللغة العربية قبل ظهور المسيحية مثلا نجد أنفسنا فى ظلام دامس ، فليس بين أيدينا نصوص عربية ترجع إلى تلك العهود . فأقدم ما عثر عليه من نصوصها لا يكاد يجاوز القرن الثالث الميلادى . وليس معنى هذا أن اللغة العربية لم تكن موجودة قبل المسيحية ، أو أنها أحدث من شقيقاتها السامية كالعبرية مثلا ، بل يؤكد لنا المستشرقون أن اللغة العربية المألوفة لنا قد احتفظت بعناصر قديمة ترجع إلى السامية الأم أكثر مما احتفظت به الساميات الأخرى . ففيها من الأصوات ما ليس فى غيرها من اللغات السامية ، وفيها ظاهرة الإعراب ونظامه الكامل ، وفيها صيغ كثيرة لجموع التكسير ، وغير ذلك من ظواهر لغوية ؛ يؤكد لنا الدارسون أنها كانت سائدة فى السامية الأولى التى انحدرت منها كل اللغات السامية المعروفة لنا الآن ؛ أى إن لغة سامية كالعبرية مثلا قد مرت بها مراحل من التطور والتغير أبعدتها عن السامية الأولى ، أكثر مما مرَّ باللغة العربية التى انعزلت فى شبه الجزيرة واقتصر تطورها أو تغيرها على ظواهر قليلة بالنسبة لشقيقاتها من الساميات .

ولعل أوضح تفسير لندرة النصوص العربية التى يمكن أن ترجع إلى ما قبل ظهور المسيحية هو شيوع الأمية فى شبه الجزيرة ، وأن العرب قبل الإسلام لم يكونوا أهل كتابة وقراءة(١) . فلدينا من النصوص العبرية مما يرجع إلى القرون الثمانية قبل الميلاد الشىء الكثير ، نراها ممثلة فى نصوص التوراة وكتب الأنبياء وغيرها من نصوص العهد القديم . فى حين أن أقدم نصوص العربية على الصورة المألوفة لنا لا تكاد تجاوز قرنين من الزمان قبل الإسلام ، وتلك هى

---

(١) انظر دلالة الألفاظ ص ١٨٧ .

النصوص التى ندرسها ونسميها بالأدب الجاهلى ؛ أى إننا نجهل جهلاً تاماً ما يمكن أن يسمى بطفولة اللغة العربية ، ويحاول الدارسون جاهدين أن يستشفوا شيئاً عنها بالدراسة المقارنة للغات السامية ونصوصها التى انحدرت إلينا .

ومع هذا يصرّ بعض المستشرقين على أن كثيراً من النقوش التى عثروا عليها فى شمال شبه الجزيرة يمثل لغتنا العربية فى العهود التى سبقت الأدب الجاهلى .

فقد عثر بروفسير «ليتمان» وحده على نحو ١٤٠٠ نقشاً حاول فك رموزها وتفسير كلماتها ، وقرر أنها صورة للغة العربية قبل العصر الجاهلى . على أن هذه النقوش لخلوها من النقط والحركات ، بل ومعظم حروف المدّ ، كانت محل خلاف كبير بين الدراسين فى تفسيرها ، فلم يهتدوا فى شأنها إلى رأى حاسم قاطع .

ومن أشهر هذه النقوش التى يقال إنها تمثل اللغة العربية قبل الأدب الجاهلى ثلاثة نقوش :

(أ) نقش «النمارة» وهو قصر صغير بالقرب من دمشق لامرئ القيس أحد ملوك الحيرة . ويبدأ النقش بالنص التالى : «تى نفسى مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التاج ..» .

ويرجع تاريخ هذا النقش كما يؤكد الدارسون إلى سنة ٣٢٨م . ويلاحظ أن به كلمة «بر» بمعنى «ابن» ، وكلمة «بر» هذه هى الصورة الآرامية لكلمة «ابن» المألوفة فى كثير من الساميات الأخرى .

(ب) نقش «زبد» وهى أطلال بالقرب من حلب ، ويسجل هذا النقش تاريخ تشييد كنيسة فى تلك المنطقة . ويرجع تاريخه إلى سنة ٥١٢م .

(حـ) نقش «حوران» وعثر عليه جنوب دمشق ويقال إنه يرجع إلى سنة ٥٦٨م أى أيام ولد النبى «محمد» . ومع ذلك نجد فيه كلمات لا تعرفها العربية مثل كلمة «المرطول» بمعنى الكنيسة ، كما نرى فيه كلمة «بر» الآرامية ، ويبدأ نص هذا النقش كما يلى : «أنا شر حبيل بر ظلموا»(١)!!

وحين نسلم جدلا أن لغة هذه النقوش تمثل مرحلة من مراحل اللغة العربية يجب أن نعترف أن نصوصها ضحلة لا تقنع الباحث لتلقى ضوءا كاشفاً على حال

---

(١) تاريخ اللغات السامية ، ولفنسون . ص ١٩٠ – ١٩٢ .

اللغة العربية فى تلك العهود ، فهى فى مجموعها لا تكاد تعادل سفراً صغيراً من أسفار العهد القديم . هذا إلى أن كثيراً من كلماتها عبارة عن أعلام لأشخاص ، ولاتكاد تجدى مثل هذه الأعلام فى البحث اللغوى . وفوق هذا وذاك تعرض هذه النقوش لأمور متشابهة كتسجيل تاريخ كنيسة أو قبر ، مما جعل كثيراً من عباراتها وألفاظها يتكرر ويجعل نصوصها قليلة القدر لا تكفى فى بحث لغوى جدى ، ولكنها ربما تفيد بعض الفائدة فى البحث التاريخى .

على أننا بعد استعراض كثير من هذه النقوش نرى لغتها مزيجاً غريباً . فبينها وبين اللغة العربية المألوفة لنا وجوه شبه ووجوه خلاف .

أما وجوه الشبه فهى أن نصوص هذه النقوش تتضمن من الأصوات مالم يعد موجوداً فى الساميات الأخرى مثل [ذ ث ظ غ ض] . وفيها كلمات كثيرة مشتركة مع العربية فى معناها وصورتها ككلمة «الإله» ، ومعظم الأعلام بها أعلام عربية مثل امرئ القيس ، كعب وغيرها . ويلحظ الدراسون فى لغة هذه النقوش أن بها آثاراً لظاهرة الإعراب التى تعدّ من أخص خصائص اللغة العربية وفيها كذلك التعبير عن التفضيل بصيغة خاصة كما فى العربية .

أما وجوه الخلاف فلعل من أهمها استعمال كلمة «بر» الآرامية بدلا من كلمة «ابن» ، ووجود كلمات لا تعرفها العربية كالمرطول بمعنى الكنيسة . ولعل أهم من هذا وذاك أن أداة التعريف بهذه النقوش هى الأداة المألوفة ، فى الآرامية .

ليس من الإسراف إذاً أن نقرر أن لغة هذه النقوش مزيج من اللغتين العربية والآرامية ، وأنها كانت لغة قوم من العرب عاشوا فى قديم الزمان فى شمال الجزيرة العربية وتأثرت لغتهم بالآرامية .

لهذا كان من رأيى المتواضع عدم الاعتماد على لغة النقوش فى دراسة طفولة اللغة العربية ، قانعين بدراسة تلك النصوص ، التى لا نشك فى صحتها من الأدب الجاهلى ، ففيها القدر الكافى لتوضيح حال اللغة العربية قبل الإسلام .

لغة الأدب الجاهلى :

حين نعرض للغة العربية قبل الإسلام ، لا نريد أن نذهب إلى أبعد من تلك العصور الجاهلية التى رويت لها آثار أدبية من شعر أو نثر .

والذى تحققت صحته من تلك الآثار الأدبية . لا يكاد يجاوز قرناً أو قرنين قبل ظهور الإسلام . وقد ظلت تلك الآثار الأدبية تتناقلها الألسن ، وتعيها الحافظة

زمناً بالقصير . ومهما يكن من عناية العرب بآدابهم ، واعتمادهم على الذاكرة ، حين فقدت وسائل التدوين ، وشاعت الأمية بينهم ، مهما يكن من قوة هذه الذاكرة ، فلا شك أن تلك الآثار قد اعتورها من عوامل النقص والزيادة ، وضعف الرواية فى بعض الأحيان ، مما جعل العلماء قديمهم وحديثهم يتشككون فى صحة بعض تلك الآثار ، أو على الأقل فى نسبتها لأصحابها ، لأنه قد مرت فترة تزيد عن قرنين بين عهد أنشئت فيه تلك الآثار وعهد التدوين .

والتاريخ السياسى والاجتماعى لجزيرة العرب قبل الإسلام ، غامض فى كثير من نواحيه ، وما روى عنه فيما بعد قد اشتمل على كثير من الروايات التاريخية التى تعوزها دقة الرواية والتحقيق العلمى . ومع هذا فنستطيع مما روى لنا أن نتصور جزيرة العرب فى الجاهلية منقسمة إلى بيئتين تكادان تكونان مستقلتين من الناحيتين الاجتماعية والثقافية : البيئة الأولى بيئة الحواضر فى مكة ويثرب وفى مدن اليمن الكبرى ، وبلاد الحيرة جنوب العراق وعلى حدود الصحراء وبلاد الغساسنة جنوب الشام ، والبيئة الأخرى البيئة البدوية المتنقلة التى لا تكاد تستقر على حال .

ورغم تلك العوامل السياسية والاجتماعية التى قربت بين البيئتين قبل الإسلام ، من مواسم للحج ، وأسواق للتجارة ، فقد ظل النظام فى البيئة البدوية قبلياً ، فيه الاعتزاز بالقبيلة ورئيسها ، وما يمكن أن يكون فيها من تقاليد خاصة تمسكوا بها وذادوا عنها . ولم يتوثق الاتصال بين هاتين البيئتين إلا قبيل الإسلام بعد أن ظلت الجزيرة عشرات من السنين قبل هذا مفككة الصلات ، تكونت فيها جماعات من الناس استقلت بحياتها وتقاليدها ، وانعزلت بعضها عن بعض .

فأبعد ما يمكن أن نتصوره لجزيرة العرب هو أن نراها مكونة من وحدات منعزلة تتمثل فى قبائلها . وانعزال تلك القبائل بعضها عن بعض ، واستمساكهم بنظمهم وتقاليدهم ، فقد أدى إلى نشأة اللهجات العربية القديمة التى روى لنا طرف منها فى كتب اللغة والأدب والتاريخ . ورغم اشتراك القبائل فى بعض النظم الاجتماعية ، قد دعت تقاليدها الخاصة ، وبيئاتها الجغرافية الخاصة ، إلى تطور مستقل فى لهجاتها ، وكان من نتيحته تلك الصفات الخاصة التى نلحظها فى لهجة كل قبيلة . فالقبيلة التى دعت ظروفها إلى شن الغارات وإلى التفرقة بين المرء وأهله ، وبعد الأطفال عن رعاية أهليهم ورقابتهم ، ليست كتلك التى ظلت زمناً طويلا هادئة وادعة قد توثقت فيها الصلة بين أفراد الأسرة . لأنه فى الأولى

ينشأ الأطفال منعزلين قليلى الاحتكاك والاتصال برجال القبيلة . ومثل تلك الحال تساعد على نمو تلك التطورات اللغوية التى عزوها المحدثون عادة إلى الأجيال الناشئة وأخطائهم . فإذا مر جيل أو جيلان رأينا تلك التطورات التى لم تكن فى بادىء الأمر إلا أخطاء أطفال لم تصلح فى حينها ، قد أصبحت فيما بعد عنصراً صحيحاً معترفاً به بين المتكلمين بهذه اللهجة . هذا إلى ما قد يكون للأمهات من أثر فى تطور اللهجة من حال إلى حال ، وكل هذا نتيجة الانعزال بين رجال القبيلة ونسائها وأطفالها لظروف اجتماعية خاصة .

أما حيث تتوثق الصلة بين أفراد القبيلة فنلحظ أن التغير يكون بطيئاً ، ولكنه ينمو أيضاً مع الزمن ، لأن الكلام عملية عضوية لا تؤدى دائماً بشكل واحد ، فلاتلبث الأجيال المتعاقبة أن تتوارث صوراً مختلفة منه ، ثم تتراكم تلك الاختلافات حتى تصبح صفة خاصة .

فاللهجات العربية القديمة هى نتيجة انعزال القبائل ، ونتيجة التطور المستقل لكلام كل قبيلة ثانيا . ولابد من مرور زمن طويل قد يبلغ قرنين أو ثلاثة ، قبل أن تتبلور تلك الصفة وتصبح من مميزات قبيلة من القبائل .

وليس يعنينا هنا البحث عما كانت عليه تلك اللهجات القديمة قبل العصور الجاهلية التى روى لنا الشىء الكثير عنها ، ولا البحث عن المراحل التى مرت بها حتى صارت على الصورة التى رويت لنا فى كتب التاريخ والأدب ، وإنما الذى نهدفه هنا هو أن نصور تلك اللهجات التى نعرفها من روايات الرواة تصويراً علمياً صحيحاً بقدر الإمكان .

نحن إذاً أمام لهجات مستقلة ذات صفات خاصة ، تميزت بها القبائل العربية قبل ظهور تلك العوامل السياسية التى أدت آخر الأمر إلى ظهور الإسلام . فلما دعت الحاجة إلى اتصال تلك القبائل فى مواسم الحج قبل الإسلام وإلى عقد تلك المؤتمرات الثقافية التى سميت بالأسواق ، بدأت الحاجة إلى وسيلة للتفاهم تجمع بين تلك القبائل . وهنا نشهد ما يحدث عادة بين البيئات المنعزلة حين تبغى الوحدة ، إذ تتخذ مركزاً واحداً تتطلع إليه ، وتطمئن إليه ، لما يمتاز به من نهضة فى الثقافة أو نفوذ سياسى .

وليس هناك ما يقرب بين الجماعات المتنافرة ، كاللغة الموحدة التى تجمع شملهم وتلم شتاتهم .

فلما بدأت عوامل الوحدة السياسية والثقافية بين القبائل تهيأت كل الظروف لجعل مكة مركزاً لتلك الوحدة ، وبدأ رؤساء القبائل يفدون إليها يحجون إلى ذلك البيت الذى قدسوه قبل الإسلام ، كما وفدوا للتجارة ، وليشهدوا منافع لهم فى أسواق كانت مجالا للثقافة بين القبائل ، فيها تعقد المناظرات الأدبية والمساجلات من شعر أو خطابة . ويذكر الرواة أن أسواق العرب قبل الإسلام كانت فى أرجح الآراء ثمانى أسواق أشهرها : «عكاظ» وهى السوق العامة للعرب وكانت تعقد حول مكة فى أوائل شهر ذى القعدة . وكانت سوق «المجنة» تعقد بعدها فى أواخر هذا الشهر، ثم تعقد سوق «ذو المجاز» فى أوائل شهر ذى الحجة . أما سوق «خيبر» فكانت تعقد بعد أشهر الحج .

وليؤدى الخطيب رسالته كاملة واضحة ، وليترك سامعيه مشدوهين معجبين بقوله وبلباقته ، كان عليه أن يتحاشى تلك الصفات المحلية التى تتصل بلهجة من اللهجات ، وأن يتحدث إلى القوم بلغة تواضعوا عليها ، وألفوها جميعاً . كذلك كان لابد لأولئك الشعراء الذين جاءوا من بيئات متباينة أن ينظموا شعرهم بلغة خالية من عنعنة أو عجعجة أو كشكشة ، لينال إعجاب سامعيه ، ولا يكون موضع سخريتهم وهزئهم . وإلا فكيف كان من الممكن أن يفضل شاعر على شاعر فى تلك المناظرات إذا كان المقياس مختلفاً ، وأداة القول متباينة .

لهذا توحدت القبائل فى لغة أدبية ممتازة مختارة الألفاظ يعمد إليها الشاعر والخطيب كلما عنّ له القول . وتلك كانت اللغة النموذجية ، لغة الخاصة من الناس، اللغة التى استحقت أن تروى آثارها ، ويعتز بها طويلا .

وظلت مع هذا كل قبيلة تتمسك بلهجة كلامها فى الخطاب العادى بين أفراد القبيلة بعضهم مع بعض . فالوحدة اللغوية بدأت قبل ظهور الإسلام ؛ بل ونمت وازدهرت ، وعرف كثير من العرب من قبائل مختلفة بفصاحة القول وإجادة الشعر؛ لأن إتقان تلك اللغة الأدبية كان موضع فخر بين رؤساء القبائل والخاصة من الناس ، يحاولون إتقانها والتفنن فى نواحى القول بها .

وعلى هذا إذا قيل لنا إن القرآن الكريم قد تحدى الفصحاء من العرب ، فليس يعنى هذا أنه تحدى جميع العرب ؛ وإنما قد تحدى أولئك الذين كرسوا حياتهم على نواحى القول فأجادوها خطابة وشعراً ، أولئك الذين هم خاصة العرب والمثقفون منهم . وليست كل الثقافة قراءة أو كتابة ، فربما كان بين الأميين مثقفون تفتقت أذهانهم ، ونظروا إلى الحياة نظرة أوسع وأشمل من كثير ممن يحسنون تلك الوسيلة

الناقصة التى تسمى بالكتابة .

وأهم وسيلة فى الثقافة اللغوية هى تلك الوسيلة الطبيعية التى عن طريقها تعلمنا الكلام ، أعنى وسيلة السماع ؛ فهى أسرع وأدق من وسيلة الكتابة والقراءة ، ولكن نفعها مقصور على السامعين ، وعلى أولئك الذين تتاح لهم الفرص ليشهدوا مجال القول ممن وهبوا اللياقة فى الكلام ، والذلاقة فى اللسان .

وإذا كان للقراءة والكتابة فضل فهو الشمول ، واتساع دائرة الثقافة ؛ لهذا كانت الثقافة اللغوية فى الجاهلية مقصورة على أولئك الذين شهدوا مجالس الخطابة والشعر ، وهم الخاصة من الناس .

ولما جاء الإسلام ، ونزل القرآن بتلك اللغة الأدبية قوّى من تلك الوحدة اللغوية التى كانت قد نمت وازدهرت قبل نزوله ، وزاد فى شمولها لأن الرغبة الدينية ، وقوة الشعور الدينى قد دعا كثيراً من العامة إلى تفهم الكتاب الكريم والتعبد به . ولم يكن الأسلوب القرآنى فى متناول جميع العرب ، بل كان أسمى من هذا وأرقى ؛ فقد جاء يتحدى الخاصة منهم ، وظل حتى الآن يتحدى الخاصة منا . ولم يمنع هذا أن يبجل فى كل جيل ، وأن يتعبد به فى كل زمان .

وإلا فكيف نتصور أن عمر بن الخطاب وهو من خاصة العرب وفصحائهم لا يدرى معنى كلمة «أبا» فى قوله تعالى «وفاكهة وأبا متاعاً لكم ولأنعامكم» ! وكيف نتصور ما أجمعت عليه الروايات من أن بعضاً من فصحاء العرب وأهل البيان فيهم كانوا يؤخذون بروعة الأسلوب القرآنى حين سماعه للمرة الأولى فيسلمون ويصدقون ما جاء به الرسول الكريم :

فقد أسلم عمر بن الخطاب حين سمع سورة طه ، وأسلم جبير بن مطعم حين دخل على النبى وهو يقرأ «والطور وكتاب مسطور» إلى قوله «إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع» ، فقال جبير : خشيت أن يدركنى العذاب ، ثم أسلم . كذلك ماروى من أن جماعة من قريش بعثوا بعتبة بن ربيعة إلى النبى ليكلمه ، وكان حسن الحديث عجيب الشأن بليغ الكلام وأرادوا أن يأتيهم بما عنده ، فقرأ النبى سورة «فصلت» من أولها حتى انتهى إلى قوله «فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة عاد وثمود» ، فوثب عتبة مخافة العذاب ثم أسلم .

ولله در الباقلانى[1] حين يصف إعجاز القرآن وسموه عن مستوى

(١) إعجاز القرآن صفحة ٢٨ .

متوسطى الناس ، بل حتى عن المتناهين فى معرفة الشعر وحده ، أو المتناهين فى معرفة الخطب والرسائل وحدهما فيقول :

«وقد علمنا تفاوت الناس فى إدراكه ومعرفة وجه دلالته ، لأن الأعجمى لايعلم أنه معجز إلا بأن يعلم عجز العرب عنه ، وهو يحتاج فى معرفة ذلك إلى أمور لا يحتاج إليها من كان من أهل صنعة الفصاحة . فإذا عرف عجز أهل الصنعة حل محلهم وجرى مجراهم فى توجه الحجة عليه . وكذلك لا يعرف المتوسط من أهل اللسان من هذا الشأن ما يعرفه العالى فى هذه الصنعة . فربما حل ذلك محل الأعجمى فى ألا تتوجه عليه الحجة حتى يعرف عجز المتناهى فى الصنعة عنه . وكذلك لا يعرف المتناهى فى معرفة الشعر وحده أو الغاية فى معرفة الخطب والرسائل وحدهما غور هذا الشأن ما يعرف من استكمل معرفة جميع تصاريف الخطاب ووجوه الكلام وطرق البراعة ، فلا تكون الحجة قائمة على المختص ببعض هذه العلوم بانفرادها دون تحققه بعجز البارع فى هذه العلوم كلها عنه . فأما من كان متناهياً فى معرفة وجوه الخطاب وطرق البلاغة والفنون التى يمكن فيها إظهار الفصاحة فهو متى سمع القرآن عرف إعجازه» .

ولا معنى لأن ننساق مع بعض الرواة الأقدمين فننسب لكل العرب الفصاحة فى القول ، والإجادة فى صناعة الكلام ، إذ ليس العرب إلا شعباً ككل الشعوب فيهم القليلون ممن وهبوا تلك الصفة ، وأغلبهم من العامة الذين يكتفون فى حياتهم بنصيب ضئيل من حسن القول وفصاحته .

وتلك اللغة الأدبية التى خطب بها الخطباء ، وشعر بها الشعراء ، ونزل بها القرآن الكريم ، لم تكن لغة تخاطب للناس فى حياتهم العامة ، بل يجب أن تنزه عن هذا ، وأن نرقى بها إلى مستوى أرفع منزلة من أساليب التخاطب . لم تكن إذاً لغة سليقة يتكلمها الناس دون شعور بخصائصها ، بل كان المتكلم بها يشعر كل الشعور بنواحى القوة والجمال فيها ، ويتطلع إلى إجادتها وتحسينها . أما لغة التخاطب فهى تلك التى يمكن أن يقال إن الناس كانوا يتكلمونها بالسليقة ، ويؤدون بها التافه من شئونهم ، لا يعمدون إليها عن قصد ، ولا يتخيرون ألفاظها ، بل يكتفون منها بتأدية الأغراض العامة فى الحياة العادية ، فإذا جد الجد وتطلب المجال نواحٍ خاصة من القول ، نواحى جدية لا يعمد إليها فى كل يوم ، لجأ المتكلم من الخاصة إلى تلك اللغة الأدبية ، ورآها أهلا لذلك .

لهذا رويت لنا الآثار الأدبية القديمة فى لغة موحدة ، لا تشتمل على

خصائص من تلك التى رويت عن اللهجات العربية القديمة . ولا يعقل أن الرواة رووها موحدة ، وغير تلك الصفات الخاصة التى يمكن أن يكون قد اشتمل عليها شعر شاعر من قبيلة عرفت بلهجة من اللهجات ، لأن مثل هذا التغيير ليس ممكناً في كل الحالات ؛ فإذا أمكن عمله فى النثر ، فإن الوزن الشعرى يأباه فى بعض الأحيان .

ونحن حين نستعرض شعراء ربيعة تلك القبيلة التى عرفت بالكشكشة لانكاد نلمح أثراً لتلك الصفة فى شعر شعرائها ، ورواية شعر فيه كشكشة بشعر خال منها تأباه بعض الأوزان الشعرية .

بل حين نرجع إلى ديوان الهذليين[1] لنستشف منه الصفات التى عرفت بها لهجة هذيل كالفحفحة أو تسهيل الهمز أو الاستنطاء ، لا نكاد نعثر على أثر لها فى أشعارهم .وكل الذى نراه فى الديوان مما ينسب إلى هذيل وحدها لا يعدو أن يكون بضع كلمات قيل لنا إنها بلفظها ومعناها قد اختصت بها هذيل مثل : إبل ضحضاح أى كثيرة ولا يعرف هذا غير هذيل ، والخيطة أى الوتد ، أو بمعناها فقط مثل : الطِّرف بمعنى الفتى الكريم والجحش بمعنى الخِشف . وهناك كلماتٍ وردت بالديوان فى صيغة خالفة لما اشتهر عنها مثل : سميج بمعنى سمْج ، نجُد بمعنى نجْد ، والسب بمعنى السبب أى الحبل . ويوصف كلَ هذا بأنه لغة هذيل !!

ويظهر أن شراح الديوان حين كان يعييهم تفسير كلمة من الكلمات أو تبرير صيغتها كانوا يعمدون إلى القول بأنها لهجة هذيل . فليس ماورد بالديوان مما يسمى بلغة هذيل إلا نوعاً من مما حكاه المفسرين والشراح .

انظر مثلا إلى قولهم إن البيت :

بأسفل ذات الدبر أفرد خشفها　　　فقد ولهت يومين فهى خلوج[1]

قد روى بكلمة «جحش» بدلا من «خشف» ، ثم يزعمون أن الجحش بمعنى الخشف عند هذيل ، فى حين أن كلمة الخشف قد استعملها الشاعر بمعناها المعروف وهو ولد الظبية فى مواضع أخرى من الديوان .

---

(١) طبع دار الكتب .

(١) ذات الدبر : موضع ، خلوج انتزع منها ولدها .

كذلك حين يروون للبيت :

تروت بمــاء البحر ثم تنصـبت   عـلى حبشـيّات لهن نئيــج[٢]

رواية أخرى ويقولون :

شرين بماء البحــر ثم ترفـعت   متى لجج خضـر لهن نئيج

لا لشيء سوى أن يزعموا لنا أن «متى» فى لهجة لها معنى خاص ! وحين يتخبطون فى شرح البيت :

عـلى أطــرقا باليــات الخــيا   م إلا الثمـام وإلا العصـــيُّ

فبينما يقول بعضهم إن «أطرافا» موضع ، يقول آخرون إنها جمع طريق على لغة هذيل ! !

وبينما يقول الأخفش إن «نُجُد» لغة هذيل فى «نَجْد» ، نرى الصيغتين مستعملتين فى شعر الهذليين .

وهكذا نرى أن لغة الشعر على الأقل قد خلت من صفات اللهجات التى اشتهرت بها القبائل ، مما يجعلنا نرجح أن اللغة الأدبية كانت موحدة قبل الإسلام وظلت موحدة بعده ، وقد خلت من الصفات المحلية للهجات ، تلك الصفات التى نفر منها خاصة العرب ، وأصبحت بعد الإسلام موضع السخرية فى كثير من الأحيان : فقد رويت لنا روايات كثيرة عن بعض الأعراب وقد حضروا مجالس الخلفاء ولا سيما أمام معاوية ، حين برئوا من طمطمانية حمير وعجعجة قضاعة ، وعدوا أمثال تلك الصفات بعداً عن الفصاحة ، بل تكاد تكون نوعاً من الرطانة أو العجمة .

قال الجاحظ فى البيان والتبيين[١] [سأل معاوية يوماً : من أفصح الناس ؛ فقال قائل قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات وتيامنوا عن كشكشة تميم وتياسروا عن كسكسة بكر ، ليست لهم غمغمة قضاعة ولا طمطمانية حمير ، قال من هم ؟ قال: قريش] .

---

(١) نئيج : مر سريع مع صوت

(٢) جزء ثالث صفحة ١٣٧ طبعة الرحمانية .

- ٢ -

كيف كان ينظر إلى اللهجات

لقد اختلفت النظرة إلى اللهجات العربية باختلاف العصور ، والعوامل السياسية والاجتماعية فى كل منها :

فقبل الإسلام استمسكت كل قبيلة بصفاتها الكلامية ، فى حديثها العادى وفى لهجات التخاطب ، ولكن الخاصة من الناس فى تلك القبائل قد لجأوا إلى تلك اللغة النموذجية التى نشأت فى مكة ، فى شئونهم الجدية يخطبون بها وينظمون الشعر ، وينفرون من صفات اللهجات فى مثل هذا المجال . حتى إذا عادوا إلى بيئتهم تحدثوا إلى الناس فى الشئون العامة بمثل لهجتهم ، لئلا تنفر منهم النفوس . وإنما مثلهم فى هذا مثل بعض الأعيان من أهل الريف المصرى حين يفدون إلى القاهرة ، ويخالطون المثقفين فيها فلا نكاد نلحظ فى كلامهم صفات خاصة تنبئ عن بيئتهم الريفية . فإذا عمدوا إلى مقرهم الأصلى سمعتهم يخاطبون الناس بلهجاتهم كأن لم يبرحوا تلك البيئات ولا يوماً واحداً . وأولئك الخاصة من أعيان الريف يجعلون لكل مجال ما يناسبه من القول ، فهم بين المثقفين من القاهرين مثلهم ، وهم بين أهليهم فى البيئة الريفية مثلهم أيضاً .

تلك هى الحال التى كانت شائعة بين الخاصة من رؤساء القبائل ، يرونه عيباً أن يخطبوا فى سوق كسوق عكاظ بتلك اللهجة الخاصة بهم ، كما يرونه عيباً أن يتحدثوا إلى قبائلهم بغير تلك اللهجات . هذه حال كانت مألوفة بين القبائل ، متواضعاً عليها ، ولهذا لم ترد لنا روايات جاهلية عن السخرية بصفات كلامية لقبيلة من القبائل أو القدح فيها .

فلما جاء الإسلام ، وأراد أن يتألف قلوب العامة والخاصة معاً ، سمح بأن يقرأ القرآن الكريم ببعض تلك الصفات التى لم يكن فى مقدور العامة غيرها . فالقرآن الكريم وإن نزل بلهجة موحدة ، ولغة أدبية موحدة ، أبيح فى قراءته الخروج عن تلك اللغة الموحدة ، تيسيراً على عامة العرب ، وتأليفاً لقلوبهم ، وهذا هو معنى الحديث الشريف «أنزل القرآن على سبعة أحرف» ، وسنعرض فيما بعد إلى ما اشتملت عليه القراءات القرآنية من صفات اللهجة العربية القديمة .

ثم اتسعت الدولة العربية حتى شملت دولا كثيرة ، فكان لابد لضمان وحدتها ، والقضاء على عوامل الفرقة فيها ألا تعطى اللهجات العربية من العناية ما قد يزيد من عصبية القبائل ويباعد بينها ، فأهمل أمرها ، ولم يرو عنها إلا القليل فى ثنايا كتب اللغة والأدب والتاريخ . بل إن ما روى عنها جاءنا مبتوراً ناقصاً فى معظم الأحيان . ولسنا نعلم مؤلفاً من علماء العرب ، على وفرتهم واهتمامهم بكل دقائق الدراسة اللغوية ، قد عنى باللهجات العربية عناصة خاصة فأفرد لها كتاباً مستقلا . وكل ما نعلمه عن تلك اللهجات من روايات الأقدمين لايعدو أن يكون مجرد إشارات مبعثرة هنا وهناك ، تضمنتها كتب التاريخ والأدب.

ولما جاء عهد التدوين بدأ الرواة يفرقون بين قبيلة وأخرى ، فينسبون الفصاحة لهذه ، وينكرونها على تلك ، فقد رفضوا الأخذ عن تلك القبائل المتطرفة التى كانت مساكنها حدود الجزيرة العربية . فلم يأخذوا عن قضاعة لمجاورتها بلاد الرومان ، واحتمال تأثرهم بلغة الروم فى حدود سوريا وفلسطين . كما رفضوا الأخذ عن تغلب والنمر ، لقربهم من أرض الجزيرة وتأثرهم بالفارسية واليونانية . كما أنكروا الفصاحة على بكر لاتصالهم بالفرس والنبط .

وقالوا أيضاً إن اختلاط قبائل اليمن بالحبشة قد أضعف من فصاحتهم ، وإن اتصال لخم وجذام بمصر قد جعل لغتهم موضع الشك ، فلا يحتج بها فى الروايات اللغوية .

وقد آثر الرواة الأخذ عن قريش وقيس وتميم وأسد وهذيل وغيرهم ممن كانت مساكنهم فى وسط الجزيرة . على أنه لم يكد ينقضى القران الرابع الهجرى حتى ظهر من علماء العرب من لم يفرق بين قبيلة وأخرى ، بل عدهم جميعاً سواء فى جواز الأخذ عنهم ، والاحتجاج بأقوالهم ، فقد عقد ابن جنى فى كتابه الخصائص فصلا مستقلا سماه «اختلاف اللغات وكلها حجة» أشار فيه إلى بعض الصفات المشهورة عن لهجات القبائل ، وأن بعض تلك الصفات أشهر من البعض الآخر ، وأكثر شيوعاً فى اللغة ، ولكنها جميعاً مما يحتج به ، إلى أن قال مخطئاً لأجود اللغتين ، فأما إن احتاج إلى ذلك فى شعر أو سجع فإنه مقبول منه غير منعى عليه» .

تلك هى نظرة الأقدمين للهجات العربية القديمة فى العصور المختلفة . ومنها يتضح لنا مبالغة المتأخرين منهم فى الاعتزاز بكل ما ينسب إلى قبائل البدو

حتى ولو كان مخالفاً لما جاء به القرآن الكريم ، والآثار الأدبية فى الجاهلية وصدر الإسلام . ذلك لأنهم لم يفرقوا بين اللغة الأدبية التى جاء الإسلام فوجدها موحدة ، ذات خصائص متميزة ، وبين لهجات التخاطب التى اشتملت على الصفات الخاصة للقبائل . وفى هذا من الاضطراب ما فيه ، لأن شرط اللغة الاطراد والتوحد فى الخصائص . فمحاولة بناء قواعد اللغة العربية من كل ما روى عن القبائل ، يؤدى حتما إلى التناقض ، ويبعد باللغة عن الانسجام والاطراد فى الخصائص . فلو أن الرواة وقفوا فى استنباط قواعدهم عند اللغة الأدبية التى جاءتهم موحدة وممثلة فى الآداب الجاهلية والقرآن الكريم ، لجنبوا أنفسهم الكثير من المهاترات والجدل حول ما يجوز ، وما لا يجوز . ولكنهم حاولو إقحام تلك الصفات المحلية للهجات العربية ، فبدت لهذا لنا القواعد اللغوية مضطربة متعددة الوجوه .

وربما كان المسئول عن هذا الاضطراب ، ذلك الدور الذى لعبته السياسة العباسية ، فى الصراع العلمى بين مدرستى البصرة والكوفة ، فقد انتصر العباسيون للكوفيين فى غالب الأحيان ، وبلغ التنافس بين أنصار المدرستين أوجه فى عصور تدوين اللغة ، وكان كل فريق يجرح الآخر ويطعن فيما يرويه . «بل كان العلماء شغوفين بأن يقفوا على كل جديد لم يعرفوه ، وكان يقضى على العالم فى جهله بكلمة ، أو خطئه فى مسألة ، فدعا ذلك بعضهم لأن يتزيدوا ويختلفوا إذا أحرجوا[1]» .

مقياس الفصاحة لدى العلماء :

والذى استقر عليه الرأى بين جمهور العلماء من القدماء أن نصوص القرآن الكريم يحتج بها فى تقعيد قواعد اللغة ، ولا خلاف بينهم فى هذا . أما حين نظروا إلى المروى من الشعر العربى فقد أجمعوا على أنه يحتج بالشعر الجاهلى كشعر زهير وطرفة وامرئ القيس وأمثالهم ، كما يحتج بشعر المخضرمين وهم الذين عاشوا فى الجلهلية والإسلام ونظموا شعراً فى المرحلتين كحسان بن ثابت وأمثاله . وكذلك يحتج بشعر الإسلاميين حتى منتصف القرن الثانى الهجرى من أمثال جرير والفرزدق والأخطل وإن كان بعض المتشددين من علماء العربية كأبى عمرو بن العلاء كان يرفض الاستشهاد بالشعر الإسلامى . فيروى عنه أنه كان

---

(١) ضحى الإسلام الجزء الأول .

يقول : لقد حسن هذا المولد – يريد شعر جرير والفرزدق – حتى كدت آمر صبياننا بروايته !! ويقول عنه تلميذه الأصمعى : لقد لازمته عشر حجج فما سمعته يحتج ببيت إسلامى قط !! .

أما موقف العلماء من الاستشهاد فى مسائل اللغة بنصوص الأحاديث الشريفة فقد وجدناهم فريقين : فريق يمثل معظم هؤلاء العلماء وأصحاب هذا الفريق كانوا يرون منع الاستشهاد بالحديث فى مسائل اللغة . وحجتهم فى ذلك أن رواية الحديث تجوز بالمعنى مثل [زوجتكها (فى رواية) ملكتكها (فى رواية أخرى) خذها بما معك من القرآن] . وحجتهم كذلك أن كثيراً من رواة الأحاديث كانوا من المولدين أى الذين عاشوا بعد عصور الاحتجاج ، وهؤلاء يجوز عليهم اللحن .

أما القلة ممن كانوا يجوزون الاستشهاد بنصوص الأحاديث فى مسائل اللغة فحجتهم أنه إذا جاز اللحن فى رواية الحديث فكذلك يقال فى رواية الأشعار ، بل إن احتمال اللحن فى رواية الأشعار أكثر . وذلك لأن الوازع الدينى يساعد على تذكر نصوص الأحاديث ويعمل على صيانتها من أى انحراف أما قولهم إن تدوين الحديث كان قبل فساد اللغة ففيه نظر ، لأن المعروف أنه دون فى القرن الثانى الهجرى فى الأمصار ؛ أى بعد عصر الاحتجاج وقد ظهر اللحن فى أواخر عهد بنى أمية .

وقد سكت المتقدمون من علماء العربية عن الاستشهاد بالحديث ولم يرو عنهم ما يفيد أنهم منعوه ، بل نجد فى بعض كتبهم استشهاداً بالحديث وإن كان قليلا .

أما بين المتأخرين من العلماء فقد اشتد الخلاف ، وأصبح واضحاً كل الوضوح فى القرنين السابع والثامن من الهجرة ، ومن زعماء المنع للاستشهاد بالحديث ابن الضائع الأشبيلى وأبو حيان ، ومن زعماء المجوزين له ابن مالك وابن هشام .

ويرى بعض الدارسين من المحدثين أننا يجب أن نقف موقفاً معتدلا ، فنقسم الأحاديث قسمين :

قسم يستشهر بنصوصه ، وقسم لا يحتج به فى مسائل اللغة ؛ فيستشهد بالأحاديث التالية :

١ – ما يروى بقصد الاستدلال على فصاحته صلى الله عليه وسلم مثل : مات حتف أنفه ، حمى الوطيس .

٢ – ألفاظ القنوت والتحيات والأدعية وغيرها من أقوال التعبد .

٣ – أحاديث من مصادر متعددة وبلفظ واحد ..

٤ – أحاديث يرويها أولئك الذين ربوا فى بيئة عربية كأنس بن مالك والشافعى . أما الأحاديث التى لا يحتج بها فى مسائل اللغة فتلك التى دونت متأخراً أو التى غمزت فى صحتها أو الأحاديث التى شذت روايتها(١) .

أما حين نظر العلماء إلى ما يسمع من القبائل من كلام منثور فقد وجدناهم يفرقون بين القبائل يأخذون عن بعضها ويرفضون الأخذ عن البعض الآخر . فقد ذكر السيوطى فى كتابيه الاقتراح والمزهر أن أبا إبراهيم الفارابى صاحب ديوان الأدب قد حدد فى أول كتابه المسمى «بالألفاظ والحروف» أسماء القبائل التى يحتج بكلامها وأسماء القبائل التى لا يستشهد بما يسمع منهم .

وحين استعرضنا مساكن هؤلاء وهؤلاء وحالتهم الاجتماعية تبين لنا أن العلماء قد أسسوا فصاحة القبيلة على دعامتين : الأولى مقدار قرب مساكنها من مكة وما حولها ، والثانية مقدار توغلها فى البداوة . ولذلك رأيناهم يعتزون بلغة القبائل الحجازية بوجه عام وقبائل نجد ووسط الجزيرة ويرفضون الأخذ عن القبائل التى كانت مساكنها فى أطراف الجزيرة وعلى حدودها . كذلك رأيناهم يعتزون اعتزازاً كبيراً بلغة القبائل المتوغلة فى البداوة . ونلحظ هذا فى احتكامهم فى مسائل اللغة إلى الأعراب الوافدين إلى الأمصار أيا كانت ثقافتهم أو مركزهم الاجتماعى اعتقاداً منهم أن هؤلاء الأعراب قد انعزلوا عن البيئات المتحضرة التى فسدت لغتها ، وأنهم ورثوا اللغة سليمة صحيحة ، أما الأعرابى الذى يعيش فترة فى الحضر ثم يسأل فى مسألة لغوية ويجيب بما يعرف أو بما يخالف ما يتوقع منه كان السائل من العلماء يقول له : هيهات لان جلدك يا أبا فلان !! أى أصبحت متحضراً ولم تعد أهلا لأخذ مسائل اللغة عنك . وخير مثل لهذا قصة أبى عمرو بن العلاء مع أعرابى يدعى «أباخيرة» حين جاءه بجملة تشتمل على جمع مؤنث

---

(١) بحث للشيخ الخضر حسين – مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الثالث ص ١٩٧ .

سالم فى حالة النصب وطلب من أبى خيرة ضبط هذا الجمع فنطق به مفتوحاً ، فقال أبو عمرو : هيهات لان جلدك يا أبا خيرة!!

وقد أورد ابن النديم فى أخبار الرياشى البصرى أنه قال : إنما أخذنا اللغة من حرشة الضباب وأكلة اليرابيع (يريد البدو) ، وهؤلاء (يقصد الكوفيين) أخذوا اللغة من أهل السواد أكلة الكواميخ والشواريز (يريد أهل الحضر)[1] .

---

(١) الفهرست . ص ٩٢ .

الفصل الثالث

- ١ -

القراءات القرآنية واللهجات

١ - روى عن أبىّ بن كعب[1] رضى الله عنه ، قال «دخلت المسجد أصلى ، فدخل رجل فافتتح النحل ، فقرأ ، فخالفنى فى القراءة ، فلما انفتل قلت : من أقرأك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جاء رجل فقام يصلى ، فقرأ وافتتح النحل فخالفنى وخالف صاحبى ، فلما انفتل قلت : من أقرأك ؟ قال رسول الله ﷺ . قال : فدخل قلبى من الشك والتكذيب أشد مما كان فى الجاهلية ، فأخذت بأيديهما ، فانطلقت بهما إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : استقرئ هذين ، فاستقرأ أحدهما وقال : أحسنت . فدخل قلبى من الشك والتكذيب أشد مما كان فى الجاهلية . ثم استقرأ الآخر وقال . أحسنت . فدخل صدرى من الشك والتكذيب أشد مما كان فى الجاهلية ، فضرب رسول الله ﷺصدرى بيده فقال: أعيذك بالله ياأبىّ من الشك ، ثم قال : إن جبريل عليه السلام أتانى فقال : إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد ، فقلت : اللهم خفف عن أمتى ، ثم عاد وقال : إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على حرفين ، فقلت اللهم خفف عن أمتى ، ثم عاد وقال : إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف» .

٢ - وفى حديث البخارى أن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله صلعم فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ ، فكدت أساوره فى الصلاة ، فتصبرت حتى سلم ، فلببته بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ ! قال أقرأنيها رسول الله ﷺ ، فقلت كذبت فإن رسول الله صلعم قد أقرأنيها

---

(١) جاءت هذه الرواية على هذه الصورة فى كتاب النشر لابن الجزرى .
ويذكر ابن حجرالرواية نفسها مع تغيير طفيف ، أما رواية مسلم لها فتتضمن في مجموعها المعاني نفسها التى هنا مع اختلاف فى بعض الألفاظ والعبارات .

على غير ما قرأت ، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله صلعم فقلت : إنى سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، فقال رسول الله ﷺ : كذلك أنزلت ، ثم قال : اقرأ يا عمر فقرأت القراءة التى أقرأنى ، فقال رسول الله ﷺ كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف .

٣ - وفى رواية عن عمرو بن العاص أن رجلا قرأ آية من القرآن فقال له عمرو : إنما هى كذا وكذا ، بغير ما قرأ الرجل ، فقال الرجل : هكذا أقرأنيها رسول الله ﷺ ، فخرجا إلى رسول الله ﷺ حتى أتياه فذكرا ذلك له ، فقال رسول الله ﷺ : إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فأى ذلك قرأتم أصبتم فلا تماروا فى القرآن فإن المراء فيه كفر .

٤ - ويروى عن أبى جهم الأنصارى أن رجلين اختلفا فى آية من القرآن كلاهما يزعم أنه تلقاها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فمشيا جميعاً حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر أبو جهم أن رسول الله ﷺ قال : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فلا تماروا فإن مراء فيه كفر .

٥ - وجاء زيد بن أرقم إلى رسول الله صلى الله وسلم فقال : أقرأنى ابن مسعود سورة أقرأنيها زيدو أقرأنيها أبىّ بن كعب فاختلفت قراءتهم ، فبقراءة أيهم آخذ ؟ فسكت رسول الله ﷺ وعلىّ إلى جنبه ، فقال على : ليقرأ كل إنسان منكم كما علم فإنه حسن جميل .

هذه هى بعض الروايات التى بينت لنا أن النبى صلعم كان يجيز قراءات الناس ، ولا ينكرها عليهم ، متى كان موضع الخلاف فيها لهجات ألسنتهم وما تعودوه من طريقة النطق .

على أن هذه الروايات فى مجموعها يشوبها بعض الغموض والإبهام ، فليست تبين لنا بجلاء نص الآية أو الكلمة التى اختلف فى قراءتها ، ولا نوع الخلاف فى تلك القراءات ؛ أكان خلافاً صوتياً يمكن أن يعزى إلى تباين اللهجات والألسنة ، أم كان فى أمر آخر ، لا نعلم علم اليقين ؛ إذ نرى معظم هذه الروايات تشير إلى آية ما يقرؤها رجل ما ، فالآية مجهولة ونوع الخلاف مجهول ، والقارئ لا نكاد ندرى شيئاً عن بيئته ولهجته وما يمكن أن يكون قد تأثر به ، ولكنا مع كل هذا أو رغم كل هذا نرجح أن الخلاف بين القارئين لم يكن يعدو تلك النواحى الصوتية التى تفرق بين اللهجات فى النطق وطريقة الأداء .

وقد تواترت الروايات على صحة حديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف» ، ولكن علماء العربية قد اختلفوا فى تفسيره اختلافاً يكاد يبلغ حد الاضطراب . والحديث على وضوحه ، وانسجامه مع روح الإسلام ، قد أسرف فى تأويله وتخريجه إلى حد أن روى له السيوطى فى كتابه «الإتقان» أربعين وجهاً !

ولست أدرى سر هذا الاختلاف ، وتعدد الأوجه ، إلا أن نعزوه إلى اجتهاد المتقدمين ، ومحاولتهم التوفيق بينه وما تواضعوا عليه فى شأن القراءات .

ونحن لا نشك الآن فى أن للحديث وجهاً واحداً ، يتفق والمنطق الإسلامى الذى يتلخص فى أن الدين الإسلامى قد دعا الناس كافة فى مشارق الأرض ومغاربها ، إلى الإيمان به ، واتخاذه عقيدة لهم . فلم يبعث النبى ﷺ لشعب خاص من الشعوب ، وإنما أرسل إلى الناس كافة . هذا إلى أن الدين يسر لا عسر ، فقد اشتملت أحكامه وتعاليمه على كثير من الرخص حين يشق على الناس أمر من الأمور.

فنحن حين ننظر إلى هذا الحديث فى ضوء الروح الإسلامى نرى أنه ليس إلا إحدى تلك الوسائل التى أريد بها التيسير على الناس ، ومنع المشقة عنهم .

فالمسلم أياً كانت لهجته ، وأياً كانت بيئته ، وأياً كانت تلك الصفات الكلامية التى نشأ عليها وتعودها ولم يقدر إلا عليها ، يستطيع أن يقرأ القرآن بالقدر الذى تعودته عضلات صوته فى نطقه بلهجته أو لغته . ويجب ألا ننكر عليه ، أو أن نهزأ من قراءته ، فقد حاول وبذل الجهد فله أجر اجتهاده .

وجميع الروايات التى صاحبت قول هذا الحديث تؤيد ما نذهب إليه من أن النبى ﷺ لم يرد به إلا أن يمنع الناس من القدح فى قراءة غيرهم، وإنكارها عليهم.

وقد نادى بمثل هذا الرأى بعض العلماء الأقدمين . فقد روى ابن الجزرى فى الجزء الأول من كتابه النشر فى القراءات العشر ما نصه «كانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، لغاتهم مختلفة وألسنتهم شتى ، يعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى غيرها ، أو من حرف إلى آخر ، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولو بالتعليم والعلاج لا سيما الشيخ والمرأة ومن لم يقرأ كتاباً كما أشار إليه ﷺ حيث أتاه جبريل فقال له : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف ، فقال ﷺ أسأل الله معافاته ومعونته ، إن أمتى لا تطيق ذلك ، ولم يزل يردد المسألة حتى بلغ سبعة أحرف . فلو كلفوا العدول عن لغتهم ، والانتقال عن ألسنتهم ، لكان من

التكليف مالا يستطاع» .

وقال ابن قتيبة فى كتاب المشكل «فكان تيسير اللّه تعالى أن أمر نبيه ﷺ بأن يقرئ كل أمة بلغتهم ، وما جرت عليه عاداتهم ، فالهذلى يقرأ «عتىّ حين» ، والأسدى يقرأ «تِعلمون» ، والتميمى يهمز والقرشى لا يهمز ... إلخ» .

والفرق بيننا وبين أصحاب هذا الرأى هو أنهم قصروا الأمر على لهجات العرب فى حين أننا نجعله أعم وأشمل ، أى أن قصد التيسير والتسهيل يشمل جميع المسلمين على اختلاف ألسنتهم وأزمانهم ، فى الماضى والحاضر والمستقبل .

فليست تلك الحروف السبع التى أجيز قراءة القرآن بها مقصورة على اللهجات العربية ، بل تشمل جميع لهجات المسلمين فى جميع بقاع الأرض . فإذا قرأ الهندى المسلم القرآن أمامنا ، ولاحظنا بعض الخلافات الصوتية فى نطقه وجب ألا ننكر عليه قراءته ، فهى غاية جهده ، ولا يقدر على غيرها .

ويجب ألا تعدو تلك الأحرف النواحى الصوتية ، من اختلاف فى مخرج الصوت ، وتباين فى صفته ، بين جهر وهمس أو شدة ورخاوة ، أو تباين فى موضع النبر من الكلمة ، أو مقاييس أصوات اللين إلى غير ذلك من الموضوعات التى يعرض لها علم الأصوات اللغوية ؛ لأن لكل شعب من الشعوب صفات صوتية تميزه عن غيره ، وتكون جزءاً مهمّاً مما يسميه المحدثون بالعادات الكلامية(١) .

فقد أنزل القرآن للمسلمين جميعاً لا للعرب وحدهم ، وأمروا أن يتعبدوا بما يستطيعون من آياته ، بل فرض عليهم قراءة بعض آياته فى صلاتهم ونسكهم ، فإذا انحرفت الألسنة بعض الانحراف عن النطق الصحيح لألفاظه فليس ذلك إلا عن مشقة وعسر . ومتى صدرت مثل هذه القراءات عن قلب طاهر وإيمان قوى فهى حسنة متقبلة عند اللّه ، فهى نجوى بين المسلم وربه ، يقرأ بما يستطيع فيتقبل عند الله ، ويستجيب له اللّه .

وليس معنى هذا أن نتخذ مثل هذه القراءة نموذجاً يحتذى ، أو أن تعدّ بين القراءات النموذجية التى يهتدى بها المسلمون ، والتى رواها لنا الأئمة فى فن القراءات فهناك أمران يجب الفصل بينهما فصلا تاماً : أولهما القراءة الفردية التى

(١) انظر كتاب الأصوات اللغوية ، الفصل العاشر ص ١٨٢ .

لا تكاد تجاوز بضع آيات من القرآن الكريم ، والتى يقوم بها أفراد المسلمين فى جميع بقاع الأرض على قدر ما تسمح به عاداتهم فى النطق ، وثانيهما : تلك القراءات النموذجية التى سجلها علماء التجويد وجعلوا منها فناً متميز الأصول سموه بعلم القراءات .

ولعلّ السرّ فى اضطراب المفسرين لهذا الحديث أنهم خلطوا بينه وبين القراءات السبع التى رواها ووضع أسسها ابن مجاهد ؛ فظن بعض الشراح أن الأحرف السبعة هى القراءات السبع ، وما كانت كلمة السبع فى كل من الأمرين إلا مجرد المصادفة ، وقد اختلف معناها فى الحديث عن المعنى الذى أراده ابن مجاهد . ولو أن ابن مجاهد قد عالج القراءات النموذجية على أنها عشر قراءات كما فعل الذين جاءوا بعده ؛ ما حدث ذلك الربط بين الحديث وفن القراءات . فللحديث اتجاه خاص يخالف ما اتجه إليه أئمة القراءات وعلماؤها .

أما الناحية العددية فى الحديث ، فليس المراد قصر الأحرف على العدد سبعة ، بل المراد مجرد التعدد ، وهو ما ينسجم مع العقلية السامية . لأن العدد سبعة يعبر عن الكثرة والتعدد فى الأساليب السامية . وقد أشار إلى هذا ابن الجزرى فى الجزء الأول من كتابه النشر صفحة ٢٥ ، إذ يقول ما نصه : «وقيل ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص ، بل المراد السعة والتيسير وأنه لاحرج عليهم فى قراءته بما هو من لغات العرب ، من حيث أن الله تعالى أذن لهم فى ذلك . والعرب يطلقون لفظ السبع والسبعين والسبعمائة ، ولا يريدون حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص ؛ بل يريدون الكثرة والمبالغة من غير حصر ، قال تعالى : «كمثل حبة أنبتت سبع سنابل» . وقال : وإن تستغفر لهم سبعين مرة ... إلخ» .

أما ما اشتملت عليه القراءات القرآنية ، من صفات صوتية فيمكن إرجاعها إلى بعض اللهجات العربية . وتنتمى هذه الصفات الصوتية إلى أشهر القبائل القرآنية ؛ لأنها الصفات التى شاعت فى معظم قبائل العرب ، والتى تأصلت فى لهجاتهم ، فاتخذ القراء منها نماذجهم فى فن القراءات .

ولم تشتمل القراءات القرآنية ، على كل الصفات الصوتية التى رويت لنا عن اللهجات العربية ، لأن بعض تلك الصفات لم تكن من الشيوع بين القبائل ما استحقت معه ، فى رأى القراء ، أن يقرأ بها ، أو بعبارة أخرى ما استحقت معه أن تذكر بين القراءات القرآنية المشهورة .

وإذا كان علماء القراءات أنفسهم يعترفون بأى ما روى لنا منها ليس كل القراءات التى قرئ بها فى العصور الإسلامية الأولى ، وإنما هى طرف منها فقط فليس من التجنى أن نحكم بأن بعض تلك القراءات التى تنوسيت وأهمل أمرها كانت تشتمل على صفات صوتية للهجات غير التى رويت لنا فى كتب القراءات .

فانظر مثلا إلى ما يقرره ابن الجزرى فى كتابه النشر الجزء الأول صفحة ٣٣ ،فإن القراءات المشهورة اليوم عن السبعة والعشرة والثلاثة عشر بالنسبة إلى ما كان مشهوراً فى الأعصار الأول ، قل من كثر ، ونزر من بحر ، فإن من له اطلاع على ذلك يعرف علمه العلم اليقين، . فما روته القراءات القرآنية من صفات اللهجات العربية القديمة ليس إلا المشهور منها ، الكثير الشيوع الذى تأصل فى النطق .

وتلك الصفات الصوتية التى اشتملت عليها القراءات كما نعرفها الآن ، والتى يمكن أن تعزى إلى اختلاف اللهجات العربية هى :

- ١ -

الفتح والإمالة

أجمع علماء العربية على نسبة الفتح لأهل الحجاز ، وعلى أن قبائل نجد قد عرف عنهم الإمالة فى كلامهم . ويظهر أن القبائل العربية قبل الإسلام وبعده قد انقسمت إلى شعبتين : الشعبة الأول تؤثر الفتح ، أو بعبارة أخرى لا تستقيم ألسنتها بغيره ، والشعبة الأخرى قد شاعت فيها الإمالة .

ويمكن بصفة عامة أن ننسب الفتح إلى جميع القبائل التى كانت مساكنها غربى الجزيرة بما فى ذلك قبائل الحجاز أمثال قريش[١] والأنصار وثقيف وهوازن وسعد بن بكر وكنانة ، وأن ننسب الإمالة إلى جميع القبائل الذين عاشوا فى وسط الجزيرة وشرقيها ، وأشهرها : تميم وأسد وطئ وبكر بن وائل وعبد القيس وتغلب.

والقبائل التى كثر انتشارها فى أمصار العراق بعد الفتح الإسلامى ، تكاد تنحصر فى الشعبة الثانية . وقد اتخذ علماء الكوفة والبصرة مثلهم من القبائل التى انتشرت فى تلك الأصقاع ، أو تعودت النزوح إليها . وقد حدثنا تاريخ الهجرات القبلية ، رغم غموضه ، بأن أشهر القبائل التى أثرت فى بيئة الكوفة والبصرة ، هى قبائل وسط الجزيرة وشرقها . فعن معظمهم أخذ علماء الكوفة والبصرة ، وبهم اقتدوا .

ويشير جورج زيدان فى كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» إلى أن البيئة العراقية قد انتظمتها فى أوائل عهد الإسلام قبائل من وسط الجزيرة وشرقيها فيقول: «فجاشت عوامل الحد فى نفوس القبائل التى كان لها شأن فى الجاهلية وضاع فضلها فى الإسلام ، وخصوصاً أهل البصرة والكوفة لأن أكثر العرب الذين نزلوا هذه الأمصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبى ولا هذبتهم سيرته ولا ارتاضوا بخلقه مع ما كان فيهم من جفاء الجاهلية وعصبيتها ، فلما استفحلت الدولة إذا هم فى قبضة المهاجرين والأنصار من قريش وكنانة وثقيف وهذيل

---

(١) سمع الرسول يقرأ «يا يحيى» بالإمالة فقيل له يا رسول الله تميل وليس هى لغة قريش فقال هى لغة الأخوال بنى سعد . [الإتقان جـ ١ ص ٣ ص ٩٣]

وأهل الحجاز ، فاستنكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لأنفسهم من التقدم بأنسابهم مثل قبائل بكر ابن وائل وعبد القيس من ربيعة وكندة والأزد من اليمن وتميم وقيس من مضر[1].

فلا غرابة إذاً أن نرى الإمالة شائعة فى القراءات القرآنية ، التى انتظمت البيئة العراقية فى القرن الثانى الهجرى .

وأشهر من روى عنهم الإمالة من القراء العشرة هم :

حمزة الذى توفى سنة ١٥٦ هـ . وكان إمام القراء فى الكوفة .

الكسائى الذى توفى سنة ١٨٩هـ . وورث إمامة القراءات بالكوفة بعد حمزة .

خلف الذى توفى سنة ٢٢٩ هـ بالكوفة أيضاً .

فأئمة القراءة الذين اشتهر عنهم الإمالة كوفيون ، أى تأثروا بتلك القبائل التى أقامت بالعراق ، أو تعودت النزوح إليه ، وهى قبائل قريبة مساكنها من العراق ، وعرفت لهجاتها بالإمالة .

ويظهر أن حمزة هو الذى رسم طريق القراءة الكوفية بين القراء العشرة ؛ مستمداً نماذجه من البيئة التى عاش فيها ، ثم تبعه الكسائى ، ولكنه أسرف فى اعتزازه بالإمالة ولا سيما إمالة الفتحة قبل تاء التأنيث ، فله فيها مذهب خاص عرف به واشتهر فى فن القراءات . ولا غرابة فى ذلك فقد كان للكسائى شخصية متميزة فى القراءات ، وكان كما وصفه أبو عبيد فى كتاب القراءات بقوله : «كان الكسائى يتخير القراءات ، فأخذ من قراءة حمزة ببعض وترك بعضاً» .

أما خلف فقد ترسم خطا أستاذه حمزة ، وكان يمثل القراءة الكوفية تمثيلا صادقاً . قال ابن الجزرى : «تتبعت اختياره فلم أجده يخرج عن قراءة الكوفيين فى حرف واحد ، بل ولا عن حمزة والكسائى وأبى بكر إلا فى حرف واحد وهو قوله تعالى «وحرام على قرية أهلكناها» فى سورة الأنبياء ، قرأها كحفص .

وقد كان من المتوقع أن يشمل هذا التأثر بيئة البصرة أيضاً ، فنلحظ الإمالة بين قرأتها أمثال :

---

(١) جزء أول صفحة ٢٠٨ .

أبى عمرو بن العلاء الذى توفى سنة ١٥٤ هـ ، ويعقوب الذى ورثه فى إمامة القراءات بالبصرة والمتوفى سنة ٢٠٥ هـ . ولكن الذى قد يدعو إلى الدهشة أن قراءة أبى عمرو وتلميذه يعقوب لم تنتصر للإمالة إلا فى مواضع خاصة نصت عليها كتب القراءات .

والأمر الذى يجب أن نتنبه إليه أن معظم هؤلاء القراء كانوا من الموالى ، فكان من الطبيعى أن يعظم تأثرهم بطرق النطق والأداء التى عاشت فى القبائل حولهم . ولا غرابة إذاً أن يظهر إعجابهم بالقبائل التى عاشوا بين ظهرانيها ، وأن يحتذوا حذوها فى معظم الصفات التى عرفت بها لهجاتها . ولكن أبا عمرو بن العلاء لم يكن من الموالى بل كان من تميم ونسبه فيهم ونشأ على لهجتهم التى أصبحت له عادة وسليقة ، والتى لم تكن عنده إلا أمراً عادياً لا يثير منه إعجاباً ، فالتمس لهذا نماذجه من بيئة أخرى وهى البيئة الحجازية ، التى خلت من الإمالة أو كادت ، فقد قرأ على جماعة جلة من أهل الحجاز ، ووصف أحمد بن حنبل قراءته قائلا : «قراءة أبى عمرو وأحب القراءات إلىّ ، هى قراءة قريش ، وقراءة الفصحاء» . والمعروف أن أبا عمرو قد قرأ على ابن كثير القارئ المكى ، ثم أسس بالبصرة قراءة اشتهرت بها ، وخالف فيها ما شاع بين أهل البصرة من النطق بالإمالة فى لهجاتهم .

وإذا كان معظم القراء قد تأثروا بلهجة بيئتهم فإن قلة منهم قد تأثروا بأساتذتهم فى بيئات أخرى ، أو جمعوا بين هذه وتلك فيما انتهجوه من قراءات فأبو عمرو بن العلاء هو المؤسس الأول لقراءة البصرة ، وقد تبعه فيها تلميذه يعقوب وسلك مسلكه فى كل الحروف .

هذا هو ما يبرز الخلاف بين البصرة والكوفة فى ظاهرة الإمالة التى انتظمت كل البيئة العراقية ولهجاتها .

وأخيراً وليس آخراً لعل الصراع العلمى الذى كان بين الكوفة والبصرة هو الذى دعا إى هذه المغايرة ، وإلى أن تتخذ البصرة طريق الفتح فى معظم المواضع ، حتى لا تشبه الكوفة فى إمالتها .

كذلك قد يبدو من الغريب أن نرى بين علماء الكوفة أمثال عاصم الذى توفى سنة ١٢٧ هـ . والذى أخذ عنه حفص تلك القراءة المشهورة الآن بالبلاد العربية ، والتى تكاد تخلو من الإمالة !

ولكنا حين نذكر أن عاصما كان أسبق علماء الكوفة فى فن القراءات ، وأنه عاش قبل أن يشتد التنافس بين مدرستى البصرة والكوفة ، نستطيع بسهولة أن نتصور أن عاصما فى قراءته قد تأثر ببيئة غير بيئته ، كالبيئة الحجازية مثلا . وبعض القراء فى قليل من الأحيان يؤثرون القراءة التى تغاير اللهجة الشائعة بين ظهرانيهم ، فلعل عاصما كان أحد هؤلاء .

نخلص من كل هذا إلى أن الإمالة كانت الصفة الشائعة بين قبائل وسط الجزيرة وشرقيها ، وأنها شاعت بعد الإسلام فى اللهجات العربية ببلاد العراق . ومما قد يؤيد ما نذهب إليه أن الكسائى سئل مرة «إنك تميل ما قبل هاء التأنيث ، فقال هذا طباع العربية» . وقد عقب على قول الكسائى أبو عمرو الدانى فى كتابه التيسير فقال «إن الكسائى أراد بذلك أن الإمالة لغة أهل الكوفة ، وهى باقية فيهم إلى الآن ، وهم بقية أبناء العرب» ، أى أن الإمالة ظلت شائعة بين أهل الكوفة حتى عهد أبى عمرو الدانى فى أوائل القرن الخامس الهجرى .

أما قراءة البيئة الحجازية أمثال ابن كثير المكىّ ونافع وأبى جعفر المدنيين، فلا تعرف قراءاتهم الإمالة ، أى إنهم تبعوا ما اشتهر عن لهجات بيئتهم الحجازية من الميل إلى الفتح .

بقى أن نشرح معنى الفتح والإمالة كما يراهما المحدثون من علماء الأصوات اللغوية :

الفتح والإمالة صوتان من أصوات اللين ، سواء كانا قصيرين أو طويلين . وأصوات اللين القصيرة فى الاصطلاح الحديث هى ما كان يسميه القدماء بالحركات ، أما أصوات اللين الطويلة فهى ما كانوا يسمونه بألف المد وياء المد وواو المد . ولا فرق بين القصيرة والطويلة إلا فى الكمية . فمخرج الفتحة ووضع اللسان معها هو نفسه مخرج ألف المد ووضع اللسان معها ، والفرق بينهما فرق فى الكمية . وكذلك الكسرة وياء المد متماثلتان فى المخرج ووضع اللسان ، كما أن الضمة وواو المد متماثلتان فيهما أيضاً .

فلا فرق إذاً بين أن تمال الفتحة أو تمال ألف المد ، لأن العملية العضوية فى الحالتين واحدة .

وقد وضع المحدثون مقاييس[1] مشهورة لأصوات اللين يعرض لها

---

(١) انظر كتاب الأصوات اللغوية ص ٣٠ .

بالتفصيل علم الأصوات اللغوية . وما سماه القدماء بالفتح هو أحد تلك المقاييس ، وما سموه بالإمالة مقياس آخر منها .

واللسان مع الفتح يكاد يكون مستوياً فى قاع الفم ، فإذا أخذ فى الصعود نحو الحنك الأعلى بدأ حينئذ ذلك الوضع الذى يسمى بالإمالة . وأقصى ما يصل إليه أول اللسان فى صعوده نحو الحنك الأعلى ، هو ذلك المقياس الذى يسمى عادة بالكسرة ، طويلة كانت أو قصيرة . فهناك إذاً مراحل بين الفتح والكسر ، لا مرحلة واحدة . من أجل ذلك كان القدماء يقسمون الإمالة إلى نوعين : إمالة خفيفة وإمالة شديدة .

وهكذا نرى أن الفرق بين صاحب الفتح وصاحب الإمالة ليس إلا اختلافاً فى وضع اللسان مع كل منهما ، حين النطق بهذين الصوتين واللسان فى حالة الإمالة أقرب إلى الحنك الأعلى منه فى حالة الفتح .

ولقد اضطربت أقوال الأقدمين فى شرح أسباب الإمالة ، حين حاولوا أن يضعوا لها قواعد وقوانين ، كما اختلفوا فى الحكم على أيهما الأصل : الفتح أم الإمالة ؟

ونحن حين نستعرض أمثلة الإمالة وأحوالها ، نراها تنقسم إلى نوعين مختلفين :

١ - صوت لين خالص تكون من صوت لين مركب يسميه المحدثون Diphthong .

٢ - تغير فى مقياس صوت من أصوات اللين .

ونلحظ الحالة الأولى حين يكون صوت اللين طويلا ، ومنقلباً عن أصل من أصول الكلمة ، يائياً كان أو واوياً ، ففى مثل الفعلين «باع ، قال» يظهر أنه قد أتى عليهما حين من الدهر كان ينطق بهما .

بَيْعَ ، قَوْلَ

ثم تطور الصوت الأول "ai" إلى : e والصوت الثانى "au" إلى : o أى إن فتحة فاء الكلمة فى الفعل الأول قد أميلت إلى الكسرة ، وأنها فى الفعل الثانى قد أميلت إلى الضمة .

فهناك إمالة فى الحالين ، فكما يمال الفتح إلى الكسر قد يمال أيضاً إلى الضم . ولكن القراء فى إمالتهم لم يعنوا إلا بالإمالة الأولى . وهى الفتح إلى الكسر،

لأنها أكثر شيوعاً وانتشاراً وظهوراً بين القبائل العربية المشهورة . أما إمالة الفتح إلى الضم فقد ظلت مهملة يشار إليها أحيانا فى بعض المطولات من كتب اللغة على أنها لهجة لبعض القبائل ، دون نسبتها إلى قبيلة خاصة ، فقد أشار إليها ابن جنى فى كتابه «سر صناعة الإعراب» وعلل بها كتابة الصلاة والزكاة وأمثالهما فى الخط العثمانى بالواو .

ونحن فى مثل هذه العجالة لا نستطيع أن نرجح نسبة هذه اللهجة إلى قبيلة من القبائل العربية ، غير أننا نلحظ وجودها فى بعض اللهجات الحديثة .

وهناك نوعان آخران من الإمالة رواهما ابن جنى فى كتابه الآنف الذكر، وهما :

١ - الكسرة المشوبة بالضمة ، وهى تلك التى فى صيغ البناء للمجهول ، والتى عبر عنها القدماء من النحاة بالإشمام فى مثل قيل ، بيع . وقد قرأ بهذه اللهجة الكسائى وهشام فى [قيل . غيض . جئ . جيل . سيق . سيئ] .

٢ - الضمة المشوبة بالكسرة ، كأن يمال بمثل «بوع» نحو الكسرة . وهذه اللهجة أقل اللهجات شهرة وشيوعاً ، وإن رويت بين لهجات العرب .

فالإمالة كما ترى أنواع أربعة ، أشهرها إمالة الفتح إلى الكسر . وهذا النوع هو المراد بالإمالة حين تطلق فى كتب القراءات واللغة . وعلى هذا إذا قيل لنا إن من أسباب إمالة ألف المدّ كون أصلها ياء ، كما فى «باع» وجب أن نفهم من هذا أن الأصل اليائى قد تطور أولا إلى الإمالة ، ثم تطورت الإمالة إلى الفتح ، أى أن المراحل التى مرّ فيها مثل هذا الفعل «باع» هى :

(بَيْعَ) ثم (إمالة) ثم (فتح)

فالصوت المركب ai قد تطور أولا إلى : e ثم إلى : a

تلك هى المراحل التى تبررها القوانين الصوتية ، والتى لها نظائر فى اللغات الأخرى . ولذلك نستطيع أن نرجح أن بعض الكلمات العربية التى اشتملت على ياء أصلية قد تطورت أولا إلى الإمالة ثم إلى الفتح . فالأصول إذاً فى مثل هذه الكلمات هو الإمالة ، وقد تفرع الفتح عنها .

ونستنبط من هذا أن قبائل الحجاز التى عرف عنها الفتح قد قطعت مرحلة أخرى فى تطور لهجاتها ، إذ انتقلت من الإمالة إلى الفتح ، كما نستنبط أن لهجات بعض القبائل فى وسط الجزيرة وشرقيها قد احتفظت بمرحلة الإمالة التى هى أقدم

حين تكون الياء أصلية فى الكلمات . وربما كان السر فى احتفاظ البدو بهذه الظاهرة أنهم عرفوا بها فتعصبوا لها .

وانتقال الإمالة إلى الفتح ليس له ما يبرره سوى الاقتصاد فى الجهد العضلى ، والميل إلى السهولة التى يلجأ إليها الإنسان فى معظم ظواهره الاجتماعية .

ألا ترى أن كلمة «شىء» قد تطورت فى معظم اللهجات الحديثة إلى «شَىء» أى أن الصوت المركب ai قد أصبح : e بالإمالة ، ثم تطورت بعد ذلك تطوراً جديداً فى لهجات المصرية الحديثة من يقول : «شاء عجيب» وهو يريد «شىء عجيب» .

وهذا هو الذى تمّ فى لهجة الفيوم حين نسمع منهم كلمات مثل : [ليه ، إيه] منطوقة [لآه ، آه] فيقولون فى موضع الدهشة أو الاستفهام :

لاه ، وعشان آه ؟

أما حين تعرض الإمالة لغير أصل من أصول الكلمة كإمالة الفتحة ، أو إمالة ألف المدّ غير المنقلبة عن أصل ، فليس هذا إلا نوعاً من الانسجام بين أصوات اللين[١] . لذلك جعل القدماء من أسباب هذه الإمالة وجود كسرة ، سواء كانت سابقة أو لاحقة . ولاشك أن الانتقال من الكسر إلى الفتح أو بالعكس يتطلب مجهوداً عضلياً أكبر مما لو انسجمت أصوات اللين بعضها مع بعض ، بأن تصبح متشابهة ، لأن حركة الإمالة أقرب إلى الكسرة منها إلى الفتحة .

ومتى سلمنا بنظرية السهولة والاقتصاد فى الجهد العضلى ؛ استطعنا أن نتصور أن الكلمة التى تشتمل على أصوات لين منسجمة ، أحدث من نظيرتها التى خلت أصوات لينها من الانسجام ، ونستطيع لهذا أن نقول إن كلمة «كتاب» كما ينطق بها بغير إمالة أقدم فى نسجها منها مع الإمالة .

وقد خلط القدماء بين عنصرين رئيسيين من الكلمات : تلك التى اشتملت على أصل يائى . وتلك التى رويت بالإمالة دون أن يكون مبعث الإمالة فيها تضمنها أصلا يائياً .

(١) Vowel - Harmony

فإمالة الفتح إلى الكسر يجب فى الحقيقة أن تعزى بصفة عامة إلى أحد عاملين :

١ - الأصل اليائى .

٢ - الانسجام بين أصوات اللين .

وليس يقتصر أثر العامل الثانى على الإمالة من الفتح إلى الكسر ، بل يمكن أن يعزى إليه أيضاً الانتقال من الكسر إلى الفتح ، كما فى تلك الأفعال الثلاثية التى رويت لنا مرة مثل «فرح» وأخرى مثل «فتح» دون تغير فى معناها مثل «خطف ، حبط ، قنط» ففى هذه الحالة يمكن أن يقال إنها أقدم وأسبق حين تكون على صورة «فرح» ، وقد تطورت إلى صورة «القبح» ، ليتحقق الانسجام بين الحركات .

ويلعب الانسجام بين أصوات اللين دوراً مهماً فى معظم لغات البشر ، وهو من التطورات الحديثة ، التى تميل إليها اللغات بصفة عامة . وقد اعترف به القدماء من علماء العربية ، وسموه فى باب الإمالة بالتناسب ، ثم سموه فى بعض أبواب الإعراب «بحركات الإتباع» وتأولوا عليه قولهم «جحر ضب خرب» . بل إن حركة الإتباع قد اعترف بها بعض القراء ، فرووها فى بعض القراءات القرآنية ، فقد قرئ [بسم الله الرحمن الرحيم الحمدِ لِله رب العالمين] .

أما قواعد النحاة فى باب الإمالة فيمكن إرجاعها جميعاً إلى العاملين الرئيسيين اللذين أشرنا إليهما ، غير أنه من الصعب مع هذا أن نبرر من الناحية الصوتية ، ما زعمه بعض النحاة من جواز الإمالة فيما أصله واو مثل [خاف] ، لأن الإمالة فى مثل هذه الحالة كان حقها أن تكون من الفتح إلى الضم ، لا من الفتح إلى الكسر . على أن النحاة قد اختلفوا فى الحكم على إمالة أمثال [خاف] فأنكرها بعضهم أمثال أبى العباس المبرد ، فقد روى عنه أن قال إن إمالة ما كان من ذوات الواو على ثلاثة أحرف نحو [دعا ، غزا] قبيحة إلا إذا كان هناك ما يبررها ككسرة تسبق ألف المد كما فى إمالة «ربا» التى قرأ بها الكسائى وحمزة .

هذا ولا نستطيع أن نتصور كيف جعل النحاة الإمالة ، من الأمور الجائزة !! فقد قرروا أن كل ممال يجوز فتحه ! ولو صح هذا القول لأمكن أن نتصور أن من القبائل من كانوا يميلون ويفتحون كما تشاء لهم أهواؤهم ، وذلك أمر لا يقبله اللغوى الحديث ؛ إذ ليس الأمر أمر مواضعة مقصودة متعمدة ، وإنما هو عادة لكل قبيلة . فتلك التى تميل لا تستطيع غير الإمالة ، وتلك التى تفتح لا تطاوعها

ألسنتها بغير الفتح . فالمسألة لا تعدو أن تكون عادة ككل العادات اللغوية ، يتوارثها الخلف عن السلف دون شعور بها . فكان واجب النحاة أن يقولوا إن الإمالة لا مفر منها عند تلك القبيلة التى تميل فى كلامها إليها ، والفتح واجب عند من لا يستطيعون غيره كمعظم الحجازيين . أما إذا كان النحاة قد أرادوا بجواز الإمالة أنه يجوز لنا الآن حين نقرأ القرآن الإمالة أو الفتح ، فهذا أمر آخر لا نعرض له هنا بشىء .

ولا تزال الإمالة شائعة فى كثير من اللهجات العربية الحديثة ، ولم تتم معرفتنا بقواعد الإمالة وأصولها فى العصور الإسلامية الأولى إلا بالاستعانة بقواعدها وأصولها فى اللهجات الحديثة حين تدرس دراسة علمية كافية ، وهو ما نرجو أن تتكفل به بحوث المستقبل .

- ٢ -

الإدغـــــام

نؤثر هنا استعمال هذا الاصطلاح القديم ونعنى به ما يشير إليه المحدثون من تأثر الأصوات بعضها ببعض حين تتجاور . ويسمى المحدثون هذه الظاهرة اللغوية Assimilation . ولقد أطلقت عليها فى كتاب الأصوات اللغوية كلمة «المماثلة» لأن شرط تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض أن تكون متشابهة فى المخرج أو الصفة . فإذا اجتمع صوتان متماثلان كل المماثلة أو بعضها ترتب على هذا أن يؤثر أحد الصوتين فى الآخر تأثيراً تختلف نسبته تبعاً للظروف اللغوية الخاصة بلغة من اللغات .

ويقسم المحدثون تأثر الأصوات إلى نوعين :

١ – رجعى Regressive وفيه يتأثر الصوت الأول بالثانى .

٢ – تقدمى Progressive وفيه يتأثر الصوت الثانى بالأول .

وتختلف اللهجات فى الخضوع لنوع من هذين النوعين . فمن اللهجات ما يؤثر النوع الأول كلهجات اللغة الفرنسية ، ومنها ما يلتزم النوع الثانى كلهجات اللغة الإنجليزية .

وقد اشتملت اللغة العربية على هذين النوعين من التأثر ، وإن كان النوع الأول أكثر شيوعاً فيها .

ولم يعرض القراء فى كتبهم إلا للنوع الأول ، أى التأثر الرجعى ، وهو الذى يتأثر فيه الصوت الأول بالثانى تأثراً كاملاً يترتب عليه أن يفنى الصوت الأول فى الثانى بحيث ينطق بالصوتين صوتاً واحداً كالثانى .

وقد سموا هذا التأثر فى كتبهم بالإدغام ، ثم قسموا الإدغام إلى كبير ، وهو الذى يفصل فيه بين الصوتين الساكنين صوت لين قصير (أى حركة) . وقد نسب هذا الإدغام إلى أبى عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة . وهذا النوع من الإدغام يتطلب عمليات صوتية معقدة قبل أن يتحقق ، فضلا عن أنه لم ينسب إلى قبيلة خاصة عرفت به وآثرته فى نطقها .

أما النوع الثانى للإدغام عند القراء فهو الإدغام الصغير ، وفيه يتجاور الصوتان الساكنان ، دون فاصل من أصوات اللين ، وهو الذى شاع فى معظم اللغات ، لأن شرط تأثر صوت بآخر هو التقاؤهما التقاء مباشراً .

ويظهر أن أبا عمرو بن العلاء كان لا يلتزم فى قراءته النطق بالحركات الإعرابية أو الحركات الواقعة على أواخر تلك الكلمات ، مما يترتب عليه التقاء الحرف الأخير من الكلمة السابقة بالحرف الأول من الكلمة اللاحقة . فإذا تشابه الحرفان أو تقاربا فى الصفة أدى هذا إلى تأثر أحدهما بالآخر . ومما قد يستأنس به للدلالة على طريقة أبى عمرو ما روى عنه من قراءات كثيرة سقطت منها الحركات الأخيرة للكلمات مثل :

إن الله يأمرْكم أن تذبحوا بقرة

فإن صح هذا التفسير لقراءة أبى عمرو لم يكن هناك فرق بين إدغامه وما يسمى بالإدغام الصغير .

والإدغام أو تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض ، ظاهرة صوتية تحدث كثيراً فى البيئات البدائية حيث السرعة فى نطق الكلمات ، ومزجها بعضها ببعض، فلا يعطى الحرف حقه الصوتى من تحقيق أو تجويد فى النطق به .

ويظهر أثر هذا بجلاء ووضوح بين البدو وفى القبائل الرحل التى لا تكاد تستقر على حال . فإذا تذكرنا أن البيئة العراقية قد نزحت إليها قبائل أقرب إلى البداوة ممن عاشوا فى البيئة الحجازية ، أمكننا أن نتصور أن الإدغام كان أكثر شيوعاً فى لهجات القبائل النازحة إلى العراق . أما البيئة الحجازية ، فقد كانت بيئة استقرار وبيئة حضارة نسبياً ، فيها يميل الناس إلى التأنى فى النطق ، وإلى تحقيق الأصوات وعدم الخلط بينها .

نحن إذاً نتوقع أن تروى لنا لهجات العراق مشوبة بأمثلة كثيرة لظاهرة الإدغام وتأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض . أما فى البيئة الحجازية فنتوقع نسبة قليلة جداً من تلك الأمثلة الإدغامية .

نسائل أنفسنا بعد هذا : هل ظهر أثر هذه الحقيقة الصوتية فى قراءات العراق وقراءات الحجاز ؟

إذا استعرضنا آراء القراء فى إدغام الأمثلة القرآنية أو إظهارها وجدناهم طائفتين :

١ - منهم من يؤثر الإدغام وهم : أبو عمرو ، والكسائى ، وحمزة ، وابن عامر ، وخلف ، وإن اختلفت النسبة بينهم .

٢ - أما الذين يؤثرون الإظهار فهم : ابن كثير ، ونافع ، وأبو جعفر ، وعاصم ، ويعقوب ، بنسب مختلفة أيضاً .

فعمن أخذ هؤلاء وهؤلاء ؟ وبأى القبائل تأثروا فى ميلهم للإدغام أو الإظهار ؟ الحق أن الإجابة عن مثل هذا التساؤل ليست بالأمر الهين اليسير ، لأن أصحاب الإدغام ليسوا جميعاً من بيئة واحدة ، ومنهم الكوفى كالكسائى وحمزة وخلف ، ومنهم البصرى كأبى عمرو ، ومنهم الشامى كابن عامر . كذلك أصحاب الإظهار ليسوا من بيئة واحدة ، ومنهم الكوفى كعاصم ، والبصرى كيعقوب ! غير أنه من الممكن أن نعزو الإدغام بصفة عامة إلى البيئة العراقية ، والإظهار بصفة عامة إلى البيئة الحجازية .

وقد ظهر لنا حين التحدث عن الإمالة أن «عاصما» قد خالف بيئته فى الميل إلى الفتح فلا غرابة أن يخالف بيئته هنا أيضاً .

أما ميل ابن عامر لأصحاب الإدغام ، وميل يعقوب لأصحاب الإظهار فمن الصعب تعليله .

نستطيع بعد هذا أن نستنبط أن القبائل التى أثرت فى البيئة العراقية كانت تميل لهجاتها بوجه عام إلى الإدغام ، وأن قبائل الحجاز كانت تميل إلى الإظهار.

وقد عرفنا من قبل أن البيئة العراقية قد تأثرت بقبائل وسط الجزيرة وشرقيها . وعلى هذا فيمكن الحكم على أن القبائل التى عرفت بالإدغام هى :

تميم - طيء - أسد - بكر بن وائل - تغلب - عبد القيس .

وأن القبائل التى آثرت الإظهار هى :

قريش - ثقيف - كنانة - الأنصار - هذيل .

فالقبائل العربية إذاً قد انقسمت إلى طائفتين : الأولى تؤثر الإدغام والثانية تؤثر الإظهار .

وقد يلقى ضوءاً على هذا التقسيم ما أجمعت عليه الروايات اللغوية من أن «تميما» التى اتخذت دائماً مثلا لقبائل وسط الجزيرة قد روى عنها أنها كانت تقول «محّم» بدلا من «معهم» فقد قلبت العين المجهورة إلى نظيرها المهموس وهو الحاء

لمجاورتها لصوت مهموس وهو الهاء ، ثم أدغمت الهاء فى الحاء إدغاماً تقدمياً على غير العادة فى الإدغام العربى . كذلك روى عن تميم أنها كانت تقول «فزْد» بدلا من «فزت» أى أن التاء المهموسة قد قلبت إلى نظيرها المجهور وهو الدال ، وذلك لمجاورتها لصوت مجهور وهو الزاى . كذلك قيل لنا إن لهجة نجد فى كلمة «وتد» هى «ودّ» .

ويظهر ميل تميم إلى الإدغام حين نتذكر ما يشير إليه النحاة من أن قبيلة تميم قد عرفت بإدغام المثلين فى مثل «لم يحلّ» فى حين أن الحجازيين كانوا يقولون «لم يحلل» .

وقد جاء القرآن الكريم غالباً بلهجة الحجازيين نحو [إن تمسسكم حسنة] ونحو [من يحلل عليه غضبى] ونحو [واغضض من صوتك] ونحو [ولا تمنن تستكثر] ، وقد ورد التنزيل على لهجة تميم [ومن يرتدّ] ونحو [ومن يشاق الله][1] .

ويقول جرير وهو من تميم :

فغضّ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

ويظهر أن الظاهرة كانت من الظواهر التى اعترفت بها بشقيها اللغة النموذجية الأدبية ، ولم تعدْ بعد أن جاءت فى القرآن الكريم من ظواهر اللهجات . فهى فى أصلها من الظواهر التى كانت تفرق بين قبائل وسط الجزيرة وشرقيها وبين البيئة الحجازية ، لكنها صارت فيما بعد صفة من صفات اللغة الأدبية المشتركة بين جميع القبائل .

كذلك مما قد يلقى ضوءاً على هذا التقسيم ما روته كتب القراءات من أن حمزة والكسائى وخلفاً ، كانوا يقرءون [أصدق ، تصديق ، يصدفون ، فاصدع قصد ، يصدر] وما أشبه ذلك مما سكنت فيه الصاد وأتى بعدها دال ، كانوا يقرأون هذه الأمثلة بإشمام الصاد صوت الزاى : ومعنى إشمام الصاد صوت الزاى أن ينطق بها ظاء كتلك التى نسمعها من أفواه العوام فى مصر أى أن تكون ظاء غير لثوية .

والسر فى مثل هذا النطق هو مجاورة الصاد التى هى صوت مهموس للدال التى هى صوت مجهور ، فتأثر الصوت الأول بالثانى ، وأصبح مجهوراً مثله ،

(١) (ومن يرتد) فى سورة المائدة ، (ومن يشاق) فى سورة الحشر . على أن المدنيين نافعاً وأبا جعفر قد روى عنهما قراءة المثل الأول ومن «يرتد» .

وحين نجهر بالصاد تصبح تلك الظاء المعروفة بين العوام فى مصر ، بل هى شائعة بين معظم الخاصة الآن فى بلادنا إذ ينطقون بالظاء غير لثوية .

فنحن نلحظ فى مثل هذه الأمثلة ميل بعض القراء إلى تأثر الصوت الأول بالثانى ، وإن لم يبلغ التأثر حد فناء الصوت الأول فى الصوت الثانى .

وإذا علمنا أن حمزة والكسائى وخلفاً ؛ ممن ينتمون إلى البيئة العراقية ، استطعنا أن ندرك بسهولة أن تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض ، قد شاع فى هذه البيئة أكثر من غيرها ، لأن القراء من البيئة الحجازية يقرأون هذه الأمثلة بالصاد الخالصة . بل لقد جاء فى بعض الروايات أن ظاهرة إشمام الصاد الزاى كانت شائعة فى قبيلة طئ ، وهو ما يؤيد ما نذهب إليه . فقد كانوا يقولون «الزقر» بتفخيم الزاى بدلا من «الصقر» .

نستنتج إذاً أن الحجازيين بوجه عام كانوا يلتزمون الإظهار ، ويحترزون من تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض ، وهذا لا يتأتى إلا بمراعاة الدقة فى النطق والتأنى والتؤدة فى الأداء ، بحيث يظهرون كل صوت ويعطونه حقه من جهر وهمس أو شدة ورخاوة .

وليس ينقض هذا الحكم ما عرف عن الحجازيين من عدم الهمز ، لأن للهمزة حكماً خاصاً يخالف كل أصوات اللغة ، مما سنعرض له فيما بعد .

- ٣ -

الهمـــز

تروى كـتب الأدب أن أحـد الرواة سـأل رجـلا من قـريش قـائلا : «أتهـمز الفأرة؟» ، فلم يفطن المسئول لما أراد السائل وأجاب ساخراً : «إنما يهمزها القط» .

وقد أراد اللغوى أن يعرف ما إذا كان القرشيون يلتزمون تحقيق الهمزة فى كلامهم .

وتكاد تجمع الروايات على أن التزام الهمز وتحقيقه من خصائص قبيلة تميم، فى حين أن القرشيين يتخلصون منها بحذفها أو تسهيلها أو قلبها إلى حرف مد .

على أنه قد روى أيضاً أن بعضاً من تميم يقلبون الهمزة الساكنة إلى صوت لين من جنس حركة ما قبلها فيقولون فى :

رأى . بئر . لؤم

على الترتيب :

رأس . بير . لوم

ويضيق المقام هنا عن تفصيل أحكام الهمزة كما روتها كتب القراءات ، فقد فصلت لها أبواب مستفيضة حين تكون منفردة ، وحين تجتمع همزتان . ولقد تعرضت الروايات القرآنية لكل مثل منها فى القرآن الكريم ونسبت حكم الهمزة فيه من تحقيق أو غيره إلى بعض القراء .

ولا يكاد المرء يصل إلى حكم خاص يمكن نسبته إلى بيئة معينة ، نظراً لاختلاف القراء فى أحكام الهمزة اختلافاً يطول شرحه . غير أننا نلحظ بوجه عام أن كتب القراءات تكاد تجمع على أن أبا جعفر ونافعاً من رواية ورش ، قد تخلصا من تحقيق الهمزة ، ولا غرابة فى ذلك فهما أشهر قراء المدينة ، ومن البيئة الحجازية التى اشتهر عنها عدم الهمز .

ولو أن «ابن كثير» اشترك معهما فى تلك الصفة ، لاستطعنا بسهولة أن نحكم على أن القراء قد التزموا ما عرف عن بيئتهم من الهمز أو عدمه . ولكن

كما قررنا آنفاً قد خالف بعض القراء أحياناً فى قراءاتهم صفات اللهجات التى شاعت بين ظهرانيهم . ولئن خالف «ابن كثير» فى تسهيل الهمز ومال إلى تحقيقه وهو مكىّ ، لقد خالف عاصم فى الإمالة والإدغام رغم أنه كوفى .

نستطيع إذاً أن نرجح تلك الروايات التى نسبت تحقيق الهمزة لتميم وغيرهم من قبائل وسط الجزيرة وشرقيها ، وأن ننسب التخلص من الهمزة لمعظم البيئة الحجازية .

بقى أمر لابد من علاجه هنا ، وهو كيف تأتى أن البيئة الحجازية التى عرفت بالتأنى فى الأداء ، ولم يشتهر عنها إدغام أو إمالة ، أن تعمل على التخلص من الهمزة فى نطقها ؟ إذ التخلص من الهمزة نوع من الميل إلى السهولة والبعد عن التزام التحقيق فى النطق بالأصوات ؟

الحق أن التخلص من الهمزة لم يكن شائعاً فى كل القبائل الحجازية ، بل منها من كانوا يؤثرون تحقيقها . ويدل على هذا قراءة «ابن كثير» الذى التزم تحقيق الهمزة . هذا إلى أن للهمزة حكماً خاصاً يخالف جميع الأصوات الأخرى . لأنها صوت ليس بالمجهور ولا المهموس ، وهى أكثر الأصوات الساكنة شدة ، وعملية النطق بها وهى محققة من أشق العمليات الصوتية ، لأن مخرجها فتحة المزمار التى تنطبق عند النطق بها ثم تنفتح فجأة ، فنسمع ذلك الصوت الانفجارى التى نسميه بالهمزة المحققة .

لهذا مالت كل اللهجات السامية إلى التخلص منها فى النطق . فليس غريباً أن يتخلص منها أيضاً معظم الحجازيين ، وإنما الغريب أن يحققها قراء البيئة العراقية الذين عرف عنهم الميل إلى التسهيل من إدغام وإمالة ! على أن اللهجات لا تلتزم دائماً حالة واحدة فى كل صفاتها ، بل أحياناً تخرج عن تلك الظاهرة التى اختصت بها ، لظروف لغوية خاصة ، وحينئذ يكون واجب الباحث المدقق الكشف عن تلك الظروف الخاصة ، وإذا نظرنا إلى اللهجات على أنها من المظاهر الاجتماعية ، وأنها تخضع فى قواعدها وأصولها لظروف المجتمع والبيئة ، لم يقلقنا وجود ظاهرة لغوية قد تبدو غريبة أو شاذة عما عرف عن لهجة من اللهجات .

فليست القوانين التى تخضع لها اللهجات كالقوانين الطبيعية فى الكون ، تلتزم حالة واحدة لا شذوذ فيها ، بل يكتفى اللغوى عادة حين يحكم على صفات لهجة من اللهجات بالحكم على الكثرة الغالبة من صفاتها .

على أنه من الممكن أن ننسب تحقيق الهمزة إلى اللغة الأدبية النموذجية التى أشرنا إليها آنفاً ، لغة الخاصة التى كانت تلتزم فى الخطب والشعر ، وعلى هذا فليس تحقيق الهمزة من صفات اللهجات العربية التى نريد أن نعرض لها هنا .

ويبدو أن الرأى الأخير هو الراجح . فظاهرة الهمز من تحقيق أو تسهيل كانت فى أصلها من الأمور ، التى فرقت بين لهجات وسط الجزيرة وشرقيها وبين لهجات البيئة الحجازية . فلما نشأت اللغة النموذجية الأدبية قبل الإسلام اتخذت تحقيق الهمزة صفة من صفاتها ، وشاع هذا بين الخاصة فى جميع القبائل العربية، ولما جاء الإسلام وجد تحقيق الهمز صفة من صفات الفصاحة يلتزمها الخاصة من العرب فى الأسلوب الجدى من القول ، وإن ظلت فى الوقت نفسه شائعة بين اللهجات البدوية كلهجة تميم ومن على شاكلتهم . ولهذا يعد تحقيق الهمز من أبرز الأمور التى اقتبستها اللغة النموذجية من غير البيئة الحجازية .

فاللغة النموذجية الأدبية وإن اتخذت معظم صفاتها من البيئة الحجازية قد تضمنت أيضاً بعض الصفات القليلة التى تنتمى لبيئة أخرى ، ومن بينها تحقيق الهمز الذى عرفت به تميم ، بل شاع عند أكثر البدو ، فقد كانوا يحققون الهمز ويعتزون بتحقيقه فى نطقهم . وقد روى عن عيسى بن عمر الثقفى أنه قال : «لا آخذ من قول تميم إلا بالنبر» أى تحقيق الهمز . فهذا العالم النحوى كان يدرك تمام الإدراك أن تحقيق الهمز صفة من صفات تميم وأن هذه الصفة أوضح الصفات التى اقتحمت حصون اللغة الأدبية المشتركة ، تلك اللغة التى اعتز بها هو وأمثاله من العلماء الأول . فبينما يرى الصفات الأخرى لتميم أقل مرتبة فى الفصاحة من نظائرها فى اللغة النموذجية ، يرى أن همز تميم هو الذى ساد بين الخاصة من العرب ،وأصبح لا ينتمى إلى تلك القبيلة بقدر ما ينتمى إلى اللغة النموذجية الأدبية.

والحجازيون وإن كانوا فى لهجات الخطاب يسهلون الهمز ، فقد التزموا تحقيقها فى الأساليب الأدبية من شعر أو خطابة ، أى كانوا يلجأون إلى تحقيق الهمز كلما عنّ لهم أمر جدى يتطلب استعمال اللغة النموذجية الأدبية . هذا هو معنى ما جاء فى الجزء الأول من لسان العرب : «قال أبو زيد : أهل الحجاز وهذيل وأهل مكة والمدينة لا ينبرون[1] ، وقف عليهاعيسى بن عمر فقال : ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر ، وهم أصحاب النبر ، وأهل الحجاز إذ اضطروا نبروا» .

---

(١) أى لا يهمزون . صفحة ١٤ .

فليس لهذا الاضطرار من معنى سوى أنهم كانوا يهمزون حين يلجأون إلى اللغة النموذجية وفى المجال الجدى من القول ، فيحنئذ يخرجون عن عاداتهم وسليقتهم فى تسهيل الهمز .

ولنا عود إلى حديث الهمز حين نتحدث عن لهجات الحضر ولهجات البدو. أما كيف تخلصت لهجات الحجاز من الهمزة فيتضح مما روى عن قراءة أبى جعفر ونافع التى يمكن أن تلخص فيما يلى :

(أ) إذا سكنت الهمزة وتحرك ما قبلها قلبت حرف مد مناسب لتلك الحركة مثل :

يؤمنون . بئس . فأذنوا

قرئت على الترتيب :

يومنون . بيس . فاذنوا

(ب) الهمزة المتحركة وقبلها متحرك لها الأحوال الآتية :

١ - أن تكون الهمزة مفتوحة وقبلها ضم ، ويغلب فى هذه الحالة أن تبدل الهمزة واواً مثل :

يؤاخذ . الفؤاد . هزؤاً

قرئت على الترتيب :

يواخذ . الفواد . هزوا

٢ - أن تكون الهمزة مفتوحة وقبلها مكسور ، وحينئذ تبدل الهمزة ياء مثل:

رئاء الناس . خاسئاً

قرئتا على الترتيب :

رياء الناس . خاسياً

٣ - أن تكون الهمزة مضمومة وقبلها كسر وبعدها واو ، وحينئذ تحذف الهمزة ويضم ما قبلها ليناسب الواو مثل :

«مستهزئون» قرئت «مستهزون»

٤ - أن تكون مضمومة وقبلها فتح ، وحينئذ تحذف الهمزة مثل :

«ولا يطؤون» قرئت «ولا يطُون»

٥ – أن تكون مكسورة بعد كسر ، حينئذ تحذف الهمزة مثل :

«متكئين» قَرئت «متكين»

٦ – إن تكون الهمزة مفتوحة بعد فتح ، وحينئذ تسهل الهمزة بين بين (١) مثل :

أرأيتكم

(حـ) الهمزة المتحركة وسكن ما قبلها ، تنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها ، وتحذف الهمزة سواء كان هذا فى كلمة واحدة أو كلمتين مثل :

«والأخرى» قرئت «ولخرى»

«من إله» «من آيه»

وقد اشتهرت هذه القراءة عن ورش القارئ المصرى الذى تعلم فى المدينة .

---

(١) أنظر كتاب الأصوات اللغوية ص ٧٤ .

عناصر اللهجات العربية وقبائلها

روت كتب اللغة والأدب مما ألف القدماء من علماء العربية ، صفات عدة للهجات القديمة ؛ ونسبت بعضاً منها إلى قبائل معينة ، والبعض الآخر اكتفت بالإشارة إليه على إنه مما كانت تقوله العرب .

وقد تناثرت تلك الروايات في ثنايا الكتب ، وفي مناسبات شتى ، فأحياناً نراها في جدل النحاة حين تعرض مسألة نحوية ويحاول بعض النحاة تخريجها على رأي قبيلة خاصة ، والبعض الآخر يتأولونها على رأي آخر روى عن قبيلة أخرى ، وكل من الفريقين يتمسك برأيه ويتعصب له . وقد نجد الإشارة لصفات اللهجات في الروايات الأدبية ، أو حين التحدث عن قبيلة من القبائل العربية .

ولابد للإحاطة بكل ما روى عن لهجات القبائل العربية من البحث والتنقيب في بطون المؤلفات القديمة ، وجمع كل ما يمكن جمعه ، ثم ترتيبه وتبويبه والعمل على تحقيق تلك الروايات وإخراج الزائف منها .

ولسنا ندعى هنا أننا قد أحطنا بكل تلك الروايات كما رويت في المؤلفات القديمة ، وإنما نرمي إلى علاج ما اشتهر من تلك الصفات علاجاً علمياً يكشف الطريق أمام طالب اللغة العربية في بحوثه المستقبلة . وعلى هذا فسنعرض هنا لأشهر ماروى عن اللهجات القديمة من صفات .

- ١ -

ما يتعلق بالإعراب

روى النحاة فى المطولات من كتبهم عدة مسائل اختلف فيها الرأى بينهم وقد نسبوا هذا الخلاف الإعرابى إلى قبائل معينة على أنها لهجاتهم وما تستطيعه ألسنتهم .

ويمكن أن نلخص بعض تلك المسائل فيما يلى :

١ - ينصب الحجازيون خبر ليس مطلقا ، ولكن بنى تميم يرفعونه إذا اقترن «بإلا» حملا لها على «ما» .

ثم يروى النحاة لهذا قصصاً ليس مصدرها فى الحقيقة إلا الصراع العلمى بين طائفتين منهم ، فقد زعموا أن الأصمعي قال : «كنا عند أبى عمرو بن العلاء يوماً ، فجاء عيسى بن عمر الثقفى فقال : يا أبا عمرو ماشىء بلغنى عنك تجيزه ؟ قال ما هو ؟ قال بلغنى أنك تجيز ليس الطيب إلا بالمسك ! فقال أبو عمرو : هيهات، نمت وأدلج الناس ، ليس فى الأرض حجازى إلا وهو ينصب ، ولا تميمى إلا وهو يرفع ! ثم قال لليزيدى ولخلف الأحمر : اذهبا إلى أبى المهدى ولقناه الرفع فإنه لا يرفع ، ولأبى المنتجع بن نبهان التميمى ولقناه النصب فإنه لا ينصب . فذهبا إلى أبى المهدى فوجداه يصلى ، فلما قضى صلاته التفت إليهما وقال : ما خطبكما ؟ قالا جئنا نسألك عن شىء من كلام العرب ، فقال هاتيا ، قالا : كيف تقول ليس الطيب إلا المسك !؟ فقال أتأمرانى بالكذب على كبر سنى ؟! فأين الزعفران وأين الجاوى ؟! فقال خلف : ليس الشراب إلا العسل ، فقال :فما يصنع سودان هجر ؟ ما لهم شراب غير هذا التمر . قال اليزيدى : فلما رأيت ذلك منه قلت له : ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها . فقال هذا كلام لادخل فيه ، ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله ، فقال اليزيدى : ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله العمل بها . فأعادها أبو المهدى بالنصب وقال لهما : ليس هذا لحنى ولا لحن قومى . ثم أتيا أبا المنتجع فقال له خلف : كيف تقول ليس الطيب إلا المسك ؟! فقالها ورفع ، فجهدا به أن ينصب فأبى إلا الرفع . ثم رجعا إلى أبى عمرو بن العلاء وأخبراه الخبر وعيسى عنده لم يبرح ، فأخرج عيسى خاتمه من يده وقال له : ولك الخاتم بهذا ، والله فقت الناس» !

٢ – قسم النحاة «ما» النافية إلى حجازية وتميمية ، وقرروا أن خبر «ما» يكون منصوباً عند الحجازيين ، ومرفوعاً عند بنى تميم . وقد اشترط النحاة شروطاً لنصب خبر «ما» عند الحجازيين ، مما هو معروف فى المطولات من كتب النحو .

٣ – ينصب الخبر بعد «إن» النافية فى لهجة أهل العالية ، ويروى أنه سمع من بعضهم [إن أحد خيراً من أحد إلا بالعافية] .

٤ –بنو أسد يصرفون مالا ينصرف ، ويقع منهم ذلك فيما علة منعه الوصفية وزيادة الألف والنون ، فيقولون [لست بسكرانٍ] .

٥ – لهجة تميم تنصب تمييز «كم» الخبرية مفرداً ، ولهجة غيرهم توجب جره وتجيز إفراده وجمعه . فبنو تميم يقولون : كم درهما أنفقت ! وغيرهم يقولون: كم درهم أنفقت ! وكم عبيد ملكت ! ولهذا كان قول الفرزدق [كم عمة لك يا جرير وخالة] موضع نقاش وجدل بين النحاة يمكن الرجوع إليه فى المطولات من كتبهم .

٦ – «لعل» تعمل الجر فى اسمها عند عقيل ، قال شاعرهم :

لعل اللّهِ فضلكم علينا ...

٧ – وتعمل «متى» عمل «من» الجارة عند هذيل ؛ قال شاعرهم :

شربن بماء البحر ثم ترفعت متى لجج خضر لهن نئيج

٨ – نصب الاسم والخبر «بليت» لغة تميم أو رؤبة الذى هو من تميم[1] .

هذه هى بضع أمثلة مما روى النحاة فى كتبهم ، ونسبوه إلى اختلاف اللهجات العربية . والحق أن هذا النوع من الاختلاف الإعرابى لا يمت للهجات العربية بصلة ، وإنما هو من صناعة النحاة حين اشتد الجدل بينهم وحاول كل فريق أن يأتى بجديد فى تلك القواعد الإعرابية التى ملكت عليهم مشاعرهم ، وصرفتهم عن كثير من البحوث القيمة فى اللغة . فلم تكن لهجات الكلام عند القبائل تلتزم الإعراب على الصورة التى رويت لنا فى كتب النحاة ، وإنما التزام الإعراب على تلك الصورة فى اللغة الأدبية التى نزل بها القرآن الكريم ونظم بها الشعر . وقد كان الإعراب من الظواهر اللغوية التى عنى بها الخاصة من العرب فى خطبهم وشعرهم ، وعدّ بينهم مما يفخر به الأديب ويمهر فى مراعاته . أما فى

(١) خزانة الأدب جـ٤ ص ٢٩١ .

لهجاتهم ولغة التخاطب بينهم فلا نكاد نعلم شيئاً عن قواعد إعرابهم ، وعما التزموه فى تحريك أواخر الكلمات أو إسكانها . فالإعراب كما نعرفه لم يكن إلا مسألة مواضعة بين الخاصة من العرب ، ثم بين النحاة من بعدهم ، ولم يكن مظهراً من مظاهر السليقة اللغوية بين عامة العرب . ويدل على هذا شعورهم بقواعده وقوانينه منذ العهد الجاهلى ، فإذا خرج أديب عن تلك القواعد عيب عليه هذا .

وإلا فكيف نتصور من الناحية الصوتية أن لساناً يعجز عن نصب خبر «ما» أو نصب اسم «لعل» أو جر تمييز «كم» الخبرية ؟!

فمراعاة الناحية الإعرابية كانت من صفات اللغة الأدبية ، بل لقد كون فيها عنصراً عظيم الأهمية ، عدّ منذ الجاهلية مقياساً من مقاييس الفصاحة .

ويظهر هذا الاهتمام بظاهرة الإعراب فى تلك اللغة الأدبية ، من تلك الأمثلة التى يسوقونها للحن بعض الشعراء والكتاب ، فقد رووا أن رجلا لحن فى حضرة النبى فقال رسول الله : أرشدوا أخاكم . ولا يعقل أن صاحب السليقة اللغوية يخطئ إلا إذا كان ينطق بلغة خاصة ، يتمسك فيها بقواعد وأصول لا تراعى فى حياته العادية حين ينطلق على سجيته . كذلك سمع عمر بن الخطاب لحناً من الأعراب ، وكذلك علىّ بن أبى طالب . وقد عاب العرب على النابغة الذبيانى وبشر بن أبى خازم الإقواء فى شعرهما . وليس الإقواء فى الحقيقة إلا لحناً فى الإعراب وخروجاً عن قواعده . ولم يستطع أحد أن يصارح النابغة ، وهو من خاصة الخاصة ، بهذا العيب ، حتى دخل يثرب مرة فأسمعوه غناء قوله :

أمن آل مية رائح أو مغتدى ... عجلان ذا زاد وغير مزودِ

زعم البوارح أن رحلتنا غدا ... وبذاك حدثنا الغراب الأسودُ

ففطن لهذا وغيره إلى قوله [وبذاك تنعاب الغراب الأسودِ] .

كما عيب على الفرزدق قوله :

وعض زمان يابن مروان لم يدع ... من الناس إلا مسحتا أو مجلفُ

وأمثلة هذا اللحن الإعرابى فيما سموه بعصور الاحتجاج كثيرة ، ملئت بها كتب اللغة والأدب ، وكلها تدل على قدر اهتمام القوم بناحية القواعد الإعرابية منذ العصر الجاهلى[1] .

---

(١) انظر قصة الإعراب صفحة ١٢٥ من كتاب «أسرار اللغة» للمؤلف.

- ٢ -
ما يتعلق بالناحية الصوتية

حين نعتمد على تلك الروايات المبتورة الناقصة التى رويت لنا متناثرة فى بطون كتب اللغة والأدب ، نجد أنفسنا أمام صفات صوتية نسبت لبعض القبائل دون تحقيق كاف فى الرواية والنقل . فلا عجب أن يتخللها لهذا ، بعض الخلط وبعض اللبس الذى لا سبيل إلى التخلص منه إلا بعد دراسة اللهجات الحديثة دراسة مستفيضة مبنية على أسس علمية صحيحة . على أننا حين نستعرض تلك الروايات ، أو بعبارة أدق ما اشتهر عنها ، نستطيع أن نقسم القبائل العربية بصفة عامة إلى طائفتين ، يشترك أفراد كل طائفة فى صفات صوتية واحدة :

١ - فهناك قبائل عربية عاشت فى صحراء الجزيرة منعزلة ، مما أدى إلى اصطباغها بصبغة خاصة .

٢ - وهناك قبائل متحضرة عاشت فى بيئة حضرية قريبة من المدن العربية أو فى ديار المدن نفسها ، وتلك قد اتصفت بصفات صوتية تخالف صفات الأولى . وقد اتصلت هذه القبائل فى بيئتها الحضرية بلغات أجنبية أثرت فى لهجتها إلى حد ما ؛ فالقبائل التى عاشت فى مدن الحجاز أو متاخمة لها ، وبعض التى عاشت فى مدن اليمن المتحضرة ، وكذلك تلك التى اتصلت بعض الاتصال بمدن العراق ، نراها جميعاً ذات صبغة واحدة ، تخالف تلك التى انعزلت فى صحراء الجزيرة وباديتها .

وقد نجد بعض صفات قليلة مشتركة بين هؤلاء ، ويصعب فى بعض الأحيان تبريرها ، ولكن حين تتم معرفتنا بتنقلات تلك القبائل ، واتصالها بغيرها ، سنعرف السرّ فى هذا الاشتراك . فلعل من القبائل البدوية ما تأثر فى بعض النواحى ببيئة حضرية ، وكذلك العكس .

- ٣ -
عوامل التطور وعوامل الجمود

يعرض المحدثون فى علاجهم للهجات وتتبعها فى أزمنة مختلفة إلى الحديث عما يمكن أن يسمى بعوامل التطور ، وعوامل الجمود أو الاستقرار ، ويكادون يجمعون على أن لهجات البيئات البدائية ، تختلف عن لهجات البيئات الحضرية فى نسبة الخضوع لهذه العوامل . ففى كل بيئة لغوية ظروف تدفع إلى تطور الكلام وتغيره فى كثير من الظواهر ، وظروف أخرى تعمل على استقرار هذه الظواهر وتحصنها فلا يطرأ عليها تغير أو تحور . غير أن الغلبة تكون دائماً لعوامل التطور ، فلا تبقى اللهجة فى كل ظواهرها على حال واحدة بعد مرور قرن أو قرنين . وهذا هو ما يفسر لنا اختلاف نسبة التطور فى اللهجات المتباينة . ففى بعض اللهجات نراه شديداً يصيب كل نواحى اللهجة وظواهرها ، وفى البعض الآخر نرى التطور ضئيلا لا يكاد يعدو أموراً معينة فى هذه اللهجة .

فإذا نحن استعرضنا بيئات القبائل العربية على ضوء تجارب المحدثين من علماء اللغات توقعنا أن نرى شبهاً كبيراً بين ما يسمونه بالبيئات البدائية ، وبين حياة البدو والقبائل البدوية . ففى القبائل البدوية التى لا تكاد تستقر على حال عوامل تسارع بلهجاتها إلى التطور والتغير :

(١) فالانعزال بين الجيل الناشئ وجيل الكبار حولهم لا يتيح الفرص الكافية لتلقى اللغة عن الآباء والأمهات وتكرر سماع الألفاظ والعبارات ، مما يترتب عليه نقص فى التقليد والمحاكاة . ففى مثل هذه البيئات قد تدعو ظروف الحياة ومشقة العيش إلى انشغال الآباء والأمهات عن أطفالهم فلا يتصلون بهم إلا لماماً . وهنا ينشأ الطفل بعيداً عن أهله بعض البعد ، مستقلا عنهم بعض الاستقلال، فلا يسمع منهم إلا قليلا ، ولا يتلقى عنهم إلا نادراً . وأساس النمو اللغوى هو المحاكاة وتكرار السماع . ولا يتقن الطفل تقليد لغة الكبار ونطقهم إلا بتكرار السماع منهم فى كل ساعة من ساعات اليوم . بل إن التقاليد فى بعض البيئات البدائية تأبى اتصال الطفل بأبيه اتصالا وثيقاً ، فلا يكاد يتحدث معه ، ويعدّ حديث الطفل أمام الكبار ذنباً لا يغتفر ، فكأنهم يتصورون الطفل قد خلق ليرى لا ليسمع . فلا يسمع الطفل

من الكبار حوله إلا قليلا ، ولا يجد منهم من يصلح نطقه أو يهديه فى كلامهم ، فينشأ هذا الطفل معتمداً على نفسه حيناً وعلى الصغار من أمثاله حيناً آخر ، يقيس ما لم يسمع على ما سمع ، وقد يخطئ فى هذا القياس ويذيع هذا الخطأ بين لداته من الأطفال ، وينطق بالأصوات منحرفة بعض الانحراف ، فلا يجد من يقوّم له نطقه ، ويشب عليه دون شعور منه أو ممن حوله من الكبار . وهكذا نرى الجيل الناشئ قد اصطنع طريقة أخرى فى نطق بعض ألفاظه وعباراته ، وكون لنفسه خصائص تشيع بينهم وتصبح فيما بعد صفة جديدة متميزة ، لم تكن من قبل فى لهجة أهليهم وذويهم .

(٢) هذا إلى أن القبائل البدوية دائمة الرحيل والتنقل ، لا تكاد تستقر فى مكان حتى تلجأ إلى غيره فى طلب التجارة أو الكلأ ، فتتبدل الحال غير الحال والمناظر غير المناظر على هؤلاء الصغار . فهم فى الجنوب فى منطقة صخرية وفى الشمال فى أخرى رملية ، ولهم فى الجنوب جيران ذوو لهجات ونطق معين قد يخالف جيرانهم فى الشمال . فيترك كل هذا أثراً فى نطقهم ويكون له صدى قوى فى نمو لغتهم .

(٣) فإذا أضيف إلى هذا ما عرف عن البدو من قلة عنايتهم بالنطق وسرعتهم فى الأداء ، وجدنا التطور فى لهجات البدو يأخذ صوراً عدة فى زمن قليل . فليس بين البدو طبقات اجتماعية تقاس بمقاييس الحضر من رغبة فى تجويد النطق وتخير الألفاظ . فلا يكادون يتكلمون إلا بقدر ، ولا يعمدون فى كلامهم إلى مستوى خاص يناسب مقام الكلام .

ومع كل هذا أو رغم كل هذا فللبدو من حياتهم القبلية وظروفهم الاجتماعية ما يساعد على استقرار لهجاتهم :

(١) فهم يتعصبون لبعض صفات الكلام التى اشتهرت عنهم ويستمسكون بكل ما يميزهم من غيرهم . وإنما يكون هذا حين يشعرون بمثل هذه الصفات . فإذا عرفوا أن لهم نطقاً معيناً بالقاف أو الهمزة عرف عنهم واشتهروا به ، استمسكوا بمثل هذا النطق لا يحيدون عنه ولا يسمحون لأبنائهم بالحيدة عنه . ويشبه هذا ما نعرفه عن بعض جهات الصعيد فى مصر حين يقولون لأبنائهم : إن من يغير لهجته كمن يغير دينه . ومثل هذه العصبية لا تكون إلا حين يشعرون بصفة معينة ، ويدركون الفرق بينهم وبين غيرهم فيها إدراكاً تاماً . أما حين تكون الصفات غامضة عليهم ، دقيقة على إدراكهم فنراهم لا يكادون يعبأون بها ، بل يتركونها وشأنها تتغير فى أفواههم على ألسنتهم دون عمد أو شعور بمثل هذا التغير أو التحور.

(٢) هذا إلى أن انعزالهم عن غيرهم وانطواءهم على أنفسهم وبغضهم لكل ما هو أجنبى عنهم ، لا يسمح بأى تطعيم يمكن أن يصيب لهجتهم من بيئة أخرى.

أما فى البيئة الحضرية فعوامل التطور إن وجدت ، ليس لها القوة نفسها التى نراها عادة فى البيئة البدوية :

(١) ففى الحضر طبقات من الناس تقاس مراكزهم الاجتماعية بمقاييس لغوية فى بعض الأحيان . وتتطلب حياة الحضر العمل على تحسين النطق وتخير العبارات ، حتى ينال المرء ما يشتهى من طموح ومركز اجتماعى . فلا تكاد تتم مراحل نمو اللغة عند أطفال الحضر حتى يرون أنه من الضرورى لهم أن يعملوا على تجويد نطقهم ، وتحسين عباراتهم ، وتخير ألفاظهم كى يصلوا إلى ما يطمحون إليه ويصبح لهم شأن فى وطنهم المتحضر . ولهذا لا يكاد ينحرف أحد منهم فى نطقه أو تقليده للغة الكبار حولهم . فينشأ الطفل الحضرى بين أحضان أهله مدللا ، يكثرون من الحديث إليه ، ويستمتعون بكل ما ينطق به ، ويراقبون فى متعة وسرور نطق كلامه ، ويصلحون ما يزل فيه أو ينحرف عنه . ويترتب على مثل هذه الظروف حالة من الاستقرار فى لهجة الكلام بين أهل الحضر تفوق نسبياً ما شهدناه بين البدو .

(٢) ومع هذا ففى الحضر ما يمكن أن يساعد على التطور كقبول أهله لكثير من العناصر الأجنبية التى تنزح إليهم ، واتصالهم بكل جديد يطرأ على الحياة الإنسانية ؛ فللمخترعات الجديدة صداها فى ألفاظهم ، وللتجارة الأجنبية أثرها فى كلماتهم ، فهم مستعدون للإعارة والاستعارة فى ألفاظ اللغة وأساليبها أكثر من استعداد البدو لمثل هذا . ولقد كانت مكة فى عصور ما قبل الإسلام مهداً لتجارة رائجة واسعة النطاق ، وكان ينزح إليها قوم من الأعاجم يؤسسون فيها بيوتاً تجارية عظيمة ، ويجلبون إليها منتجات من كل الأمم المعروفة حينئذ . ولانستطيع أن نتصور كيف يمكن أن يتم هذا دون أن يترك أثراً ما فى لهجة مكة.

ولهذا كله لا ندهش حين نرى الروايات التى رويت عن لهجات البدو تتميز بخصائص ، تخالف تلك التى عرفت عن الحضر . كذلك لا ندهش حين نلحظ أن لهجة البدو بوجه عام كانت أسرع إلى التطور والتغير ، وأن لهجات البيئة الحجازية ، قد حافظت فى مجموعها على خصائص قديمة تنتمى إلى السامية الأولى .

- ٤ -

صفات اللهجة بين البدو والحضر

١ - الميل إلى الامالة :

تحدثنا آنفاً عن طبيعة الإمالة من الناحية الصوتية ، وقلنا إنها المرحلة الثانية للصوت المركب الذى يسميه المحدثون Diphthong ، كما قررنا أنه قد تكون إمالة إلى الكسر فى حالة ai ، وإلى الضم فى حالة au . وقد وقفت القبائل البدوية عند مرحلة الإمالة ؛ ولم تتطور الإمالة فى ألسنتهم إلى الفتح كما حدث عند الحجازيين .

وإذا نسبنا الإمالة إلى قبائل وسط الجزيرة وشرقيها فليس معنى هذا أن جميع هذه القبائل يميل بنسبة واحدة ، بل يظهر أن إمالة قبائل وسط الجزيرة كانت تلك الإمالة الشديدة ، أمّا القبائل المتاخمة لمدن العراق فقد كانت إمالة خفيفة ، أى قريبة من الفتح .

هذا حين تكون الإمالة نتيجة أصل يائى أو واوى كما أشرنا آنفاً كإمالة نحو «باع ، قام» ، أما حين تكون الإمالة نتيجة انسجام بين أصوات اللين كما فى إمالة نحو «كتاب» ، فتلك صفة كانت أكثر شيوعاً فى القبائل البدوية ، منها فى القبائل المتحضرة التى عنيت بتحقيق الأصوات ومنع تأثرها بعضها ببعض .

٢- الميل إلى الضم أو الكسر :

مالت القبائل البدوية بوجه عام إلى مقياس اللين الخلفى المسمى بالضمة ، لأنه مظهر من مظاهر الخشونة البدوية . فحيث كسرت القبائل المتحضرة وجدنا القبائل البدوية تضم . والكسر والضم من الناحية الصوتية متشابهان ، لأنهما من أصوات اللين الضيقة(١) .

لهذا تحل إحداهما محل الأخرى فى كثير من الظواهر اللغوية . غير أن الكسر دليل التحضر والرقة فى معظم البيئات اللغوية . فهى حركة المؤنث فى اللغة

---

(٢) انظر الأصوات اللغوية ، ص ٣٨ .

العربية ، والتأنيث عادة محل الرقة ، أو ضعف الأنوثة . ولا شك أن الحضرى أميل إلى هذا بوجه عام . هذا إلى أن الياء التى هى فرع عن الكسرة تعدّ العلامة الأساسية للتصغير فى لغتنا العربية . بل إن من المحدثين من يؤكد لنا أن الكسرة فى كثير من اللغات ترمز إلى صغر الحجم والرقة وقصر الوقت(١) .

ومما نلاحظه أن اللغة العربية فى تطورها إلى اللهجات الحديثة مالت فى غالب الأحيان إلى التخلص من بعض ضماتها ، وإبدال الكسرة بها حين استقرت فى المدن والبيئات المتحضرة .

ولسنا نعنى بهذا أن لهجات البدو قد خلت من الكسرات ، أو أن لهجات الحضر لا تعرف الضمات ! وإنما كل الذى نهدف إليه هو أنه إذا رويت لنا الكلمة بروايتين : إحداهما تشتمل على ضم فى موضع معين من هذه الكلمة ، والرواية الأخرى تتضمن الكسر فى الموضع نفسه من الكلمة ، رجحنا أن الصيغة المشتملة على الضم تنتمى إلى بيئة بدوية ، وأن المشتملة على الكسر تنتمى إلى بيئة حضرية . كذلك نرجح أن الروايتين أو الصيغتين كانتا تستعملان فى زمن واحد ولكن فى بيئتين مختلفتين . فليست إحداهما بالأصل والأخرى فرع عنها ، أو ليست إحداهما بمثابة التطور للأخرى ، بل إن الصيغتين قد وجدتا معاً وعاشتا فى عصور ما قبل الإسلام . ويشبه هذا ما نسمعه فى بعض اللهجات المصرية من النطق بكلمات مثل : (زهق وطهق وصغر) مرة بالضم وأخرى بالكسر ، غير أنا نلحظ أن النطق بالضم يشيع فى البيئات البدائية ، وبين الجفاة الخشنين من الرجال، فى حين أن النطق بالكسر نسمعه غالباً فى المدن وفى أفواه النساء بصفة خاصة.

فإذا استعرضنا ما روى لنا عن اللهجات العربية القديمة ، وجدنا قدراً كبيراً من الأمثلة التى تؤيد ما نذهب إليه هنا :

فهناك رواية تجمع عليها كتب اللغة ، وهى تلك الظاهرة التى تسمى بالمعاقبة(٢) الحجازية . ويفسرها علماء اللغة بقولهم إن الواو فى مثل «صوام» ينطق بها ياء عند الحجازيين فيقولون «صيّام» . ويفهم من كلام النحاة وأصحاب المعاجم أن هذه الظاهرة كانت مطردة ، فكان الحجازيون يقولون : [صيّام ، نيّام ، صيّاغ، قيّاد] بدلا من : [صوّام ، نوّام ، صوّاغ ، قوّاد] .

(١) أسرار اللغة صفحة ٨٠ .

(٢) المخصص جـ ١٤ ص ١٩.

فإذا تذكرنا ما نعرفه من دراسة الأصوات وطبيعتها ، وجدنا أن «الواو» ليست فى الحقيقة إلا امتداداً للضم مع فرق طفيف فى وضع اللسان ، وأن «الياء» هى امتداد للكسر مع الفرق الطفيف نفسه فى وضع اللسان . فكأن الحجازيين كانوا يميلون إلى الكسر ، فى حين أن غيرهم من البدو كانوا يميلون إلى الضم .

انظر أيضاً إلى الروايات الآتية التى وردت فى لسان العرب :

١ - بعض من فزارة كانوا يقولون : «كسايان» بدلا من «كساوان» . وفزارة من غطفان تلك القبيلة التى عاشت بالقرب من الحجاز وربما قد تأثرت بما شاع فيه .

٢ - كلمة «حيث» رويت فى صورة أخرى هى «حوث» ، ونسبت هذه الصورة الأخيرة لقبيلة طئ وقيل تميم ، وكلاهما من القبائل البدوية التى آثرت الضم فى كثير من الصيغ .

٣ - يقال «ما أعيج به» أى ما أعبأ به . ولكن بنى أسد كانوا يقولون «ما أعوج» .

٤ - حكى عن بنى «سليم» وهم من القبائل الحجازية أنهم كانوا يقولون «منذ» بكسر الميم فى «منذ» .

٥ - «مكيل» اسم المفعول من كان يكيل ، وينطق به بنو أسد «مكول» .

٦ - المشهور هى «نما ينمو» ولكن حكى عن بعض بنى سليم أنهم قالوا «ينمى» ، وسئل جماعة من بنى سليم عن الواوىّ فلم يعرفوه .

٧ - المشهور الشائع فى اسم الموصول لجمع المذكر هو «الذين» ، وقد روى لهذه الصيغة نظير هو «اللذون» ، وينسبه بعض الرواة لهذيل وبعضهم ينسبه لعقيل . ويظهر أن نسبته لعقيل أدق أو أرجح لأنها من القبائل البعيدة عن البيئة الحجازية ، فهى أقرب إلى التأثر بلهجة تميم ومن على شاكلتهم . ويروى الرواة شاهداً من الشعر وهو :

نحن اللذون صبحوا الصباحا   يوم النخيل غارة ملحاحا

ولعل مما يؤيد نسبة هذه اللهجة إلى عقيل أن هذا الشاهد نسبة أبو زيد[1]

---

(١) نوادر اللغة . ص ٤٧ .

لأبى حرب بن الأعلم وهو جاهلى من بنى عقيل . ونسبه الصاغانى فى العباب إلى ليلى الأخليلية وهى أيضاً من عقيل(١) .

على أنا لا نعتمد فى ظواهر اللهجات وخصائصها على لغة الشعر وأمثلته ، فكما قلنا آنفا لقد نظم الشعر باللغة النموذجية المشتركة بين القبائلض جميعاً ، ولايصح لهذا أن يشتمل على الصفات الخاصة ببعض اللهجات . فلعل هذا البيت قد اشتمل فى أصله على «الذين» وقد غيره الرواة ليجعلوا منه شاهداً على أن «اللذون» قد سمعت من بعض القبائل .

٨ - يقال لنا إن بنى تميم يعربون «أمس» وعليه فيجوز فيها «أمسُ» ، ولكن الحجازيين يلتزمون فيها حالة واحدة هى «أمسِ» .

ويظهر أن استقراء هذه الرواية قد اعتوره بعض النقص ، وأن الحقيقة هى أن تميما كانت تلتزم فى الكلمة حالة واحدة هى «أمس» بضم السين .

٩ - قرأ يعقوب وحمزة وهما عراقيان أو ممن تأثروا بالبيئة البدوية الكلمات (عليهم ، إليهم) بضم الهاء بدلا من المشهور الشائع فى البيئة الحجازية بكسرها . بل لقد روى فى القراءات القرآنية أن «قبلا» فى قوله تعالى : «وحشرنا عليهم كل شىء قبلا» على لغة تميم ، وأن القراءة «قبلا» على لغة كنانة . كذلك قيل لنا إن قراءة «أئذا متنا» على لغة تميم ، وقراءة «أئذا متنا» على لغة الحجاز . كذلك قرئت الكلمة «سخريا» بضم السين وكسرها وروى لنا أن الضم على لغة تميم ، وأن الكسر على لغة قريش ، وفى قوله تعالى : «اتخذناهم سخريا» .

ومن أمثلة الضم والكسر : [إسوة ، مرية ، غلظة] بكسر الأول وضمه ، والكسر فى لهجات الحجاز والضم لتميم(٢) . ومنها ما جاء عن اليزيدى فى المزهر أن تميما تضم أوائل الكلمات : [عدوة ، عشوة ، أسوة ، قدوة] . وقرأ أبو عمرو وابن كثير «بالعدوة الدنيا» بكسر العين ، والباقون بضمها ، والضم أعرب اللغتين عن أبى عبيد ، وذكر اليزيدى أن الكسر لغة الحجاز (٣) .

وكذلك «صنوان» بالضم لتميم وقيس ، وبالكسر لأهل الحجاز(٤) .

---

(١) جمهرة أنساب العرب ص ٨٠١.

(٢) أدب الكاتب ، ص ٤٣٤ ، الزهر جـ ٢ ص ٢٧٦ .

(٣) إبراز المعاني ص ٣٣٤ .

(٤) البحر ، جـ ٥ ، ص ٣٥٧ .

١٠ – وأخيراً لعل من هذه الظاهرة ما روى عن بنى كلب وسمى «بالوكم» حيناً وبالوهم حيناً آخر ، فقد قيل لنا إنهم يكسرون كاف الخطاب فى «عليكم» وهذا هو «الوكم» ، كما يكسرون ضمير الغيبة فى «منهم» وهذا هو الوهم .

وبنو كلب هؤلاء فرع من قضاعة ، ترددت مساكنهم بين تخوم الشام وما يقرب من بلاد العراق . فهل كان هذا لأنهم تأثروا بما انتشر فى تلك البقاع من لغات سامية كالآرامية والعبرية وكلاهما آثر الكسر فى مثل هذه الضمائر ؟

أو ربما يقال إن كسر هذه الضمائر كان صفة من صفات اللهجات الحجازية وأن ضمها قد شاع فى لهجات البدو ، وأن النطقين قد عاشا معاً جنباً إلى جنب فى عصور ما قبل الإسلام . ثم إن اللغة النموذجية قد انتهجت النهج البدوى فى هذه الضمائر لأن المشهور الشائع فى نطقها هو أن تكون بالضم .

أما كيف يمكن أن بنى كلب قد تأثروا بلهجات الحجاز ، فذلك لأنهم عاشوا على حدود الشام ؛ أى على الطريق الذى كان الحجازيون يسلكونه دائماً فى تجارتهم مع بلاد الشام ، فبيئتهم ليست إلا امتداداً طبيعياً للبيئة الحجازية .

تلك هى بعض الروايات التى توضح لنا بجلاء ميل البدو إلى الضم وإيثار الحضر للكسر ؛ أى إن قبائل الحجاز بوجه عام كانوا يميلون إلى الكسر ، فى حين أن «تميما» ومن على شاكلتهم من قبائل وسط الجزيرة وشرقيها كانوا يضمون . وهناك روايات أخرى كثيرة وردت فى لسان العرب وفى المخصص وتؤيد ما نذهب إليه هنا ، ولكن هناك أيضاً بعض الروايات التى تخالف فى مجموعها هذا الرأى ، والتى تحتاج إلى تحقيق مستقل أو تفسير خاص ، ولعلها تعزى إلى خطأ فى الرواية أو اختلاف فى معين الصيغتين .

على أنه حين نتساءل عن أى الصوتين أيسر فى النطق أو أيهما الذى يحتاج إلى جهد عضلى أكثر ، نجد أن الضمة هى التى تحتاج إلى جهد عضلى أكثر ، لأنها تتكون بتحرك أقصى اللسان ، فى حين أن الكسرة تتكون بتحرك أدنى اللسان ، وتحرك أدنى اللسان أيسر من تحرك أقصاه . وقد كنا نتوقع من أجل هذا أن يشيع الكسر فى بيئة البدو حيث الميل إلى الاقتصاد فى المجهود العضلى ، وبذل أقل جهد ممكنا فى أثناء النطق ، متى تحقق الناطق أن مثل هذا الجهد سيحقق له الهدف من الكلام . ولكن الضم كما قلنا آنفاً صفة من صفات الخشونة التى يحرص عليها البدوى والتى يدرك أنها تميزه من غيره ، ولذلك استمسك بها وتعصب لها فى غالب الأحيان .

وقد حدث فى النادر من الأحيان أن نسى البدوى نفسه ، وانطلق على سجيته فنطق بالكسر حيث كنا نتوقع منه الضم . هذا هو ما يمكن أن يفسر لنا تلك الروايات النادرة ، على افتراض صحتها ، التى جاء فيها الكسر منسوباً لقبيلة بدوية .

وليس يقتصر أمر اللهجات على الضم والكسر ، بل لقد تروى الكلمة بصيغتين تشتمل إحداهما على الضم والأخرى على الفتح ، أو إحداهما على الكسر والأخرى على الفتح . وفى مثل هذه الرواية يجب أن نلجأ فى تفسيرها إلى ذلك القانون العام أو الظاهرة العامة التى نسميها بانسجام أصوات اللين فى الكلمة الواحدة Vowel - Harmony ، وهى ظاهرة من ظواهر التطور فى حركات الكلمات . فالكلمة التى تشتمل على حركات متباينة تميل فى تطورها إلى الانسجام بين هذه الحركات ، حتى لا ينتقل اللسان من ضم إلى كسر إلى فتح فى الحركات المتوالية . وقد برهنت الملاحظة الحديثة على أن الناطق حين يقتصد فى الجهد العضلى يميل دون شعور منه أو تعمد إلى الانسجام بين حركات الكلمات .

وللانسجام درجات بعضها أيسر من بعض : فتوالى الضم ثم الكسر ثم الفتح أشق من توالى ضمتين ثم الفتح ، أو توالى كسرتين ثم الفتح . وربما كان أيسر من هذا وذاك أن تصبح هذه الكلمة مشتملة على ضم ثم فتحتين .

ولسنا فى كل حال نتوقع أن يلتمس الناطق أيسر السبل ، وإنما نتوقع منه أن يقوم ببعض الانسجام أياً كانت درجته من اليسر .

وقد استطعنا على ضوء هذه الظاهرة أن نفسر بعض الروايات التى رويت عن اللهجات القديمة ، ووجدنا بوجه عام أن لهجات البدو أميل إلى هذا الانسجام من لهجات الحضر التى فيها تحقق الأصوات نتيجة التأنى والتؤدة فى النطق .

فالانسجام كظاهرة صوتية لا يقتصر أمره على لهجات البدو ، بل قد يوجد أيضاً فى بعض لهجات الحضر ولكن بنسبة أقل :

١ - فإذا قيل لنا إن الحجازيين كانوا يقولون «برأت من المرض» وسائر العرب يقولون «برئت» ، أمكننا بسهولة أن نتصور أن الأصل هو «برئت» ، وأن نوعاً من الانسجام بين الحركات قد أدّى إلى الصيغة الأخرى «برأت» .

ولا شك أن الراوى الذى سمع هذه الصورة من الحجازيين لم يسمعها فى العهود الجاهلية ، وإنما سمعها وقت تدوين اللغة ؛ أى بعد مرور ما يقرب من قرنين

على ظهور الإسلام ، وفى خلال هذه الفترة قد تم مثل هذا التطور .

ففى ظاهرة الانسجام نستطيع دائماً أن نميز الأصل من الفرع ، وأن نتبين ما كانت عليه الكلمة وما صارت إليه .

٢ – ومما يروى لنا أن الملايين كانوا ينطقون كلمة «تفاوت» بفتح الواو . ولكن القرآن الكريم قد استعملها بضم الواو ، مما يؤكد لنا أن الصورة القرآنية هى الأصل وأن الأخرى فرع لها .

والكلابيون ممن تأثروا بالبيئة الحجازية .

٣ – وأهل تهامة وهم أقرب إلى البيئة الحجازية كانوا يقولون فى «العَضُد» «العضُد» بضمتين . وقد استعملت الصيغة الأولى فى القرآن الكريم ، مما يبرهن على أنها الأصل .

تلك هى أشهر الأمثلة التى رويت للانسجام فى البيئة الحجازية ، وهى إذا قيست بما روى عن البيئة البدوية تعدّ قليلة الأهمية :

١ – فقد روى عن تميم وأسد أنهم كانوا ينطقون باطراد كلمات مثل : [بعير، شهيد ، زئير] بكسر الحرف الأول . وليس هذا فى الحقيقة إلا نوعاً من الانسجام بين حركات هذه الكلمات . وعلى هذا لا معنى لما يشترطه بعض اللغويين من أن الحرف الثانى فى مثل هذه الكلمات يجب أن يكون من حروف الحلق !! ويظهر أن الرواى قد سمع من تميم كلمات تصادف أن كانت مشتملة على حروف الحلق . وليست هذه الظاهرة التميمية إلا انسجاماً بين الحركات يشبه ما نسمعه الآن فى بعض اللهجات الحديثة من نطق [كبير ، بعيد ، نظيف] بكسر أولها .

٢ – «سكارى وكسالى» كلمتان وردتا فى القرآن الكريم وقد ضم الحرف الأول فى كل منهما ، ولكن المعاجم العربية تحدثنا أن بنى تميم وأسد كانوا ينطقون بهما وقد فتح الحرف الأول منهما . ولا يمكن تفسير مثل هذا إلا على ضوء الانسجام بين الحركات فى كل من الكلمتين .

٣ – «سنفرغ لكم أيها الثقلان» ، قيل لنا إن هناك قراءة لكلمة «سنفرغ» بفتح الراء على لغة تميم .

٤ – «غشاوة» قرئت بفتح الغين على لغة ربيعة . ولكن ربيعة شعب عظيم يشتمل على عدة قبائل ، بعضها ممن تأثر بالحضر فى بلاد الحيرة وبعضها من

البدو كبكر بن وائل . فإذا صحت هذه الرواية يمكن أن ينسب هذا النطق لقبيلة بدوية مثل بكر بن وائل .

٥ - هناك أمر مطرد تجمع عليه كتب اللغة وهو نطق قبيلة طئ لأفعال مثل : [بقى ، فنى ، رضى] بفتح الحرف الثانى فى كل منها .

٦ - «ما فتئت أذكره» ، قيل لنا إن بنى تميم كانوا يقولون فيها «ما فتأت» فيفتحون التاء من هذا الفعل .

٧ - المشهور فى الفعل «مات» أن مضارعه يموت أو يميت ، ولكن بنى طئ كانوا يقولون «يمات» .

٨ - المشهور فى الفعل «إخال» هو كسر همزة المتكلم ، ولكن بنى أسد كانوا ينطقون بها مفتوحة .

ويبدو أن بعض القدماء من العلماء كانوا يشعرون بأثر ظاهرة الانسجام بين الحركات فقد كان ابن جنى يعبر عنها بقوله [لضرب من تجانس الصوت][1] ، ويعبر عنها ابن يعيش بقوله [لضرب من التشاكل][2] .

ولسنا ندعى بعد كل هذا أن ما سقناه من مبادئ عامة ، تفسر لنا كل الروايات التى وردت فى المعاجم لكلمات رويت بحركات مختلفة ، فبعض الروايات التى عثرنا عليها لا تزال تحتاج إلى تحقيق ، ولعل بحوث المستقبل تكشف لنا عما غمض علينا .

٣ - الميل إلى الأصوات الشديدة أو الرخوة :

مالت القبائل البدوية إلى الأصوات الشديدة فى نطقها ، وهو أمر طبيعى يلتئم مع ما عرف عن البدو من غلظة وجفاء فى الطبع . لأن هذه الأصوات سريعة النطق بها ، حاسمة ، ثم إن ما فيها من عنصر انفجارى ينسجم وسرعة الأداء عند الأعراب .

وبهذا يتميز نطقهم بسلسلة من الأصوات القوية السريعة التى تطرق الآذان كأنما هى فرقعات متعددة ، فى حين أن أهل المدن المتحضرة يميلون إلى رخاوة

(١) سر الصناعة جـ ١ ص ٥٨ .

(٢) جـ ٩ ص ٥٤ .

تلك الأصوات الشديدة بوجه عام ، إذ فيها من التؤدة والليونة ما ينسجم مع بيئتهم وطبيعتهم .

فالباء والتاء والدال والكاف ، وغيرها من الأصوات الشديدة ، قد نسمعها فى أفواه المتحضرين (على الترتيب) :

فاء . سينا . زايا . شينا

هذا إلى أن الأصوات الشديدة تحتاج إلى جهد عضلى أقل من نظائرها الرخوة . ولذلك نلحظ أن الطفل الصغير قد يلتمس الصوت الشديد بدلا من نظيره الرخو ، فيقول مثلا : «تتى» بدلا من «ستى» ، وكذلك البدوى الذى يقتصد من الجهد العضلى فى أثناء نطقه ، يميل فى كثير من الأحيان إلى قلب الصوت الرخو إلى نظيره الشديد .

فإذا رويت لنا الكلمة بروايتين : فى إحداهما تشتمل الكلمة على صوت شديد وفى الأخرى على نظيره الرخو ، أمكن أن ننسب الصيغة المشتملة على الصوت الشديد إلى بيئة بدوية ، وأن ننسب الأخرى إلى بيئة حضرية . هذا إذا لم تعرف أى الصيغتين هو الأصل وأيهما هو الفرع . والطريق الوحيد لمعرفة الأصل والفرع فى مثل هذه الحال هو الرجوع إلى النصوص القديمة الموثوق بها . فإذا وردت الكلمة فى نص جاهلى ، أو نص منسوب إلى صدر الإسلام ، أو وردت فى القرآن الكريم ، دل هذا على أن صورتها التى ترد فى مثل هذه النصوص هى الأصل فى الأعم الأغلب ، وأن تطوراً ما قد أصاب الكلمة فيما بعد حتى صارت على الصورة الأخرى التى سمعها الرواة فى عصر التدوين ، أى بعد ظهور الإسلام بنحو قرنين من الزمان . ومثل هذه الفترة من الزمن كافية لإحداث مثل هذا التطور .

نستعرض بعد هذا بعض تلك الروايات التى جاءت فى معاجمنا العربية مؤيدة لما نذهب إليه هنا :

١ – المشهور هو «عكوف الطير» ، وقد قيل لنا إن قبيلة عقيل تقول : «عكوب الطير» بالباء ! والفرق بين الفاء والباء هو أن الأولى صوت رخو نظيره الشديد هو ذلك الصوت الأوروبى P ، ولكن نظراً لفقدانه فى لغتنا العربية اعتبرت الباء المألوفة لنا بمثابة النظير الشديد للفاء العربية . وقبيلة عقيل كما نعرف من القبائل التى عاشت بالقرب من تميم وتأثرت بها ، فهى من قبائل البدو الذين آثروا الأصوات الشديدة .

٢ - جاء فى اللسان : «قال أبو حسان سمعت أبا عمرو الشيبانى يقول : ما ذقت عدوفاً ولا عدوفة ، قال وكنت عند يزيد بن مزيد الشيبانى فأنشد بيت قيس بن زهير :

ومجنبات ما يذقن عدوفة   يقذفن بالمهرات والأمهار

بالدال ، فقال لى يزيد صحف أبا عمرو ، وإنما هى «عذوفة» بالذال ، قال فقلت له لم أصحف أنا ولا أنت ، تقول ربيعة هذا الحرف بالذال وسائر العرب بالدال» .

نحن فى هذه الرواية أمام كلمة رويت بروايتين وهى «عدوفة» بالدال أو الذال ، وهما حرفان متناظران : الأول منهما شديد والثانى نظيره الرخو ، وقد نسبت الصيغة المشتملة على «الذال» لشعب عظيم هو ربيعة وفيها البدو وفيها من تأثروا بحضر الحيرة كإياد والنمر . ولذلك نؤثر أن ننسب النطق بالذال لهاتين القبيلتين .

ولكن الغريب أن يرد فى مادة «دكر» أن الفراء يقول :

[وبعض بنى أسد يقولون «مذكر» فيقلبون الدال فتصير ذالا مشددة وقال الليث «الدّكر» ليس من كلام العرب ، وربيعة تغلط فى «الذكر» فتقول «دكر» .

أما أن ينسب «الدكر» بالدال لربيعة فأمر هَين ، لأن من قبائل ربيعة بكر ابن وائل ، وهى المتوغلة فى البداوة ، فلعل الراوى قد سمع هذا النطق فيها . ولكن نسبة «مذكر» بالذال لبنى أسد من الأمور التى يصعب تعليلها .

(٣) روى أن الأصمعى قال : إن «الخبيت» هو «الخبيث» ، وإن النطق بالتاء لغة خيبر . ولكن هذه القبيلة اليهودية من القبائل التى تأثرت بالبيئة الحجازية ، ولذا لم نكن نتوقع أن يروى عن لهجاتها قلب الصوت الرخو إلى نظيره الشديد . على أن هذه الرواية كانت موضع شك من الخليل ، كما اعتبرها بعض اللغويين تصحيفاً . جاء فى اللسان ما نصه :

[قال اليهودى الخيبرى :

ينفع الطيب القليل من الرز   ق ولا ينفع الكثير الخبيت

وسأل الخليل الأصمعى عن «الخبيت» فقال له أراد «الخبيث» وهى لغة خيبر» فقال الخليل لو كان ذلك لغتهم لقال «الكتير» ، وإنما كان ينبغى أن تقول إنهم

يقلبون الثاء تاء فى بعض الحروف . وقال أبو منصور فى بيت اليهودى أيضاً أظن أن هذا تصحيف ، قال لأن الشىء الحقير الردئ إنما يقال له «الختيت» بتاءين ، وهو بمعنى الخسيس فصحفه وجعله «الخبيت»] .

وهكذا نرى أن الخليل لم يرقه أن يسمع أن قبيلة حجازية ينسب لها قلب الصوت الرخو إلى نظيره الشديد .

(٤) جاء فى اللسان أن قبيلة طئ كانوا يقولون «اللّصت» بدلا من «اللص» ، ويقولون «الطست» بدلا من «الطسّ» . ويؤيد هذه الرواية ما ورد فى المخصص(١) : اللّصت هو اللص فى لغة طئ وجمعه «لصوت» وهم يقولون طست وغيرهم طسّ.

وقبيلة طيىء متوغلة فى البداوة ، فلا غرابة أن يقلب فى لهجتها صوت «رخو» إلى نظيره الشديد . فالسين صوت رخو نظيره الشديد التاء ، والصاد صوت رخو نظيره الشديد هو الطاء التى إذا رقّقت أصبحت تاء .

(٥) جاء فى المخصص(٢) : [قال ابن دريد الخزف ما عمل من الطين وشوى بالنار فصار فخاراً واحدته خزفه ، والخزب لغة فى الخزف يمانية] .

فهذا مثل آخر للفاء الرخوة حين تناظرها الباء الشديدة فى كلمة رويت بروايتين . ويمكن أن تنسب رواية الباء إلى قبيلة بدوية من قبائل اليمن المتعددة التى منها البدوى ومنها المتأثر بحضر اليمن .

(٦) جاء فى اللسان أن [«اللازب» و «اللاتب» بمعنى واحد ، وأن قبيلة قيس تقول طين لاتب] .

فهذه مناظرة بين الزاى والتاء ، والأولى رخوة والثانية شديدة ، ولكنها مناظرة بين صوت مجهور وصوت مهموس ، مما يرجح أحد أمرين : إما أن صيغة «لازب» كان ينطق بها «لاسب» ، أو أن صيغة «لاتب» كان ينطق بها «لادب» . ومع هذا فقد نسب الصوت الشديد لقيس التى تأرجحت بين تميم والحجاز فتأثرت بهذه وتأثرت بتلك . ويبدو أنها هنا قد تأثرت ببيئة تميم البدوية .

(٧) جاء فى المخصص(٣) : فاضت نفسه خرجت تميمية . ولكن صاحب اللسان حين يتحدث عن هذا الفعل يذكر عدة روايات فيقول ما نصه [قال الفراء

---

(١) جزء ثالث صفحة ٧٨ ،

(٢) جزء خامس صفحة ١٢٥ .

(٣) حزء ١٥ صفحة ٣٦ .

أهل الحجاز وطيئ يقولون فاظت نفسه ، وقضاعة وتميم وقيس يقولون فاضت نفسه مثل فاضت دمعته . وقال أبو زيد وأبو عبيدة : فاظت نفسه بالظاء لغة قيس وبالضاد لغة تميم . وروى المازنى عن أبى زيد أن العرب تقول : فاظت نفسه بالظاء إلا بنى ضبة فإنهم يقولون بالضاد] .

فهذه مناظرة أخرى بين صوت رخو وهو الظاء ونظيره الشديد وهو الضاد، ولكن الرواة لا يكادون يستقرون على أمر فى نسبة الصيغتين . ويظهر من مجموع ما قالوا أن «الضاد» تنتمى إلى بيئة تميم البدوية ، وأن الظاء تنتمى لبعض من قيس ممن تأثروا بالبيئة الحجازية ، أو لأهل الحجاز أنفسهم كما يقول الفراء ، أى أن رواية أبى زيد هى أقرب الروايات إلى الصحة . ويؤيد ما نذهب إليه قول صاحب المخصص(١) حين تحدث عن «الضرورى» أى انتفخ بطنه من الطعام ، [إنه قد حكى عن أبى عمرو «اطرورى» بالطاء ، ورواية أبى زيد «اظرورى» بالظاء وأبو عمرو ثقة وأبو زيد أوثق منه ، وقد سألت عنه بعض فصحاء الحجاز فوافقوا أبا زيد] .

فهذه مناظرة أخرى بين الضاد والظاء ، وفيها تنسب الظاء لأهل الحجاز ، مما يرجح لنا ميل البيئة الحجازية المتحضرة للأصوات الرخوة .

ومن مظاهر اضطراب الروايات فى كتب اللغة والأدب أن تنسب صفة خاصة من صفات اللهجات لشعب عظيم يتكون من عدة قبائل ، ثم فى موضع آخر تنسب له صفة أخرى مناقضة للأولى .

ونحن نقف أمام تلك الروايات المتناقضة حيارى لا ندرى أيها نصدق ، وبأيها نأخذ ! ولكننا إذا نظرنا إلى تلك المجموعة من القبائل وجدنا بعضاً منها قد تأثر بيئة بدوية والبعض الآخر يبدو تأثره ببيئة حضرية . فعلينا فى مثل هذه الحالة أن ننسب الصفة إلى ما يناسبها من قبائل ذلك الشعب العظيم ، مهتدين بتلك القاعدة العامة التى قررناها ، وهى أن ظواهر اللهجات فى القبائل البدوية تخالف إلى حد كبير ظواهرها فى القبائل المتحضرة التى عاشت فى المدن . فمثلا تنسب الروايات صفة الشدة فى الصوت لليمن دون تعيين قبيلة فيها ، ثم فى موضع آخر تنسب صفة الرخاوة لقبائل يمنية أيضاً ، فواجب الباحث المدقق أن يقسم قبائل اليمن إلى بدوية وحضرية ، ثم ينسب الشدة للبدوية منها ، والرخاوة للحضرية .

---

(١) جزء خامس صفحة ٨٠ .

وبذلك نستطيع بقدر الإمكان التوفيق بين تلك الروايات المتناقضة :

(١) فمثلا روى أن «السين» تقلب «تاء» فى لهجة اليمن ، فيقولون «النات» فى «الناس» ، و «لبات» بدلا من «لاباس» . ثم يروى الرواة شاهداً من الرجز :

ياقاتل الله بنى السعلات عمرو بن يربوع شرار الناتِ

غير أعفّاء ولا أكياتِ

فنحن هنا أمام شعب عظيم من القبائل تنسب له صفة خاصة من صفات اللهجات وهى قلب صوت رخو إلى نظيره الشديد . فعلينا أن نبحث فى مثل هذه الحالة عن أى قبائل اليمن تلك التى مالت إلى البداوة ، أو عاشت قريبة من الصحراء، فنجد أن أقرب قبائل اليمن إلى البداوة قبيلتان مشهورتان هما : خثعم ، وزبيد . وعليه فلا بأس من نسبة هذه الصفة إلى هاتين القبيلتين بين قبائل اليمن.

أما المبرر الصوتى لانقلاب «السين» «تاء» فهو هين واضح ، لأنهما يكادان يكونان متماثلين فى المخرج ، كما أن كلا منهما صوت مهموس ، ولم يبق إذاً إلا أن يلتقى طرف اللسان بأصول الثنايا العليا التقاء محكما به ينحبس النفس حتى إذا انفصلا انفصالا مفاجئاً سمع ذلك الصوت الانفجارى الذى نسميه بالتاء ، فى حين أنه فى حالة النطق بالسين نلحظ أن انحباس النفس لا يكون محكما ، بل هناك فراغ ضيق بين طرف اللسان وأصول الثنايا العليا ليتسرب منه الهواء .

(ب) كذلك روى أن قبائل اليمن من ينطقون «بالجيم» شديدة لا رخاوة فيها، أى تماثل تلك الجيم الشائعة فى اللهجة القاهرية الحديثة . فإذا قارنا بين «الجيم» اليمنية والجيم الفصيحة كما وصفت فى القراءات وجدنا فرقاً من ناحيتين : الأولى أن «الجيم» اليمنية أكثر شدة ، والثانية أن مخرج «الجيم» اليمنية هو أقصى الحنك ، ولكن مخرج «الجيم» الفصيحة هو وسط الحنك .

فما حدث فى نطق اليمنيين «للجيم» هو انتقال المخرج إلى الوراء قليلا ، وانحباس النفس معها انحباساً كاملا ، رغم احتفاظ كلا الصوتين بصفة الجهر .

حقاً إن «الجيم» الفصيحة تعد صوتاً أقرب إلى الشدة منها إلى الرخاوة ، ولكن «الجيم» اليمنية قد كملت شدتها ، وذلك من صفات البيئة البدوية .

وقد نسبت هذه «الجيم» أيضاً لبعض قبائل طئ وهم كما نعرف من البدو الذين عاشوا فى بعض نواحى نجد .

وإذا كان علينا أن نتخير من قبائل اليمن من نرجح نسبة مثل هذه الصفة إليه ، لم نجد خيراً من قبيلتى : خثعم ، وزبيد.[1]

٤ - الميل إلى جهر الأصوات أو همسها :

فى مثل تلك الصحراء الشاسعة الخالية من مظاهر المدنية ، قد يفنى الصوت فى جو لا آخر له ، إذ يتحدث الناس غالباً فى العراء وقد افترشوا الغبراء والتحفوا بالسماء ، وليس هناك من حائل يصد موجات الصوت أو يركزها ، بل تنساب الأصوات فى محيط الفضاء تخفى فيه الأصوات فلا تكاد تبين أو تتضح .

ولا شك أن الأصوات المجهورة أوضح فى السمع ، تتلقاها الأذن فى مسافة عندها قد تخفى نظائرها المهموسة .

لهذا كان من المعقول ، بل ومن المشاهد أن البيئات المتمدينة التى تتحدث بين جدران المنازل ، والتى لا ترى داعياً لوضوح الصوت بنسبة أكبر مما يتطلبه السامع القريب ، تميل عادة إلى همس الأصوات .

ولقد دعت الحضارة منذ القدم ، بل ودعت آداب الإسلام إلى خفض الصوت ، مما ترتب عليه أن شاعت الأصوات المهموسة فى البيئة العربية المتحضرة : قال تعالى : «واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» ، وقال : «لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى» ، وقال : «إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى» وقال تعالى يخاطب الأعراب «ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض» ، فكل هذه الآيات الكريمة تدعو الناس ولاسيما البدو منهم إلى خفض الصوت . وروى أن رجلا من بنى العنبر من تميم جاء إلى النبى وأخذ ينادى عليه بصوت مرتفع أجش فنزل قوله تعالى : «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون» .

ومما لاحظه المحدثون من علماء الأصوات أن النساء بصفة خاصة يملن إلى همس الأصوات وهو ما يتفق وطبيعتهن .

«فالسين» عند الحضريين قد ينطق بها «زايا» عند البدو ، «والتاء» عند الحضريين قد ينطق بها «دالا» عند أبناء البدو ... وهكذا . هذا إلى أن الأصوات المهموسة تتطلب جهداً أكبر فى التنفس ، مما لا يتفق وطبيعة البدوى الهادئ

(١) انظر لمؤلف بحث قضية الجيم في بحوث مؤتمر مجمع اللغة العربية سنة ١٩٦٢ ، ص.١٠٧

الوادع الذى يقصد فى كل حركاته وسكناته . فما تحتاجه عبارة مثل «سكت شخص» من تنفس حين النطق بها أكثر مما تحتاجه عبارة مثل «زرع رجل» لأن كل أصوات العبارة الثانية مجهورة ، فى حين أن كل الأصوات الساكنة فى العبارة الأولى مهموسة .

ولا شك أن البيئة الصحراوية التى تنتشر فيها الأصوات فى مسافة شاسعة لايعوقها عائق ، ولايحول دونها حائل ، تتطلب الميل إلى توضيح الأصوات بطرق عدة من بينها الجهر بالصوت ليصبح أكثر وضوحاً فى أذن السامع . لهذا نلحظ أن لهجات القبائل البدوية تميل إلى جهر بعض الأصوات ، فى حين أن غيرها من قبائل الحضر تبقى على همسها :

(أ) فمثلا روى عن هذيل أنهم يقلبون فى لهجاتهم «الحاء» «عيناً» ، فيقولون مثلا «اللعم الأعمر أعسن من اللعم الأبيض» ، أى اللحم الأحمر أحسن من اللحم الأبيض ! وبلهجتهم روى أن ابن مسعود قرأ «عتى» فى «حتى» ، فأرسل إليه عمر رضى الله عنه أن القرآن لم ينزل بلغة هذيل فأقرئ الناس بلغة قريش ! . ومثل هذه الرواية عن عمر بعيدة الاحتمال لأنها تناقض التيسير فى القراءات القرآنية ، كما تخالف ما رمى إليه الحديث الشريف «أنزل القرآن على سبعة أحرف» ، إلا إذا أراد عمر أن ينهى ابن مسعود عن إرغام القرشيين على القراءة بغير ما يستطيعون، وما تميل إليه ألسنتهم ، وذلك بإملاء لهجة من اللهجات عليهم كلهجة هذيل فى هذه القراءة .

وقد سمى القدماء هذه الظاهرة الصوتية فحفحة هذيل .

على أننا نشك فى نسبة هذه الظاهرة لهذيل : وذلك لما نعرفه عن اتصال هذيل ببيئة الحجاز اتصالا تجلى فيما رواه صاحب كتاب الأصنام من أنه كان لهذيل صنم على الساحل يسمى «مناة» وهو الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم فى قوله : «ومناة الثالثة الأخرى» . وكانت قريش تقدس هذا الصنم مع هذيل ، كما كانت هذيل تقدس «هبل» صنم قريش . هذا إلى قرب مساكنهم من الحجاز واحتمال تأثرهم بلهجات تلك البيئة . بل إن التسمية نفسها لتحملنا على الشك فى وصف القدماء لهذه الظاهرة ، فكلمة «الفحفحة» إذا نظر إليها فى ضوء مصطلحات الكشكشة والعجعجة ، نرى أن الحرف الثانى فى كل من هذين المصطلحين هو الحرف المقلوب إليه . وكان مقتضى هذا أن يكون معنى «الفحفحة» قلب العين إلى الحاء لا العكس . فلو أن هذه الظاهرة وصفت لنا على أنها قلب العين إلى الحاء

لأمكن القول إن قبيلة هذيل المتأثرة ببيئة حضرية قد قلبت صوتاً مجهوراً وهو العين إلى نظيره المهموس وهو الحاء . فنحن بين أمرين: إما أن نفسر الفحفحة على أنها قلب العين إلى الحاء ، أو نغير نسبتها لهذيل وننسبها إلى قبيلة أخرى بدوية مثل تميم .

ومما يبعث على الشك فى نسبة هذه الرواية إلى ابن مسعود أنه روى عنه ما يفيد عكس ظاهرة الفحفحة - ، أى قلب العين إلى حاء فى قوله تعالى : [قالوا نعم] قرأ ابن مسعود [قالوا نحم](١) .

أما قراءته [إذا بعثر ما فى القبور] إذا بحثر ، فسببه يرجع إلى أن الثاء المهموسة قد أثرت فى العين وجعلتها مهموسة أيضاً . وحين تهمس العين تصبح حاء .

ويربط بعض الدارسين من المحدثين بين كلمة «حتى» التى قيل إن ابن مسعود قرأها «عتى» وبين الكلمة «عدى» الموجودة فى بعض اللغات السامية وفى العربية الجنوبية القديمة ، وكذلك الكلمة العبرية «عد» بمعنى حتى .

فالحاء تقابل العين ، والتاء تقابل الدال ؛ أى إننا أمام صورتين لكلمة واحدة إحداهما تشتمل على صوتين مهموسين والأخرى تشتمل على نظيرهما من المجهورات . وحينئذ يمكن تفسير هذا على أن الصورة المشتملة على المهموسات صورة حضرية وأن الأخرى صورة بدوية .

ولا تكون هناك ظاهرة عامة تدعى الفحفحة ، بل إن الأمر لا يعدو أن يكون مثلا واحداً أو كلمة واحدة رويت بصورتين .

(ب) نسب القدماء لتميم وقيس عيلان ظاهرة صوتية سموها «العنعنة» وهى قلب الهمزة المبدوء بها «عيناً» ! وأنشد يعقوب :

فلا تلهك الدنيا عن الدين واعتمل   لآخرة لابد عن ستصيرها

وقال ذو الرمة :

أعن ترسمت من خرقاء منزلة   ماء الصبابة من عينيك مسجوم

أراد الشاعر فى البيت الأول «لابد أن» ، وفى البيت الثانى «أ أن ترسمت» .

---

(١) الهمع جـ ٢ ص ٧٦ .

وقد جاء فى رواية نسبت إلى الفراء قال :

إن بنى تميم وقيس وأسد ومن جاورهم يجعلون ألف «أن» إذا كانت مفتوحة «عيناً» فيقولون :

أشهد عنك رسول الله

فإذا كسروا رجعوا إلى الهمزة !

فنحن نرى من هذه الروايات أنها جميعاً تجمع على قلب الهمزة المبدوء بها إلى «عين» ، ثم قيد هذا فى رواية الفراء بأن تكون الهمزة مفتوحة ! ومثل هذا الاضطراب فى الرواية ليس له من سبب سوى أن استقراء الرواة لأمثلة هذه الظاهرة الصوتية كان ناقصاً ، وأن الأمر فى كل رواية لا يعدو أن يكون حكما خاصاً مبنياً على مثل خاص سمعه الراوى دون استقراء لبقية الحالات . فاشتراط البدء بالهمزة ، أو أن تكون مفتوحة ليس له ما يبرره من الناحية الصوتية . وإنما الذى يبدو أن يكون أقرب إلى الاحتمال هو أن هذه القبائل وكلها من البدو كانت تميل إلى الجهر بالأصوات لتجعلها واضحة فى السمع ، أيا كان موضعها من الكلمة ، وبأية حركة تحركت .

ويحسن إذاً أن نعد هذه الظاهرة محاولة للجهر بالصوت ؛ لأن الهمزة ليست من الأصوات المجهورة أو المهموسة ، إذ مخرجها المزمار نفسه ، ولا عمل للوترين الصوتيين معها . وقد وصفناها قبلا بأنها من الأصوات الشديدة إن لم تكن أشدها ، وأن أهل البادية يحققونها فى لهجاتهم . فحين يبالغ فى هذا التحقيق ويراد أن تكون أوضح فى السمع ، يستبدل بها أحد الأصوات الحلقية القريبة منها مخرجاً وصفة ، وأقرب أصوات الحلق إليها هو «العين» ؛ لأن «العين» صوت مجهور ، وهو أقرب أصوات الحلق المجهورة للهمزة مخرجاً .

ويؤيد ما نذهب إليه أن هذه الظاهرة لا تزال شائعة فى بعض اللهجات الحديثة التى تتاخم الصحراء . وقلب الهمزة «عيناً» فى هذه اللهجات غير مقيد بالبدء بها ، أو كونها محركة بحركة خاصة .

فنحن نسمع حتى الآن فى كل مدن تهامة من يقولون [عالة] بدلا من [آلة] ، [العمام] بدلا من [الإمام] .

ومن أمثلة العنعنة التى رواها الأصمعى فى وسط الكلمة [دأم الحائط =

دعمه] ، [التأرض للشيء = التعرض له] ، وفى آخر الكلمة [كثأ اللبن = كثع][1] .

ويظهر أن هذه الظاهرة لا تعدو أن تكون أقصى مراحل التحقيق للهمز . انظر إلى قول صاحب تهذيب اللغة[2] [ومن تحقيق الهمز قولك يا زيد من أنت كقولك «من عنت» ، فإذا عدلت الهمزة إلى التخفيف قلت يا زيد من أنت فكأنك قلت «مننت» لأنك أسقطت الهمزة من أنت وحركت ما قبلها بحركتها] .

ويدل هذا على أن تحقيق الهمز كانت له صور مختلفة ، فقد قال الأزهرى : «ومن تحقيق الهمز» ؛ أى أن هذا نوع معين من التحقيق وصفه لنا مكتوباً بالعين ، فكأن الهمزة حين يبالغ فى تحقيقها تصبح عيناً .

ويقول ابن دريد إن بنى تميم عندما يحققون الهمزة يجعلونها عينا[3] .

فلتسهيل الهمز مراحل : سقوطها من الكلام ، ثم قلبها إلى حرف مدّ ، ثم تسهيلها بما يسمى بين بين .

ولتحقيق الهمز مراحل : أن ينطق بها النطق المألوف لنا ، ثم أن ينطق بها شبيهة بالعين .

وقد ذكرنا آنفاً أن الهمزة مالت إلى التسهيل فى اللهجات الحضرية ، ومالت إلى التحقيق فى اللهجات البدوية :

(١) فأهل المدينة كانوا يقولون «بدينا» بدلا من «بدأنا» ، وكانوا يقولون «لَحْمر» بدلا من «الأحمر» .

(٢) وبينما يقول أهل الحجاز «جبريل» ، يقول بنو تميم «جبرئيل» .

(٣) وقراءة الكوفة «أئمّة» بهمزتين ، فى حين أن أكثر القراء ولا سيما الحجازيين منهم «أيمة» .

(٤) كانت عقيل البدوية تهمز [الجؤنة والمؤسى والحؤت] بدلا من النطق الشائع بغير همز .

(٥) «السودّد» الشرف ، وقد تهمز وتضم الدال أى «السؤدُد» وهى لغة طئ كما يقول الأزهرى .

---

(١) أمالي القالي جـ ٢ ، ص ٧٩ .

(٢) جزء ١٨ ، ص ١٤٣ مخطوط .

(٣) الجمهرة ، جـ ١ ، ص ٢٣٧ .

(٦) هناك قصة يسوقها أصحاب المعاجم ، ويشتم منها أن النبى صلعم كان لا يهمز أحياناً . فقد جاء باللسان فى مادة «دفأ» ما نصه : [أدفأت الرجل إدفاء إذا أعطيته عطاء كثيراً ، والدفء العطية ، وأدفأت القوم أى جمعتهم حتى اجتمعوا ، والإدفاء القتل فى لغة بعض العرب . وفى الحديث أنه ﷺ أتى بأسير يرعد ، فقال للقوم اذهبوا به فأدفوه ، فذهبوا به فقتلوه ، فوداه رسول الله ﷺ ، أراد الإدفاء من الدفء وأن يدفأ بثوب ، فحسبوه بمعنى القتل فى لغة أهل اليمن(١)] .

أما أن الرسول من قريش وأن لهجة قومه كانت تميل إلى تسهيل الهمز ، فهذا مما لا جدال فيه . ولكنا نتردد قليلا أمام هذه الرواية ، ونسائل أنفسنا كان صلى الله عليه وسلم يلجأ أحياناً إلى الحديث بلهجات الخطاب ، أم كان يلتزم فى كلامه تلك اللغة النموذجية التى ألفناها فى الآثار الأدبية والقرآن الكريم ؟

يبدو أنه صلى الله عليه وسلم كان يسمو بكلامه فوق المستوى العام لقومه ، فقد أوتى من الفصاحة فى القول والبلاغة فى الأسلوب ما لم يؤت غيره ، حتى يمكن أن يقال إنه كان فى الذروة إذا قيس بمن حوله من فصحاء قريش ، فكان لاينطق إلا بسحر القول ورائع البيان ، وكان مزوداً بفيض ربانى جعله أقدر العرب على التعبير بما شاء تعبيراً سامياً تنزه عن صفات اللهجات ، وخلا من كل ما ينم عن بيئة معينة . فقد سيطر على اللغة الأدبية النموذجية سيطرة تامة ، وملك زمامها حتى أصبحت له وحده لغة سليقة ، لا يعمد إليها عمداً ولا يتكلف القول بها، بل تنساب إليه عباراتها انسياباً ، وتواتيه منقادة إلية كلما هم بطلبها . فكيف مع هذا يروى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قد نطق بقول فيه صفة من صفات لهجة قومه وهى تسهيل الهمز ؟

ولكن العظماء يتنزلون أحياناً إلى مستوى الناس فى خطابهم ، ويتبسطون معهم فى الحديث ، ويخاطبونهم على قدر مستواهم اللغوى ، وهو ما كان يقوم به صلعم فى القليل من الأحيان حين يفد إليه جماعة من البدو ليكلموه ، ويشرح إلى العامة من الناس أمور دينهم ، حينئذ نستطيع أن نتصور أنه صلى الله عليه وسلم كان يعود إلى سليقته الأولى وهى لهجة قريش ، فيخاطبهم بصفاتها ، ويشتمل كلامه على بعض من خصائصها .

---

(١) ينسب صاحب المخصص هذه اللغة لجهينة .

وليس يعقل أنه صلى الله عليه وسلم كان على علم تام بكل خصائص اللهجات العربية القديمة بحيث يكلم كل قبيلة بحسب لهجتها ، ولكنه لكثرة تجوابه وأسفاره كان يعرف القليل من صفات تلك اللهجات ، أو بعبارة أدق المشهور من تلك اللهجات : فإذا وفد عليه جماعة من قبيلة اشتهرت بأمر معين فى لهجتها ، كان يلتمس شيئاً مما يعرفه عن تلك اللهجة ، ويخاطبهم بها تأليفاً لقلوبهم وتنزلا إلى مستواهم ، ولاتكاد تعدو مثل هذه المعرفة عبارات مشهورة تستعمل فى التحية أو الترحيب ، أو كلمات معينة لا يعرفون غيرها فى لهجات كلامهم . لا نستطيع إذاً أن نتصور أنه كان يعرف دقائق تلك اللهجات ، وخصائص كل لهجة معرفة الدارس لها ، والواقف على كل شئونها . فلم يكن هذا من مهمة الرسل ، ولم يكن هذا ينتظر منه مع وجود اللغة المشتركة الأدبية التى نزل بها القرآن الكريم والتى كانت القبائل تتطلع إلى مستواها ، ويعمل الخاصة منهم على إتقانها .

فإذا تصورنا أن الذين أتوا له بالأسير كانوا من العامة وأنه صلى الله عليه وسلم رأى أن يخاطبهم على قدر مستواهم ، فكيف تأتى أن يخاطبهم ، وهم من اليمن على رأى قوم أو من جهينة على رأى آخرين ، بصفة من صفات لهجة قريش ؟

إن الحادث وملابساته وما صحبه من المفاجأة برجل ذليل مسكين يرتعد فرقاً ، لما يجعل صاحب الرسالة ذات القلب الشفيق الرحيم ، يتأثر بمنظره وينطلق من فوره متحدثاً بسليقته الأولى التى ألفها ونشأ عليها قبل الرسالة وهى لهجة قريش ، فكأنما قد نسى فى مثل هذا المجال سليقته الثانية وهى اللغة النموذجية المشتركة . أو يقال إن العظيم حين يريد التنزل إلى مستوى المخاطب لا يخاطبه بصفات من لهجة هذا المخاطب ، وإنما يخاطبه بصفات من لهجة هذا العظيم : ولتصوير هذا نفترض أن وزيراً مصرياً يزور بعض جهات الصعيد فى مصر ، وقد صادفه فى تجواله جماعة من الناس من أهالى تلك الجهات ، فأراد أن يتبسط معهم فى الحديث ، نراه حينئذ ينطق مثلا بالقاف همزة كما تعود هو النطق بها فى لهجة القاهرة ، رغم أنه يسمعهم ينطقون بها «جيما» غير معطشة . ولا يلجأ مطلقاً فى مثل هذا المجال إلى القاف الفصيحة ، التى قد تظهره بمظهر المتعالى عليهم ، أو البعيد عن مستواهم .

نخلص من كل ما تقدم إلى أن البدوى كان يميل فى نطقه إلى الأصوات المجهورة لأنها أوضح فى السمع ، وتنسجم مع بيئته وطبيعته .

على أن الأمر ليس مقصوراً على المقارنة بين المجهور ونظيره المهموس فى نسبة الوضوح السمعى . فقد نجد صوتين مجهورين ولكن أحدهما أوضح فى السمع من الآخر ، أو صوتين مهموسين وأحدهما أوضح فى السمع من المهموس الثانى ، هنا أيضاً نلحظ أن البدو بوجه عام يميلون إلى المجهور الأكثر وضوحاً ، أو إلى المهموس الأكثر وضوحاً . فإذا قارنا النون والياء وجدناهما مجهورين وعرفنا أن الياء أوضح فى السمع من النون . ولهذا لا ندهش أن تروى لنا الكلمة بالياء منسوبة لقبيلة بدوية ، وبالنون منسوبة للحضر . فكلمة «إنسان» قد روى لنا أنها نطق بها «إيسان» عند طئ البدوية .

كذلك إذا قارنا بين صوتين مهموسين ووجدنا أحدهما أوضح فى النطق من الآخر ، تصورنا أن الكلمة حين تشتمل على المهموس الأكثر وضوحاً فى السمع تنتمى إلى بيئة بدوية مثل :

«تلثم» عند تميم ، وعند غيرهم «تلفم» بالفاء ؛ وكذلك «الأثافى» روى أن بنى تميم كانوا ينطقون بها «الأثاثى» .

ولا شك أن الثاء أوضح فى السمع من الفاء رغم أنهما مهموسان .

٥ - التأثر بالأصوات المتجاورة :

تحدثنا آنفاً عن ظاهرة الأصوات المتجاورة وتأثير بعضها فى بعض ، وأن مثل هذا يشيع فى البيئات البدوية بصفة خاصة ، فى حين أن البيئة الحضرية تعمل على تحقيق الأصوات ، وتحول عادة دون تأثرها بعضها ببعض فى أثناء النطق .

ولعلّ خير مثل يساق لتوضيح هذه الظاهرة ما روى لنا من أن «الميم» قد تقلب إلى «باء» حين تكتنفها فى الكلمة الواحدة أصوات مجراها الفم ، وأن «الباء» قد تقلب إلى «ميم» حين يكتنفها أصوات مجراها الأنف . وقد نسب الرواة لهذه الظاهرة لقبائل معينة فى حديث طويل يتلخص فيما يلى :

(أ) روى أن بعض القبائل العربية كانوا يقلبون فى لهجاتهم «الميم» إلى «باء» و «الباء» إلى ميم ! وقد ينسب الرواة هذه اللهجة إلى «مازن» من ربيعة ، كما نسبت إلى بكر بن وائل وهى من قبائل ربيعة كذلك . ثم يروون قصة طريفة لابأس من إيرادها هنا ، وهى :

«روى المبرد أن بعض أهل الذمة قصد أبا عثمان المازنى إمام الصرفيين فى زمانه ليقرأ عليه كتاب سيبويه ، وبذل له مائة دينار فى تدريسه إياه ، فامتنع أبو عثمان من ذلك . قال فقلت له : جعلت فداك ، أترد هذه المنفعة ، مع فاقتك وشدة إضافتك !؟ فقال : هذا الكتاب يشتمل على ثلثمائة وكذا وكذا آية من كتاب الله عز وجل ، ولست أرى أن أمكن منها ذمياً غيرة على كتاب الله وحمية له . قال فاتفق أن غنت جارية بحضرة الواثق بالله بقول العرجى :

أظلوم إن مصابكم رجلا   أهدى السلام تحية ظُلم

فاختلف من كان بالحضرة فى إعراب «رجلا» ، فمنهم من نصبه ومنهم من رفعه ، والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازنى لقنها إياه بالنصب . فأمر الواثق بإشخاصه . قال أبو عثمان فلما مثلت بين يديه ، قال : ممن الرجل ؟ قلت من بنى مازن . قال : أى الموازن ، أمازن تميم أم مازن قيس أم مازن ربيعة . قلت مازن ربيعة . فكلمنى بكلام قومى وقال : «با اسمك» ؟ لأنهم يقلبون الميم باء والباء ميما ! قال فكرهت أن أجيبه على لغة قومى كيلا أواجه بالمكر ! فقلت بكر يا أمير المؤمنين ! ففطن لما قصدته وأعجب به . ثم قال : ما تقول فى قول الشاعر : ظلوم إن مصابكم رجلا ؟ أترفع رجلا أن تنصبه ؟ فقلت : بل الوجه النصب يا أمير المؤمنين . فقال : ولم ذلك ؟ فقلت إن مصابكم مصدر بمعنى مصدر بمعنى إصابتكم فأخذ اليزيدى فى معارضتى ، فقلت هو بمنزلة قولك : إن ضربك زيداً ظلم ، والدليل عليه أن الكلام يعلق إلى أن تقول : «ظلم» فيتم . فاستحسنه الواثق وقال : هل لك من ولد ؟ فقلت : نعم ، بنية يا أمير المؤمنين . قال : ما قالت لك عند مسيرك ؟ فقلت أنشدت قول الأعشى :

أيا أبتا لا ترمْ عندنا   فإنا بخير إذا لم ترمْ

أرانا إذا أضمرتك البلا   د تجفى وتقطع منا الرحم

قال : فما قلت لها ؟ قال قلت قول جرير :

ثقى بالله ليس له شريك   ومن عند الخليفة بالنجاح

قال : علىّ النجاح إن شاء الله تعالى ، ثم أمر لى بألف دينار وردنى مكرما . قال المبرد : فلما عاد إلى البصرة ، قال لى كيف رأيت يا أبا العباس ، رددنا لله مائة فعوضنا ألفاً» .

نحن هنا أمام رواية غريبة لا تبررها القوانين الصوتية . فليس هناك لهجة من لهجات اللغات فى العالم تلتزم قلب كل ميم إلى باء والعكس ، لأنها عملية متناقضة لا مبرر لها . بل يكون من المغالاة أن نفترض أن لهجة من اللهجات تلتزم قلب أحد هذين الصوتين إلى الآخر .

حقاً أن هناك علاقة صوتية بين «الميم» و «الباء» إذ كلاهما صوت شفوى ، ولكن مثل هذه العلاقة وحدها لايكفى مبرراً لمثل هذه الظاهرة . نعم إن من لهجات العالم ما تتضمن شيئاً من هذه الظاهرة ، وذلك حين نلحظ قلب «الميم» «باء» فى بعض المواضع ، أو «الباء» «ميما» فى مواضع أخرى ، ولكن هذا مقيد بوجود «الميم» أو «الياء» فى مواضع خاصة من الكلمات ، وأن تكتنفها أصوات خاصة تساعد على هذا الانقلاب .

فليست المسألة قاعدة مطردة فى كل «ميم» وفى كل «باء» .

فنحن فى تحقيق هذه الرواية بين أمرين :

١ – إما أن نشطرها شطرين . الشطر الأول وهو قلب الميم باء ، والشطر الثانى هو قلب الباء ميما ، ثم ننسب كل شطر إلى قبيلة خاصة أو لهجة خاصة .

٢ – أو ألا ينسب هذه الظاهرة ببيئة خاصة ، وإنما ننظر إليها على أنها مما يعرض للأصوات من تطور وتغير .

وعلى الرأى الأول وهو نسبة شطر من هذه الظاهرة إلى لهجة خاصة نرى أن القبيلة التى يمكن أن يشيع فيها قلب «الميم» «باء» ، قبيلة من القبائل البدوية التى تميل إلى الأصوات الشديدة ، والتى لم تتأثر بعنصر أجنبى عن اللغة العربية ، لأن «الباء» تختلف عن «الميم» فى شيئين : أحدهما أن «الباء» صوت شديد ، وثانيهما أن مجرى النفس معها من الفم ، فى حين أن مجرى النفس مع «الميم» من الأنف ، وأنها من الأصوات المتوسطة الشبيهة بأصوات اللين أى ليست بالشديدة ولا الرخوة .

أما الشطر الثانى وهو قلب «الباء» «ميما» فهو انتقال من صوت شديد إلى صوت متوسط هو أحد الأصوات المائعة "Liguids" ، وربما كان هذا مما ينسب إلى بيئة بدوية أخرى .

والموازن كما اتضح لنا من القصة السابقة ثلاثة : مازن ربيعة ، ومازن تميم ومازن قيس .

وعلى هذا يمكن أن ننسب لمازن ربيعة قلب «الباء» «ميما» ، وأن ننسب لمازن تميم أو قيس قلب «الميم» «باء» .

على أنه حتى فى هذا يجب ألا يعد هذا الانقلاب بمثابة ظاهرة مطردة ، نجدها فى كل «ميم» وفى كل «باء» ؛ بل يكفى أن نقول إن مازن ربيعة كانوا يقلبون «الباء» «ميما» فى بعض المواضع ، وإن مازن تميم كانوا يقلبون «الميم» «باء» فى بعض المواضع أيضاً ، وبشروط خاصة فى كل من الحالين ، وإلا ترتب على اطراد مثل هذه الظاهرة أن نجد لهجة من اللهجات العربية خالية من الميمات أو الباءات !

وعلى الرأى الثانى وهو الراجح فيمكن أن نفسر هذه الظاهرة على أنها لاتختص بقبيلة ما ، وإنما قد صادف أن سمعها بعض الرواة من قوم من مازن [أيا كانت مازن هذه] فننسبها إليها ، ثم جرى المؤلفون بعده على هذا ، دون تحقيق أو نظر فى صحة هذه الرواية .

والحقيقة أن مثل هذه الظاهرة مما يمكن أن ينسب إلى أية لهجة من اللهجات المنعزلة ، لا على أنها مطردة بل مقيدة بشروط خاصة .

وهذه الظاهرة ليست إلا نتيجة أخطاء الأطفال فى البيئة المنعزلة التى لايجد فيها الطفل فرصة كافية لإصلاح أخطائه ، فيشب عليها وتصبح فيما بعد نطقاً جديداً فى جيله .

فلنتصور بيئة منعزلة اجتماعيا أو غير مستقرة على حال ، لا يجد فيها الأطفال من رعاية الآباء ما يستحقونه ، وذلك لانشغال الرجال بأمور الحرب أو السفر فى تجارة زمناً طويلا ، كما أن النساء منصرفات عن أبنائهن بشئون الحياة العسيرة الشاقة ، ولا يجدن من الوقت مع ماهن فيه من مشقة وعسر ، ما يكفى للنظر فى شئون أطفالهن والتحدث إليهم حديثاً هادئاً وادعاً يصلح من نطقهم ويرشدهم إلى طريق الصواب .

هنا نرى الأطفال ، ولما تكمل مراحل نطقهم ، يلازم بعضهم بعضاً ، ويتحدث بعضهم إلى بعض ، ونرى الطفل الكبير فيهم يأخذ مكان الأم أو الأب فى تعليم الآخرين والتأثير فى نطقهم . فإذا شب هذا الجيل الجديد احتفظ فى لهجته

ببعض أخطاء الطفولة التى تصبح فيما بعد عنصراً معترفا به فى لهجتهم ، وظاهرة من ظواهرها ، وتلك هى سنة التطور اللغوى . فما كان يعدّ بالأمس خطأ تنفر منه الآذان أصبح اليوم صوابا فى جيل جديد من المتكلمين .

وليست تقتصر أخطاء الأطفال على ما يتعلق «بالميم» «والباء» ، بل هى أعم من هذا وأشمل ، ولها ظواهر كثيرة تحدثنا عن بعضها آنفاً .

فما يعرض «للميم» أو «الباء» فى أخطاء الأطفال ليس إلا مثلا منها . ومما أيدته تجارب المحدثين من علماء الأصوات أن الأطفال عامة يميلون إلى قلب أى صوت من أصوات الفم إلى نظيره من أصوات الأنف فى بعض الأحيان ، كما أنه قد يحدث العكس عند الأطفال قبل أن تتم مراحل نمو لغتهم . لأن الطفل فى نطقه يتلمس أيسر الطرق ، وما لا يكلفه جهداً عضلياً . وهو لهذا لا يميل إلى الجمع بين صوتين أحدهما مجراه الأنف «كالميم» و «النون» والآخر مجراه الفم كبقية الأصوات . ولهذا يميل إلى جعل مجرى الصوتين اللذين من هذا النوع ، إما من الفم فقط ، أو الأنف فقط .

لهذا قد نسمع بعض أطفالنا فى المراحل الأولى يقولون فى «تين» «نين» . ففى هذا المثال جهر الطفل أولا «بالتاء» فأصبحت «دالا» ثم جعل مجرى الدال من الأنف فصارت «نوناً» . كما قد نسمع بعض أطفالنا يقولون فى «موز» «بوس» فقد قلبت الميم هنا إلى نظيرها من أصوات الفم وهو «الباء» . ومثل هذا يمكن أن يقال فى نطق بعض أطفالنا للكلمات الآتية :

دبّان ، جمل ، بلكونة ، بنطلون

على الأوجه الآتية بالترتيب :

دمّان ، جبل ، ملتونة ، منطلون

فإذا شب الأطفال فى بيئة غير مستقرة ، ولم يجدوا من يصلح لهم مثل هذه الأخطاء ، فقد تصبح الكلمات الأخيرة مستعملة فى لغتهم مقبولة فى جيلهم ، تكوّن عنصراً جديداً فى اللغة .

فمن المحتمل أن بعض كلمات اللغة العربية التى اشتملت على «ميم» أو «باء» ، قد تعرضت لمثل هذه الظاهرة من أخطاء الجيل الناشئ فى قبيلة من القبائل . فلما جاء جامعو اللغة وسمعوا القبيلة تنطق «بالميم» فى بعض الكلمات حيث ينطق غيرها بها «باء» ، ظنوا أن تلك القبيلة تلتزم هذه الصيغة فى كل

الكلمات ، وكذلك العكس حين سمعوا قبيلة تنطق «باء» فى بعض الكلمات حيث ينطق غيرها بهذه «الباء» فى تلك الكلمات «ميما» ، ظنوا أن من القبائل العربية من يلتزمون قلب «الباء» «ميما» وهكذا .

وبمثل هذا الشرح يمكن أن ننظر إلى جميع الكلمات العربية المشتركة المعانى والأصوات ، والتى لا فرق بينها سوى أن مكان «الميم» فى بعضها ، «باء» فى البعض الآخر ، أو أن مكان «الباء» فى بعضها ، «ميم» فى البعض الآخر . مثل :

قامطة = قاطبة • كمخ = كبح

الطمش = الطبش • ثلبه = ثلمه

(ب) أما الظاهرة الثانية التى توضح تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض فهى ما سماه الرواة بالكشكشة أو الكسكسة .

فقد أجمع الرواة على نسبة صفة خاصة لقبائل ربيعة سموها أحياناً بالكشكشة وحيناً آخر بالكسكسة . ثم اختلفوا فى تبيانها ، فقالوا مرة إنها قلب كاف المؤنثة شيناً أو سيناً فى حالة الوقف ، وفى موضع آخر قالوا إن هذه «الشين» أو «السين» لا تحل محل كاف المؤنثة ، وإنما تلحق بها فى حالة الوقف . وضربوا لهذه الظاهرة أمثلة من نثر وشعر فقالوا :

منش = منك • عليس = عليك

ورووا لشاعر هذا البيت مخاطباً به الظبية :

فعيناش عيناها وجيدش جيدها ولكن عظم الساق منش دقيق

وحكى بعضهم أنه سمع أعرابية تقول لجاريتها :

ارجعى وراءش فإن مولاش يناديش

ثم زعم بعض الرواة أن الكاف مطلقاً سواء كانت لمؤنث مذكر تقلب سيناً فى لهجة ربيعة فيقولون :

منسَ = منك

كما نسب بعض الرواة قلب الكاف مطلقاً إلى شين فى لهجة من لهجات اليمن . وقد سمع بعضهم فى عرفة يقول :

«لبيش اللهم لبيش»

وسموا هذه الظاهرة بشنشنة اليمن . ثم زعم الرواة فى مواضع أخرى أن الكشكشة فى لهجة ربيعة هى أن يقفوا على الكاف المؤنثة بزيادة «شين» فيقولون مثلا : «استجرت بكش» .

وقال آخرون إن ما ينسب إلى ربيعة هو «الكسكسة» فيقفون على الكاف مطلقاً بزيادة «سين» !! ونقل الحريرى أن «الكسكسة» لبكر لا لربيعة ، وقصرها على زيادة «السين» فى حالة المؤنثة فقط . وفى موضع آخر نسبت هذه الصفة لتميم أو أسد ... إلخ .

ألا ترى معى أننا هنا أمام روايات متناقضة لما يبدو كظاهرة واحدة ؟!

ونحن حين ننظر إلى هذه الروايات على ضوء القوانين الصوتية نستطيع أن نستخلص أموراً :

١ – يظهر أن «الكسكسة» التى تنسب لربيعة ليست إلا «الكشكشة» بالشين ، وقد رويت مصحفة ، فلا يعقل أن كلا من «الكشكشة» و «الكسكسة» يمكن أن ينسب إلى قبيلة واحدة هى ربيعة .

٢ – أن ظاهرة الكشكشة أو الكسكسة مقيدة بكاف مكسورة ، لما سنذكره فيما بعد .

٣ – ليست الكشكشة أو الكسكسة مقيدة بحالة الوقف ، وإنما تصادف أن الكاف فيما روى من أمثلة كانت فى آخر الكلمة أو الجملة .

٤ – لابد فى الكشكشة أو الكسكسة أن تحل «الشين» أو السين محل الكاف ، ليمكن أن تعد هذه الظاهرة من ظواهر اللهجات ؛ إذ ليس هناك ما يبرر أن تتصل الكاف بصوت آخر فى حالة الوقف ، بل الأقرب إلى القوانين الصوتية وطبيعة اللهجات أن يحل صوت محل آخر ، لما سنذكره من الأسباب .

٥ – أن ما خيل للقدماء أنه «شين» ليس «شيناً» خالصة كتلك التى نعهدها ، وماظنوه «سيناً» ليس كالسين التى نألفها .

الآن وقد جردنا هذه الروايات مما قد لحق بها من تشويه ، علينا أن نشرح هذه الظاهرة على حقيقتها فى ضوء ما تقرره طبيعة الأصوات وقوانينها .

وصل العلماء فى مقارنتهم اللغة السنسكريتية باللغتين اليونانية واللاتينية إلى قانون صوتى سموه «قانون الأصوات الحنكية» فى أواخر القرن التاسع عشر .

وليس يعنينا هنا شرح هذا القانون شرحاً مسهباً ، وإنما ينبغي الإشارة إلى عنصر منه يلقى ضوءاً على ما نحن هنا بصدده . فقد لاحظوا أن أصوات أقصى الحنك «كالكاف» و «الجيم» الخالية من التعطيش ، تميل بمخرجها إلى نظائرها من أصوات أمامية حين يليها صوت لين أمامى (كالكسرة) ؛ لأن صوت اللين الأمامى فى مثل هذه الحالة يجتذب إلى الأمام قليلا أصوات أقصى الحنك فتنقلب إلى نظائرها من أصوات وسط الحنك أو أصول الثنايا العليا . ولهذا وجدت بعض الكلمات الهندية – الأوربية التى كانت تشتمل على «الكاف» ، قد تطورت فيها هذه الكاف فيما بعد إلى صوت وسط الحنكِ الذى ينطق به كما ينطق الصوت الأول فى الكلمة الإنجليزية "Chicken" أى «تْش» .

وهذا الصوت الذى قد يخيل إلى بعض السامعين أنه مكون من صوتين ، ليس فى الحقيقة إلا صوتاً واحداً كما برهنت التجارب الحديثة فى علم الأصوات ، ويسمى المحدثون هذا الصوت وأمثاله "Affricative" . ويتكون هذا الصوت الواحد من عنصرين : أولهما ينتمى إلى الأصوات الشديدة وهو ما يشبه التاء وثانيهما إلى الأصوات الرخوة وهو ما يشبه الشين .

وهذا الصوت هو نفس ما سمعه القدماء فى تلك الظاهرة التى سموها «الكشكشة» ، كما أنه هو الصوت نفسه الذى لا نزال نسمعه فى بعض اللهجات الحديثة بمصر ، مثل لهجة بلدتى شرويدة وزنكلون وما حولهما من مديرية الشرقية ، حين ينطقون بمثل هاتين الكلمتين :

كلب ، كِتاب

ويبرر قلب الكاف إلى هذا الصوت أن يليها كسرة أو فتحة مرققة ، «أى صوت لين أمامى» يجتذب مخرجها إلى وسط الحنك . كذلك لا نزال نسمع هذه اللهجة فى بعض جهات العراق وفلسطين وسوريا ولا سيما بين البدو .

فالذين رووا هذه الظاهرة بين اللهجات العربية القديمة وقصروها على قلب كاف المؤنثة إلى «شين» كانوا أقرب الجميع إلى الصواب ، لأن الكثرة فى كاف المؤنثة هى العامل الأساسى فى هذا الانقلاب . أما جعلها فى آخر الكلمة وقصرها على كاف الخطاب فى حالة الوقف ، فليس له ما يبرره من الناحية الصوتية .

فالكشكشة التى عاشت فى بعض اللهجات العربية القديمة ليست إلا ظاهرة لغوية ، شوهدت فى كثير من لهجات العالم ، وهى قلب الكاف التى يليها صوت لين أمامى ، أيا كان موضعها فى الكلمة ، إلى نظيرها من أصوات وسط الحنك .

وقد روى هذا فى غير كاف المؤنثة فى بعض الأشعار القديمة مثل :

علىّ فيها أبتغى أبغيش بيضاء ترضينى ولا ترضيش

وتطّبى ود بنى أبيش إذا دنوت جعلت تنئيش

وإن نأيت جعلت تدنيش وإن تكلمت حثت فى فيش

حتى تنقى كنقيق الديش

وقد جهد الرواة يتحايلون بالتأويل والتخريج ليبرروا قوله «حتى تنقى كنقيق الديش» أى كنقيق الديك ، لأن هذه الكاف ليست للمؤنثة !

وليس شنشة اليمن إلا كشكشة ربيعة . ويجب نسبة هذه الظاهرة إلى القبائل اليمنية البدوية ، وإلى تلك القبائل من ربيعة التى توغلت فى البداوة كبكر ابن وائل.

أما الكسكسة فهى أن تقلب «الكاف» حين تليها الكسرة أو الفتحة المرفقة إلى «تْس» . ولا نكاد ندرى شيئاً مؤكداً عن بيئتها قبل الإسلام ، بل حين نبحث عنها فى اللهجات العربية الحديثة لا نكاد نعثر على أثر لها ، إلا فى لهجة نجد ، فقد سمعت بعض النجديين ينطقون كلمة «عسكرى» قائلين «عستْسرى» .

والدليل على أن السبب الأساسى فى ظاهرة الكشكشة هو وجود كسرة وفتحة مرفقة بعد الكاف ، أننا لا نسمع الصوت «تْش» حين تكون الكاف مضمومة، فلا يقول أصحاب هذه اللهجة من المصريين فى «كمّ النور» مثلا «تْشُم النور» إلا إذا كسروا الكاف وقالوا «تْشِم النور» .

والذى يجعلنا نرجح أن ما سمعه الرواة ليس «شينا» وإنما هو «تْش» ، شيوع هذه الظاهرة فى اللهجات العربية الحديثة على صورة «تش» . ولا يعقل أنها كانت فى اللهجات القديمة «شيناً» ثم تطورت فى اللهجات الحديثة إلى «تْش» ، فليس مثل هذا مما يبرره التطور الصوتى . ولو قد روى لنا أن اللهجات القديمة كانت تنطق «تش» ، ثم رأينا اللهجات الحديثة تنطق بها «شيناً» ، لقبلنا هذا واعتبرناه تطوراً .

وهكذا ترى أننا نلتمس من اللهجات الحديثة تفسيراً لبعض الظواهر فى اللهجات القديمة .

٦ - الميل إلى التفخيم أو الترقيق :

يبدو أن القبائل البدوية بوجه عام قد مالت إلى أصوات التفخيم ، واشتهر

هذا عنهم فاستمسكوا بهذه الظاهرة فى نطقهم وتعصبوا لها ، فى حين أن القبائل الحضرية أو المتأثرة بالحضر قد آثرت الأصوات المرققة . ويتضح هذا مما روى لنا عن ظاهرة مشهورة سماها الرواة بالعجعجة ، كما يظهر هذا بجلاء فى معظم ماروى عن موقف كل من البيئتين حيال الأصوات المطبقة :

(أ) اشتهر بين صفات اللهجات العربية ظاهرة أطلق عليها القدماء اسم «العجعجة» . وقالوا عنها إنها قلب الياء جيما .

وتعدّ هذه العملية الصوتية انتقالا بصوت لا هو بالشديد ولا الرخو ، أو فيه بعض الرخاوة وهو «الياء» ، إلى صوت آخر أميل إلى الشدة منه إلى الرخاوة وهو «الجيم» . ولعل هذه الظاهرة من صفات القبائل البدوية التى حرصت على تفخيم «الياء» فصارت «جيما» .

وقد نسب القدماء هذه الصفة إلى شعب عظيم هو قضاعة . ولكنا نعلم أن قضاعة قد تفرعت إلى سبعة أحياء .

بلى . جهينة . كلب . عدرة . بهراء . بنونهد . جرم

وبين هذه الأحياء السبعة من تأثروا بالحياة الحضرية ، كما أن بينهم من عاشوا عيشة البداوة . وحير من يمكن نسبة هذه الصفة إليه من أحياء قضاعة :

جهينة أو جرم

فالعجعجة لم تكن فى الحقيقة صفة كل أحياء قضاعة ، وإنما يحتمل أنها كانت صفة هذين الحيين فقط .

وقد قيد الرواة عجعجة قضاعة بأن تسبق «الياء» «بالعين» !! وضربوا أمثلة لهذا مثل :

«الراعج خرج معج» أى «الراعى خرج معى» .

ويظهر أن «الياء» فيما ساقوه من أمثلة لم تكن فى نطق القضاعيين ياء مدّ ، بل كانت صوتاً ساكناً ؛ أى إنه كان ينطق بها «الراعىْ» ، حتى يمكن أن نتصور قلبها إلى جيم .

وقد نسبت هذه الصفة أيضاً إلى «فقيم دارم» فى قبيلة تميم ، وهو ما يؤيد ما نذهب إليه من احتمال وجود هذه الصفة بين البدو من القبائل . ولم تقيد هذه الصفة بأى قيد حين نسبت إلى «فقيم دارم» ، فقد أنشد أبو زيد :

يارب إن كنت قبلت حجتجْ فلا يزال ساجح يأتيك بجْ

وقال الحماسى :

خالى عويف وأبو علجْ المطعمان الضيف فى العشجْ

أما العلاقة بين الياء والجيم من الناحية الصوتية فواضحة جلية ، لأن كلا منهما صوت مجهور ، ومخرجهما واحد ، وإنما تختلف الجيم عن الياء فى أن الأول صوت أقرب إلى الشدة منه إلى الرخاوة ، فى حين أن الياء من الأصوات المتوسطة الشبيهة بأصوات اللين ، وليست بشديدة ولا رخوة أو فيها بعض الرخاوة.

وربما قد التجأت تلك القبائل إلى الانتقال بالصوت من صفة اليسر إلى صفة الغسر قصد التفخيم فى الكلام ، وهو ما لا نستطيع تصوره إلا بين قبائل البدو.

علينا بعد هذا أن ننظر إلى ذلك القيد الذى قيدت به لهجة قضاعة ، وهو أن تسبق الياء بالعين !!

فى الحق أنه ليس لهذا القيد ما يبرره من الناحية الصوتية ، اللهم إلا أن يقال إن كلا من العين والياء من الأصوات المتوسطة فى رأى علماء مخارج الحروف من العرب ، وتفخيم القول يقتضى أن يقلب أحدهما إلى نظير له شديد ، فكانت الجيم بدل الياء .

ولكن لم كانت العين وحدها دون بقية الأصوات المتوسطة الأخرى من ميم وراء ولام ؟! هذا ما لا نستطيع الإجابة عنه الآن لنقص معرفتنا بكل طبائع اللهجات العربية القديمة .

(ب) أصوات الإطباق أصوات مفخمة ، لها رنة قوية فى الآذان ، مما يلائم طباع البدو وخشونتهم ، فلا عجب إذاً أن تشيع تلك الأصوات فى لهجات البدو ، وأن تأخذ فى الانقراض من ألسنة المتحضرين .

واللغة العربية بصفة عامة قد مالت فى تطورها إلى التخلص من أصوات الإطباق ، أى الصاد . الظاء . الضاد . الطاء . إذْ نسبة شيوع هذه الأصوات فى الأسلوب القرآنى ضئيلة جداً . فنسبة شيوع الصاد ٨ مرات فى كل ألف من الأصوات الساكنة ، والضاد ٦ مرات ، والطاء ٤ مرات ، والظاء ٣ مرات ، فى حين أن صوتاً كالنون مثلا نسبة شيوعه مثلا حوالى ١١٢ مرة فى كل ألف من

الأصوات الساكنة .

وقد مالت اللهجات الحديثة إلى التخلص من هذه الأصوات فى معظم المواضع . ولقد روى عن تميم أنهم كانوا يقلبون «السين» «صاداً» مع بعض الأصوات المفخمة كأصوات الإطباق ، وكذلك مع القاف والغين والخاء إذا كنّ بعد «السين» مثل :

سراط = صراط . سخر لكم = صخر لكم

سيقل = صيقل . سبغة = صبغة

ونحن حين نستعرض أشهر الروايات التى جاءت بالمعاجم عن موقف اللهجات القديمة من حروف التفخيم ، نراها تكاد تنحصر فى أمور ثلاثة :

١ - الصاد والسين :

فقد روى أن بنى العنبر من تميم كانوا ينطقون بكلمة «الساق» قائلين «الصاق» . وبنو العنبر ممن توغلوا فى البداوة ، ومالوا إلى تفخيم الأصوات . فإذا قارنا هذه الرواية بما روى فى مكان آخر عن كلمة «الصقر» ، وأن لها نطقاً آخر غير منسوب هو «السقر» ، أمكننا أن نقسم هذه الظاهرة إلى نوعين : النوع الأول هو أن بعض الكلمات كان ينطق بها بين البدو مشتملة على صوت تفخيم ، وينطق بها فى الوقت نفسه بين الحضر مشتملة على نظيره المرقق . وقد عاش النطقان جنباً إلى جنب قبل الإسلام مثل : الساق والصاق . أما النوع الثانى فهو أن الكلمة لم يكن لها قبل الإسلام سوى نطق واحد ورد فى نصوص أدبية موثوق بها ، ثم تطورت بعد الإسلام وأصبح لها نطق آخر سمعه الرواة حين جمعوا اللغة . فالصقر هو النطق القديم لهذه الكلمة ثم تطورت الصاد فى بيئة حضرية وأصبحت «سيناً» .

ولا شك أن ما ورد فى اللسان من قوله : [الصماخ من الأذن الخرق الباطن الذى يفضى إلى الرأس تميمية ، والسماخ لغة فيه ... وسمخه سمخاً أصاب سماخه فعقره ، ولغة تميم الصمخ] ، يعتبر من النوع الأول ، أى أن «الصماخ» بالصاد كانت تستعمل فى بيئة بدوية ، جنباً إلى جنب مع «السماخ» بالسين فى بيئة حضرية .

أما ما روى عن الصراط والسراط ، فيظهر أن الأصل هو النطق بالصاد بدليل ورودها فى القرآن الكريم بالصاد ، ثم تطورت حتى شاع فيها نطق آخر بالسين . فليس الأمر كما ظن بعض الرواة من أن السين هى الأصل . جاء فى

اللسان : [والسراط السبيل الواضح والصراط لغة فى السراط ، والصاد أعلى لمكان المضارعة وإن كانت السين هى الأصل ، وقرأها يعقوب بالسين . قال الفراء : ونفر من بنى العنبر يصيرون السين إذا كانت مقدمة ثم جاءت بعدها طاء أو قاف أو غين أو خاء صاداً] . ولسنا نوافق صاحب هذه الرواية على أن الأصل فى الكلمة بالسين ، ولكنا نوافقه على أن نطقها بالصاد أفصح ، لأنه الذى ورد فى القرآن الكريم ، وأخذ به معظم القراء . وكلام الفراء عن لهجة بنى العنبر صحيح فى جملته ، ولكنه لا يمت لهذه الكلمة بصلصة ، بل ينطبق على مثل «الساق» «الصاق» . أما قول صاحب اللسان بعد هذا : [إن النطق بالصاد لغة قريش الأولين التى جاء بها الكتاب ، وعامة العرب تجعلها سيناً] ، فيجب ألا يؤخذ دليلا على أن النطق بالصاد مما ينتمى للهجة قريش . وذلك لأن ورودها فى القرآن بالصاد لا يقوم دليلا قاطعاً على أنها أيضاً لهجة قريش ، فهناك فرق بين لهجة قريش واللغة النموذجية المشتركة التى نزل بها القرآن الكريم ، ولكن الرواة قد درجوا على اعتبارهما شيئاً واحداً . الأمر الذى نتردد فى قبوله الآن .

ويشبه هذا ما حدث لكلمة أخرى هى حسب رواية اللسان [وقد صخب بالكسر يصخب صخباً ، والسخب لغة فيه ربعية قبيحة] . فالأصل هو الصخب ثم تطورت الكلمة وصارت بالسين فى بعض قبائل ربيعة التى تأثرت ببيئة الحيرة ، ولكن النطق «بالسخب» قد اقتصر أمره على منطقة صغيرة وبين قوم مغمورين ، ولذلك عده الرواة قبيحاً ، أما النطق «بالسراط» فقد شاع بين القبائل ، وجاء جامعو اللغة فوجدوه مشهوراً مألوفاً بل وجدوا من القراء من يقرأ القرآن به ولذلك لم يجعلوه فى مستوى النطق «بالسخب» .

بقى بعد هذا أن نسوق ما جاء فى اللسان مبرهناً على أن «السين» قد ينطق بها صاداً حين يكتنفها أصوات معينة قال : [وصقوب الإبل أرجلها لغة فى سقوبها حكاها ابن الأعرابى قال : وأرى ذلك لمكان القاف ، وضعوا مكان السين صاداً لأنها أفشى من السين وهى موافقة للقاف فى الإطباق ليكون العمل من وجه واحد، قال وهذا تعليل سيبويه فى هذا الضرب من المضارعة] . أليس هذا هو ما سميناه آنفاً بالمماثلة أو تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض ؟ غير أنا لا نتفق مع صاحب اللسان حين يزيد على هذه الرواية قوله : [ومنه حديث علىّ عليه السلام أنه كان إذا أتى بالقتيل قد وجد بين القريتين حمل إلى أصقب القريتين إليه أى أقربهما ، ويروى الحديث بالسين ، بل نرجح الرواية الثانية للحديث أى بالسين ،

لأن صاحب الحديث من قريش فهو ممن تأثروا بالبيئة الحضرية أكثر من تأثره بالبدو .

٢ – الطاء والتاء :

فقد كانت القبائل البدوية تؤثر الطاء أحياناً ، جاء فى اللسان [وأفلطنى الرجل إفلاطاً مثل أفلتنى ، وقيل لغة فى أفلتنى تميمية قبيحة] . وجاء فى المخصص[1] [وقد أبدلت الطاء من التاء فى «فعلت» إذا كانت بعد حرف من حروف الإطباق قال وهى لغة تميم قالوا «فحصط برجلك» يريدون فحصت] .

٣ – القاف والكاف :

ويستخلص من روايات المعاجم أن البيئة البدوية كانت تؤثر القاف ، فى حين أن البيئة الحضرية قد آثرت الكاف . جاء فى اللسان قشط الجلّ عن الفرس قشطا نزعه وكشفه وكذلك غيره من الأشياء ، قال يعقوب : تميم وأسد يقولون قشطت بالقاف ، وقيس تقول كشطت ، وليست القاف فى هذا بدلا من الكاف لأنهما لغتان لأقوام مختلفين] . وجاء فى المخصص[2] [كشطتت عن جلده وقشطت ، قال أبو عبيدة : قريش تقول كشطت ، وتميم وأسد وقيس تقول قشطت] .

فموقف «قيس» من هذه الظاهرة غامض بعض الغموض ، ولكن المناظرة بين تميم وقريش فى رواية صاحب المخصص توضح لنا بجلاء أن المقارنة كانت بين بيئتين : إحداهما بدوية والأخرى حضرية ، وأن يعقوباً فى رواية صاحب اللسان قد قصد «بقيس» بعض القبائل الحجازية .

وقد بين لنا يعقوب فى كلامه أن هناك فرقاً بين نطقين عاشا جنباً إلى جنب فى بيئتين مختلفتين ، وبين أن يتطور نطق عن آخر أصلى . وهكذا نرى أن من الرواة القدماء من فطنوا إلى ما ندعو إليه هنا من التفرقة بين الكلمات التى تروى بروايتين ، فقد شاع لبعضها نطقان قبل الإسلام وفى صدر الإسلام واختصت البيئة البدوية بأحد النطقين ، واختص الحضر بالنطق الآخر وعاش النطقان فى زمان واحد ولكن فى بيئتين مختلفتين ولا ندرى الأصل منهما أو الفرع . وهناك كلمات أخرى ذات نطقين ولكن أحدهما يعتبر الأصل ، ويعتبر الآخر تطوراً له .

---

(١) جزء ١٣ صفحة ٢٧٠ .

(٢) جزء ١٣ صفحة ٢٧٧ .

- ٥ -

السرعة فى النطق

تميل القبائل البدوية إلى السرعة فى نطقها ، وتلمس أيسر السبل ، فتدغم الأصوات بعضها فى بعض ، وتسقط منها ما يمكن الاستغناء عنه دون إخلال بفهم السامع . ولا شك أن حياة السكينة والهدوء فى البادية لا تتطلب نشاطا كذلك الذى قد تحتاج إليه حياة الحضر ، لما بها من صخب وأمور دنيوية معقدة تدفع بالمرء إلى حل تلك المشاكل التى كثيراً ما تعترض الحضرى بحكم بيئته ، وخضوعه لنظام من الحكم متعدد القوانين . ولا يستطيع المرء أن يشق طريقه بنجاح فى حياة الحضر إلا بأن يظهر نشاطاً فى عمله ، وأن يلقى جهداً فى موارد رزقه . أما البدوى الذى يقنع بالقليل ، ويخلد إلى السكينة والهدوء فحياته مليئة بالتراخى ، وبما يشبه الكسل حتى فى نطقه . فهو يقتصد فى الجهد العضلى وفى التنفس ، ويميل إلى الاختصار فى القول ، لا يكاد يبدأ الكلام حتى ينتهى منه ؛ لهذا كله صبغت لهجات البدو بصفات صوتية خاصة تخالف لهجات الحضر .

ولذلك نلحظ فى البيئة البدوية أنه حين يلتقى صوتان أحدهما مجهور والآخر مهموس ، يتأثر أحدهما بالآخر ليصبح الصوتان إما مجهورين أو مهموسين. ويغلب على اللغة العربية أن يتأثر الصوت الأول بالثانى ، فإذا كان الأول مجهوراً والثانى مهموساً أصبح الصوتان مهموسين . فإذا روى لنا أن من اللهجات العربية لهجة يقول أصحابها فى «اجتمعوا» «استمعوا» ، أدركنا أن الأمر هنا لايعدو أن يكون قلب «الجيم» المعطشة إلى صوت مهموس ، وذلك لتأثرها «بالتاء» بعدها فأصبح الصوتان بهذا مهموسين . وإذا قيل لنا إن من القبائل من يقلبون «الصاد» حين يليها «دال» إلى «زاى» مطبقة كما فى «أصدق» ، يصدقون» ،علمنا أن المسألة لا تزيد على أن تكون تأثر الصوت الأول المهموس بالثانى المجهور فأصبح الصوتان مجهورين ، وهذا هو التأثر الرجعى . أما التأثر التقدمى وهو الذى يتأثر فيه الصوت الثانى بالأول فهو قليل الشيوع بين اللهجات العربية ، رغم أن النحاة قد جعلوه قياساً فى صيغة «افتعل» ، حين تصاغ من

بعض الأفعال التى فاؤها صوت مجهور أو مطبق : مثل ازدان واصطبر ... إلخ[1] .

ويكفى دليلا على قلة شيوع هذا النوع من التأثر ، أن النحاة قد قصروه على أفعال خاصة ، يعرضون لها دائماً فى كتبهم ، ولا تطرد هذه الظاهرة فى كل فعل فاؤه صوت مجهور . ومع ذلك فقد روى لنا أن بعضاً من تميم يقولون فى «معهم» «محّم» . ويدل هذا على أن تلك الطائفة من تميم قد أسكنوا أولا «العين» من كلمة «معهم» ، فالتقت العين والهاء ، وبما أن «العين» صوت مجهور «والهاء» صوت مهموس ، تأثرت العين بالهاء فقبلت إلى نظيرها المهموس وهو الحاء ، وهذا تأثر رجعى شاع فى اللهجات العربية ، ثم لم يقف الأمر عند هذا ، بل تأثر الصوت الثانى وهو الهاء بالأول وهو الحاء تأثراً كاملا ، وفنيت الهاء فى الحاء وصارت الكلمة «محّم» ، وهذا هو التأثر التقدمى النادر فى اللغة العربية . فهذا المثال الذى روى لنا عن بعض من تميم قد مر فى دورين : أحدهما شائع بين اللهجات والآخر نادر .

هذا .. وقد رويت لنا بعض لهجات غير منسوبة لأصحابها ، منها عرفنا أن التأثر التقدمى قد لعب دوراً هزيلا فى اللهجات العربية : فقد قيل لنا إن من القبائل العربية من كانوا يقولون فى «اجتمعوا» «اجدمعوا» ، وفى «الكعبة» «الجعبة» . ففى المثل الأول اجتمعت «الجيم» وهى مجهورة بالتاء وهى مهموسة فتأثر الصوت الثانى بالأول وأصبح الصوتين مجهورين ، وفى المثل الثانى اجتمعت اللام وهى مجهورة بالكاف وهى مهموسة ، فتأثر الثانى بالأول وأصبح الصوتان مجهورين .

وقد نسب الرواة صفة الشذوذ لمثل هذه اللهجات ، وأنكروا عليها الفصاحة ، لأن الغالب الشائع فى التأثر العربى هو ذلك النوع الذى نسميه بالتأثر الرجعى .

والتأثر ، أيا كان نوعه ، مما يميل إليه البدو لأن فيه اقتصاداً فى الجهد العضلى .

على أن أظهر نتائج السرعة فى النطق ، هو سقوط بعض الأصوات من الكلمات فى أثناء النطق بها .

ويعد هذا أيضاً من مظاهر الاقتصاد فى الجهد العضلى ، أو إن شئت فسمه كسلا ، ولكنه على كل حال يحقق الغرض بين المتكلم والسامع ، ولا يخل بهدف

---

(١) انظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ١٢٨ الطبعة الثانية.

الكلام وهو الفهم ، فقد ينطق البدوى دون تمهل فى نطقه ودون انتظار لنهاية الكلمات ، فتصدر عنه الكلمات مبتورة الآخر . وهو لايحفل بهذا لأن كل ما يرمى إليه . وإفهام السامع ، وقد وصل إلى غرضه مع اقتصاد فى الجهد وبطريقة أيسر وأسرع . وهذا هو السر فيما روى لنا من ترخيم النداء ، وفى تلك اللهجة التى سماها القدماء قطعة طئ . ولا بأس أن نورد هنا طرفاً من تلك الروايات التى ظهر فيها سقوط بعض الأصوات نتيجة السرعة فى النطق :

١ – روى أن قبيلة طئ كانت تميل إلى قطع اللفظ قبل تمامه فيقولون «ياأبا الحكا» ويريدون يا أبا الحكم . وهذه الصفة تشارك الترخيم فى أنها حذف آخر الكلمة ، إلا أن الحذف فى الترخيم وارد على آخر الاسم المنادى ، أما هنا فقد يرد على أى كلمة ، اسماً كانت أو فعلا ، منادى أو غير منادى . وقد روى القدماء البيت الآتى مثلا لقطعة طئ .

درس المنزل بمتالع أبان ... فتقادمت بالحيس والسريان

(أى المنازل)

كما رووا قول الشاعر :

يصل منه إبلى بالهوجل ... فى لجة أمسك فلاناً عن فلى

(أى عن فلان)

(٢) ذكر القدماء فى معايب اللخلخانية فى لهجة الشحر وعمان أنهم قد مالوا إلى حذف بعض الأصوات ، فكانوا يقولون فى «ما شاء الله» «مشا لله» !

(٣) روى أن قبيلتى خثعم وزبيد من قبائل اليمن ، كانوا يميلون إلى حذف نون «من» الجارة إذا وليها كن فيقولون «خرجت مِلْمسجد» !

وقال شاعرهم :

لقد ظفر الزوار أقفية العدا ... بما جاوز الآمال ملأسر والقتل

(٤) روى أن بعضاً من ربيعة كانوا يسقطون نون «اللذين» و «اللتين» وعليه قول الفرزدق :

أبنى كليب إن عمتى اللذا ... قتلا الملوك وفككا الأغلالا

وقول الأخطل :

هما اللتا لو ولـدت تمـيمٌ　　　لقيل فخر لهمُو صمـيمُ

هذا ولا ندرى كيف وقعت مثل هذه الصفات اللهجية فى شعر الأخطل والفرزدق ، مع ما نعرف من عرض كل منهما على النظم باللغة النموذجية الأدبية ؟! اليس من الممكن أن يكون بيت الفرزدق كما يلى :

أبنى كليب إن عمّيا اللذينْ　　　قتلا الملوك وفككا الأغلالا

أى أن يروى الشطر الأول منتهياً بما يشبه نون الترنم ، ولا أظن أن الأذن الموسيقية تلحظ حينئذ انحرافاً فى وزن البيت .

كذلك يمكن أن يروى بيت الأخطل رواية أخرى تنسجم مع صفات اللغة الأدبية التى نظم بها الشعراء فى كل العصور ، ولا تشذ فى الوقت نفسه عن مقاييس الشعر العربى .

على أن هذه الصفة قد نسبت أيضاً إلى قبيلة بلحارث من قبائل اليمن .

(٥) نسب إلى قبيلة بلحارث حذف اللام والألف من «على» الجارة إذا وليها ساكن ، فيقولون (ركبت علْفرس) أى على الفرس .

(٦) روى أن بعضاً من ربيعة كانوا يقفون على المنصوب المنون بالسكون فبدل أن يقولون «رأيت محمداً» يقولون «رأيت محمدْ» .

(٧) روى أن قبيلة طئ كانت توثر الوقف على تاء جمع المؤنث السالم بقلبها «هاء» . وقد سمع بعضهم يقول : «دفن البناه من المكرماه» أى «البنات من المكرمات» ؟!

وليست هذه الظاهرة فى الحقيقة قلب صوت إلى آخر ، بل هى حذف الآخر من الكلمة . وما ظنه القدماء «هاء» متطرفة هو فى الواقع امتداد فى التنفس حين الوقوف على صوت اللين الطويل ، أو كما يسمى عند القدماء ألف المد . وهى لظاهرة نفسها التى شاعت فى الأسماء المؤنثة المفردة ، التى تنتهى بما يسمى بالتاء المربوطة ، فليس يوقف عليها بالهاء كما ظن النحاة ، بل يحذف آخرها ، ويمتد التنفس بما قبلها من صوت لين قصير (الفتحة) ، فيخيل للسامع أنها تنتهى بالهاء .

ولقد تطورت تاء التأنيث فى اللغات السامية على مراحل ليس هنا مجال تفصيلها ، وإنما يمكن الإشارة إليها فيما يلى :

(أ) الأصل فى علامة التأنيث هو التاء المتطرفة ، وقد ظلت على حالها فى الفعل الماضى وجمع الإناث فى اللغة العربية .

(ب) تطورت فى الأسماء المؤنثة المفردة إلى حال وسطى ، وهى : النطق بها تاء فى حالة الوصل ، وحذفها فى حالة الوقت .

(حـ) الطور الثابت لهذه العلامة هو حذفها مطلقا وصلا ووقفاً فى كل اسم مفرد مؤنث ، وقد شاع هذا الطور الأخير فى معظم اللغات السامية كالعبرية وفى اللهجات العربية الحديثة ، فحين نسمع كلمة مثل «الشجرة» فى لهجات الكلام الآن يخيل إلينا أن التاء المربوطة قد قلبت «هاء» ، والحقيقة أنها حذفت من النطق ، وامتد التنفس مع صوت اللين قبلها فسمع كالهاء .

وعلى هذا فإذا روى لنا أن من القبائل من كانوا يقفون على هذه التاء المربوطة «بالتاء» ، مثل أولئك الذين سمع عنهم من قال «يا أهل سورة البقرتْ» فأجابه آخر «ما أحفظ منها آيتْ» . فليس هذا إلا احتفاظاً بالأصل فى ظاهرة التأنيث .

وقد احتفظت بعض اللهجات العربية الحديثة بهذا الأصل . وامتداد التنفس الذى يخيل للسامع أنه هاء متطرفة هو فى الحقيقة ما سماه القدماء بهاء السكت. وإننا حين نستعرض أحكام هاء السكت كما شرحها النحاة ، نراها تنحصر فى الوقف على الكلمة التى تنتهى بصوت لين طويل كما فى مثل «البناه والمكرماه» ، أو صوت لين قصير كما فى الوقت على الاسم المفرد المؤنث بعد حذف تاء التأنيث منه ، وكما فى الوقف فى الفعل المجزوم بحذف حرف العلة ، وما الاستفهامية .

والغالب الشائع فى اللغة العربية أن تلحق هاء السكت أصوات اللين القصيرة (أى الحركات) بشرط أن تكون جزءاً من بنية الكلمة . وعلى هذا لا تلحق هاء السكت حركة الإعراب ، لأنها لا تلزم صورة واحدة كحركات البناء[1] .

نرى كل هذا فى البيئة البدوية ، ولا نكاد نعثر على مثله فى البيئة الحضرية التى تتطلب الدقة فى معظم مظاهرها الاجتماعية ، ومن بينها اللغة .

(١) انظر تفاصيل الوقف وكتاب «أسرار اللغة» للمؤلف صفحة ١٤٢.

فالحضرى يعنى بتخير لفظه ، وحسن أدائه ، ويعمد إلى نطق كل صوت دون تداخل بين الأصوات . فالمجهور يظل مجهوراً ، والمهموس يحافظ على همسه ، لأن من مظاهر التحضر اللباقة فى القول وحسن النطق ومراعاة قواعده ، وذلك هو ما شاع فى البيئة الحجازية على العموم ، وفى مكة بصفة خاصة .

فلا غرابة أن وصفت قريش بالفصاحة ، ونسب إليها الإحكام فى النطق وحسنه . ولا غرابة أيضاً أن أتخذت اللغة العربية التى نظم بها الشعر ، ونزل بها القرآن الكريم ، كثيراً من صفاتها الصوتية من البيئة الحجازية ، أو بعبارة أدق من لهجة قريش ؛ فتكونت منها اللغة النموذجية التى اعتزت بها كل القبائل ولا سيما الخاصة منهم ، وحافظوا على كل أثر أدبى كتب بهذه اللغة .

وليس معنى هذا أن الصفات الصوتية لهذه اللغة الأدبية هى نفسها الصفات الصوتية للهجة قريش ، وإنما تشترك معها فقط فى الكثير منها .

وتختلف اللغة الأدبية عن لهجة قريش فى القليل من الصفات الصوتية ، كتحقيق الهمزة ، الذى لم يكن شائعاً بين الحجازيين ولكنه يعد أصلا فى اللغة النموذجية التى رويت لنا بها أشهر القراءات ، وقرأ بها أشهر القراء ، وتلقاها الرواة فى عصور التدوين معتزين بآثارها فخورين بخصائصها ، فوضعوا لها القواعد الدقيقة ، وجعلوها الأساس الذى يبنى عليه ويقاس عليه ، وعدّوا ما عداها شاذاً . ولكنهم لسوء الحظ قد خلطوا فيما بعد بين هذه اللغة وما سمعوه من قبائل بدوية تعودت أن تفد إلى مدن العراق ، وتعوّد الرواة أن يرحلوا إليهم . وقد كان الرواة فى الأخذ عن تلك القبائل متأثرين بفكرة خاطئة ، وهى أن كل ما كان يروى عن البادية حتى أواخر القرن الرابع الهجرى يحتج به ويرجع إليه .

-٦-

(لهجات متناثرة)

رويت لنا بعض صفات صوتية للهجات متناثرة فى شبه الجزيرة . وبعض هذه اللهجات منسوبة إلى جهات معينة ، والبعض الآخر لايعرف لها صاحباً ، بل قد رواها الرواة مجهولة النسب ، مبتورة حيناً ومشوهة حيناً آخر . فلا عجب أن قد اعترى تلك اللهجات فى تفسيرها كثير من التحريف أو التصحيف . وسنعرض هنا طرفاً من هذه اللهجات ، دون أن يحاول تحقيق نسبتها إلى قبائلها ، وإنما سنكتفى بشرحها وتحليلها على ضوء ما يقرره علم الأصوات اللغوية :

أولاً : المشهور فى حرف المضارعة للفعل الثلاثى أن يكون مشكلا بالفتح فى كل الحالات ، بهذا جاء القرآن الكريم ، وهذا هو المألوف فى اللغة النموذجية الأدبية . غير أن الرواة يؤكدون لنا أن كثيراً من القبائل تنطق بحرف المضارعة حين يكون «تاء» أو «نونا» أو «همزة» ، مكسوراً فيقولون مثلا «تِعلْم» . وقد جاء فى اللسان(١) : [قال أبو عمرو : وتِعلم بالكسر لغة قيس وتميم وأَسد وربيعة وعامة العرب . وأما أهل الحجاز وقَوم من أعجاز هوازن وأزد السراة وبعض هذيل فيقولون «تَعلم» بالفتح ، والقرآن الكريم عليها . قال وزعم الأخفش أن كل من ورد علينا من الأعراب لم يقل إلا «تِعلم» بالكسر] .

ويبدو من كلام اللغوين أن جميع العرب يلتزمون الفتح ، حين يكون حرف المضارعة «ياء» فيما عدا قبيلة بهراء ، التى عرفت لهجتها بكسر هذا الحرف مع الياء أيضاً ، وقد سميت هذه الظاهرة بتلتلة بهراء . وبهراء هذه قبيلة فى قضاعة وكانت مساكنهم متاخمة لحدود الشام ، فهل تأثرت فى هذه الظاهرة بما جاورها من لغات كالآرامية والعبرية اللتين اطرد فيهما كسر حرف المضارعة ؟

على أن الرواة كعادتهم يأبون إلا أن يسوقوا لنا شواهد من الشعر حتى فى مثل هذه الظاهرة ، التى تنتمى إلى اللهجات ولا تمت للغة الشعر بصلة . فقد قالوا إن أحد الشعراء يقول :

---

(١) جزء ٢٠ صفحة ٢٨٣ .

لو قلت ما فى قومها لم تيْثم   يفضلها فى حسب وميسم

فبدلا من أن يقول «تأثم» كسر حرف المضارعة ، ثم سهلت الهمزة فصار الفعل «تيِم» . ومع هذا لا يصح مثل هذا البيت أن يكون شاهداً على تلتلة بهراء لأن حرف المضارعة هنا «تاء» وليس «ياء» !

هذا مثل آخر يدل على أن الرواة كانوا يتخبطون أحياناً فى وصف لهجات العرب لنا .

ويظهر أن حركة حرف المضارعة قد خضعت فى اللهجات إلى قانون صوتى ، وأنه كان لطبيعة فاء الكلمة أثر فى شكل حرف المضارعة . فحين كانت فاء الكلمة من حروف الحلق ، مال حرف المضارعة إلى الفتح ، أما فى غير ذلك فقد التزم الكسر فى معظم اللهجات .

وحين نستعرض اللهجات العربية الحديثة ، نرى معظمها يلتزم كسر حرف المضارعة ، مما يبرهن على أن هذا هو الذى شاع فى معظم اللهجات القديمة أيضاً . على أننا نلحظ أن بعض اللهجات الحديثة تؤثر الفتح حين يكون فاء الكلمة من حروف الحلق .

ولهذا كله نرجح أن الأصل فى شكل حروف المضارعة هو ما شاع فى لهجات الحجاز من الفتح فى كل الحالات . وقد انحدر هذا الأصل إلى هذه اللهجات من السامية الأولى ، ثم تطور إلى كسر فى معظم اللغات السامية ، غير أن تطوره فى لهجات العرب لم يشمل حالة «الياء» لأن الياء المشكلة بالكسر نادرة الشيوع فى النطق العربى[1] . ولأن الياء مع الكسر أشق منها مع الفتح ، مما قد يتعارض مع حكمة التطور إلى الكسر ؛ لذلك احتفظت معظم القبائل التى تطور فى لهجتها شكل حرف المضارعة ، بفتحه حين يكون «ياء» .

أما بهراء فأغلب الظن أنها تبعت اللغات السامية المجاورة لها .

ثانيا : نسب الرواة لقبيلة حمير أنها كانت تقلب اللام فى أداة التعريف «ميما» ، ورووا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يخاطب بعض الحميريين «ليس من أمبر امصيام فى امسفر» ، وسموا هذا طمطمانية حمير .

ونسب الرواة أيضاً إلى قبائل سعد بن بكر وهذيل والأزد والأنصار أنهم كانوا يقلبون «العين» فى الفعل «أعطى» إلى «نون» فيقولون «أنطى» ، وقد قرئ «إنا

---

(١) انظر أسرار اللغة للمؤلف صفحة ١٧٨ .

أنطيناك الكوثر، وقد سمى الرواة هذه الظاهرة بالاستنطاء .

وفى كل من هاتين الظاهرتين قد قلب صوت من أصوات الفم إلى آخر من أصوات الأنف . وقد تقدم القول إن قلب صوت من أصوات الفم إلى آخر من أصوات الأنف ، أو العكس ، أمر معترف به فى معظم اللهجات ، وأنه فى الغالب نتيجة أخطاء الأجيال الناشئة ، حين يحاولون التوفيق بين مجرى الأصوات ، فيجعلونها إما من الفم أو الأنف فقط .

ولكننا حين نستعرض الأمثلة التى رويت لنا بصدد هاتين الظاهرتين لانكاد نعثر على مبرر صوتى قوى ، كذلك الذى لاحظناه من قبل فى مثل نطق أطفالنا لكلمتى :

«دبّان» و «بلكونة» حين يقلبونهما إلى «دمّان» و «ملتونة» . فكيف تأتى إذاً أن قلبت لام التعريف إلى «ميم» وهما لا يختلفان فى المجرى فحسب ، بل وفى المخرج أيضاً ؟؟! وكذلك كيف تأتى أن قلبت العين إلى نون فى «أعطى» مع اختلافهما فى المجرى والمخرج أيضاً ؟؟

لهذا كله نرجح أن الرواية مبتورة أو ناقصة ، ولا يستطاع الحكم على مثل هاتين الظاهرتين من مثل أو مثلين رددهما الرواة .

وليس هناك ما يمكن أن يبرر هاتين الظاهرتين ، سوى اشتراك «اللام والميم والنون والعين» فى الصفة ، فكل من هذه الأصوات صوت مجهور متوسط لا هو بالشديد ولا بالرخو . على أنه إذا ما أمكن أن نتلمس أسباباً أخرى فى طمطمانية حمير ، فمن العسير أن نبرر استنطاء هذيل فى فعل واحد من بين أفعال اللغة . وليس فى مجاورة العين للطاء أمر غير عادى ، فقد رويت هذه المجاورة فى كثير من الأمثلة ومع هذا فلم ينسب لها استنطاء . فلم اختصت «أعطى» بهذه الصفة ، فى حين أنها لم تنسب لأية كلمة اشتقت من المواد الآتية :

«عطش ، عطس ، عطل ، عطر ، عطن، عطف» ؟!

ويظهر أن الأمر لم يكن مقصوراً على الفعل «أعطى» ، بل يتعلق بنطق كل «عين» سواء وليها «طاء» أو صوت آخر . فلعل من القبائل من كانوا ينطقون بهذا الصوت بصفة خاصة نطقاً أنفمياً ، وذلك بأن يجعلوا مجرى النفس معه من الفم والأنف معاً ، فتسمع العين ممتزجة بصوت النون وليست فى الحقيقة نونا ، بل

هى «عين» أنفميّة[١] . وعلى هذا فيمكن أن يقال إن الرواة قد سمعوا هذه الصفة ممثلة فى الفعل «أعطى» فأشكلت عليهم ، ولم يصفوها لنا على حقيقتها . ويميل بعض المستشرقين إلى أن أنفية العين كانت صفة صوتية ملازمة لها منذ السامية الأولى . ويفسر «رابين» الاستنطاء بأنه لا شأن له بالفعل أعطى ، بل هو فعل سامى آخر معروف فى العبرية هو «نطا» بمعنى مد يده إلى ، وقد زادت عليه الهمزة أى صار على صورة أفعل[٢] .

أما فى حالة طمطمانية حمير فإن أداة التعريف فى اللغات السامية قد رويت حيناً «باللام» كما فى العربية ، وحيناً آخر «بالنون كما فى العبرية . فقد أجمع المستشرقون على أن أداة التعريف العبرية كانت فى الأصل «هن» . واستدلوا بتشديد أوائل الأسماء المعروفة فى اللغة العبرية على إدغام نون «هن» فى الحروف الأولى من الأسماء ، بشرط ألا تكون حروف حلق . فليس بغريب بعد هذا أن تروى أداة التعريف فى بعض اللهجات السامية «بالميم» كما فى طمطمانية حمير ، لأن العلاقة الصوتية بين «اللام والنون والميم» واضحة جلية : فهى أكثر الأصوات شيوعاً فى اللغات السامية ، كما أنها من الأصوات المتوسطة الشبيهة بأصوات اللين. ولهذا كانت من أسبق الأصوات فى نطق الطفل . فهذه الأصوات الثلاثة أصوات قديمة سبقت فى نطق الإنسان الأول غيرها من الأصوات ، وقد استغلت فى ظواهر لغوية متعددة ، فهى أحياناً تعبر عن النفى وأحياناً تفيد التعريف ؛ فهى مجموعة متميزة بين أصوات اللغة يحل بعضها مكان بعض ، وقد تنقلب جميعها إلى أصوات لين طويلة .

ثالثاً : صوت اللين المركب الذى يسميه المحدثون Diphthong ، «قدمرّ فى اللغة العربية فى أدوار ثلاثة : "ai" أو "au" ثم تطور الأول إلى : e والثانى إلى: o وأخيراً صار الاثنان : a

ففى الأفعال المعتلة الآتية :

بان . كان . رمىَ . سما

بدأت أولا على الصور الآتية بالترتيب :

بَيْنَ . كَوْنَ . رَمَيَ . سَمَوَ

Samau Ramai Kauna Baina

---

(١) أنظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ٦٣ .

(٢) Ancient West Arabian . p : 32

ثم صارت :

بَيَنَ . كَوَنَ   رَمِى ، سُمَوَ

Samo : Rame : Ko : na   Be : na

ثم صارت جميعها بألف لين خالصة كما نعهدها الآن . على أن القبائل قد اختلفت فى هذا ، فمنها قبائل احتفظت بالطور الأول ، وأخرى وصلت إلى الطور الثانى ووقفت عنده .

أما الطور الأخير فهو أحدثها وأفصحها لكثرة شيوعه بين القبائل المشهورة ، ولأنه الصفة التى عاشت فى اللغة الأدبية النموذجية ، وهذا هو السر فى الروايات الآتية :

روى أن قبائل بلحارث وخثعم وكنانة تلزم المثنى الألف ، وعلى هذه اللهجة قول القائل :

«قد بلغا فى المجد غايتاها»

وروى أيضاً أنهم كانوا يقلبون كل ياء بعد فتحة ألفاً فيقولون فى «جئت إليك» «جئت إلاك» .

وقد قال الشاعر «طاروا علاهن فطر علاها» ، أى «عليهن وعليها» .

وهذه اللهجة هى الطور الثالث لصوت اللين المركب ، ولهذا تعدّ من أحدث مظاهر اللهجات العربية . إذ يظهر أن الأصل فى المثنى التزام الياء ، ثم تطور هذا إلى الإمالة التى لا تزال شائعة فى معظم اللهجات العربية الحديثة ، وأخيراً صار المثنى بالألف(١) .

وقد اتخذت اللغة النموذجية أحوال المثنى فى لهجات مختلفة ، ثم خصص النحاة حالة الياء بالنصب والجر ، وحالة الألف بالرفع .

ولقد قررنا قبلا أن اللغة النموذجية قد اتخذت بعض صفاتها من لهجات متعددة . لهذا نرجح أن أحكام المثنى كما رويت لنا فى اللغة الأدبية النموذجية ترجع فى الأصل إلى أكثر من لهجة واحدة .

ومثل هذا يمكن أن يقال فى لهجة «فزارة» وبعض «قيس» حين يقفون على

---

(١) انظر الخصائص الجزء الأول صفحة ٤١٢ .

الألف المتطرفة بالياء فيقولون فى «الهدى» «الهُدَىْ» . فلهجة فزارة هى الطور الأول ، أما الطور الثانى فهو الإمالة ، وأخيراً أصبحت الكلمة كما نعهدها الآن بألف اللين الخالصة ، وهو أفصح الجميع وأكثرها شيوعاً بين القبائل .

وعلى هذا إذا قيل لنا إن قبيلة عذيل كانت تقول «عَصَىّ» بدلا من «عصاى» ، علمنا أن الأمر لا يعدو أن قبيلة هذيل التزمت الطور الأول لصوت اللين المركب ولم يتطور فيها .

وبهذا يمكن أن نفسر قول شاعرهم :

سبقوا هوىّ وأنقوا لهواهموا فتخرموا ولكل جنب مصرعُ

ويظهر أن الوقف على أصوات اللين المتطرفة ، كان عسيراً على اللسان العربى ، قليل الشيوع فى معظم اللهجات العربية ، فقد روى أن بعضاً من تميم كانوا يقفون على مثل كلمة «الهدى» قائلين «الهدوْ» ، وبعض من قبيلة طئ كانوا يقولون «الهدأ» بالهمزة . ولعل هذه هى اللهجة التى يشير اليها الأزهرى صاحب تهذيب اللغة فى قوله جـ١٨ ص ١٤٠ [ومنها همزة الوقف فى آخر الفعل لغة لبعض العرب نحو قولهم للمرأة «قولئ» وللرجلين «قولأ» وللجميع «قولؤ» ، وإذا وصلوا الكلام لم يهمزوا ، ويهمزون «لأ» إذا وقفوا عليها] .

فإذا أضيف إلى هذا ما نعرفه من وقوف معظم القبائل على ما آخره صوت لين بهاء السكت ، أدركنا بسهولة كيف فرت معظم اللهجات العربية من الوقوف على أصوات اللين طويلها وقصيرها .

رابعاً : اختلاف موضع النبر :

تخضع اللغات لقواعد خاصة فى موضع النبر من الكلمة أو الجملة . والنبر هو الضغط على مقطع من المقاطع بحيث يتميز عن غيره من مقاطع الكلمة ويزداد وضوحه فى السمع[1] .

ولم يعن المتقدمون بالبحث فى مواضع النبر العربى ، وإنما هى إشارات رووها فى ثنايا كتبهم نستطيع منها الحكم على أثر النبر فيما يعرض لبعض اللهجات من ظواهر صوتية . وقد اختلفت مواضع النبر فى اللهجات العربية الحديثة اختلافاً يجعلنا نرجح أن اللهجات القديمة قد اختلفت أيضاً فى هذا . وحين

(١) انظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ٩٧ .

نعتمد على قراءة المجيدين من المصريين فى العصر الحاضر ، ونحاول استنباط مواضع النبر فى قراءتهم ، نستطيع أن نتبينه فى واحد من مواضع ثلاثة :

إما أن يكون على المقطع الأخير بشروط خاصة ، أو على المقطع الذى قبل الأخير بشروط معينة أيضاً ، فإذا لم تتوفر شروط هذا أو ذاك كان النبر على المقطع الثالث حين نعدّ المقاطع من نهاية الكلمة .

ومثال الموضع الأول «المستقر» حين نقف على قوله تعالى «إلى ربك يومئذ المستقر» ، و«نستعين» حين نقف عليها فى قوله تعالى : «إياك نعبد وإياك نستعين» .

ومثال الموضع الثانى :

يكتبُ بحرٌ أصغرُ

ففى هذه الأمثلة نلحظ أن النبر يقع على المقطع الذى قبل الأخير ، وهو على الترتيب .

تُ ، بَحْ ، غَ

ومثال الموضع الثالث وهو القليل الشيوع فى اللغة العربية ، كما نسمعها من أفواه القراء فى عصرنا الحاضر :

ضربَ ، اشتهرَ ، اجتمعوا

ففى هذه الأمثلة نلحظ أن النبر يقع على المقطع الثالث من الخلف ، وهو على الترتيب :

ضَ ، تَ ، تَ

على أن هناك موضعاً رابعاً للنبر نادر الشيوع ، يقع على المقطع الرابع حين نعدّ المقاطع من نهاية الكلمة . ونلحظ هذا فى كلمات مثل :

عربةٌ ، بلحةٌ ، رقبةٌ

ففى مثل هذه الأمثلة يكون النبر على المقاطع الآتية على الترتيب :

عَ ، بَ ، رَ

والذى نلحظه بوجه عام هو أن اللهجات العربية تميل فى حالة الوقف إلى نقل النبر إلى المقطع الذى قبله ، فحين نقف على الأمثلة الآتية :

يكتبُ ، خالدٌ ، مستفهمٌ

نلحظ أن النبر ينتقل من المقاطع الآتية :

تُ ، لِ ، هـِ

إلى المقاطع التى قبلها وهى :

يكْ ، خَا ، تَفْ

وذلك لأن من يريد الوقف لا ينتظر بنطقه حتى ينتهى من جميع المقاطع ، بل يبتر غالباً المقطع الأخير أو جزءاً منه ، من آخر كلمة فى جملته . وقد ترتب على هذا تلك الظاهرة التى سماها القدماء الوقوف بالسكون ، ففى الكلمات المنونة يحذف تنوينها ، والكلمات المحركة الآخر سواء كانت تلك الحركة حركة إعراب أو بناء ، تحذف حركتها ، فالقبائل بصفة عامة تقف على الكلمات الآتية :

خالدٌ ، معلمٌ ، ينزلُ

هكذا :

خالدْ ، معلمْ ، ينزلْ

ونلحظ فى حالة الوقف انتقال موضع النبر إلى المقطع الذى قبله فى معظم الحالات . على أن معظم القبائل قد اختصت المنون المنصوب بحكم خاص ، وهو الوقف عليه بالألف ، إلا قبيلة ربيعة التى اشتهر عنها الوقف عليه بالسكون أيضاً . وقد روى لنا أن بعض القبائل قد التزموا فى لهجاتهم حكما خاصاً فى حالة الوقف مثل :

(أ) روى أن قبيلة الأزد من القبائل اليمنية ، كانت تقف على الكلمات المنونة بحركة من جنس حركة آخر الكلمة فيقولون : جاء خالدو ، رأيت خالدا ، مررت بخالدى .

وعلى هذا فلا شك أنهم كانوا يبقون النبر فى موضعه فى حالة الوقف ، وهو فى كل من الأمثلة الثلاثة المتقدمة «لِ» فى خالد .

(ب) – كما نستنتج أن قبيلة سعد بن بكر كانت تبقى النبر فى موضعه أيضاً فى حالة الوقف ، ولكنهم مع هذا كانوا يحذفون التنوين . ولم يكن من الممكن حذف التنوين وإبقاء النبر فى موضعه إلا بتشديد الحرف الأخير من الكلمة، وإلا خالف هذا ما عرف عن نسج المقطع الأخير من الكلمات العربية حين

يكون منبوراً . فشرط المقطع الأخير حين يقع عليه النبر أن يكون أحد نوعين :

صوت ساكن + صوت لين طويل + صوت ساكن

أو :

صوت ساكن + صوت لين قصير + صوتان ساكنان

ففى حالة الوقف على مثل «خالد» بالسكون ، مع بقاء النبر فى موضعه ، يجب أن تصبح الكلمة على أحد وجهين : إما (خالدّ) أو (خاليد) .

وقد اتخذت لهجة سعد بن بكر الوجه الأول وهو «خالدّ» فى حالة الوقف ، وذلك حين يكون المقطع الذى قبل الأخير متحركا ، أما إذا كان ساكنا فالنبر لايتغير موضعه فى حالة الوقوف فى أية لهجة من اللهجات . ولهذا روى أن لهجة سعد بن بكر تقول (هذا بكْرْ) فى حالة الوقف ، كما هو الشائع فى اللهجات الأخرى.

هذا ... وقد روى أن قبيلة سعدٍ بن بكر لا يلتزمون لهجتهم هذه فى حالة الوقف على ما آخره همزة مثل «رشأ» ، لأن تضعيف الهمزة ثقيل على السمع ويحتاج إلى جهد عضلى كبير ، أو لعل السبب الحقيقى هو أن كلمة «رشأ» على صيغة لا يتغير معها موضع النبر حين يوقف عليها بِالسكون ، فموضع النبر من هذه الكلمة فى حالتى الوصل والوقف هو المقطع «ر» ، وقد سمى القدماء هذه الظاهرة الوقوف بالتضعيف ، ولم يرو عن أحد من القرّاء ، إلا ما نسب لعاصمٍ فى قوله تعالى «وكل صغير وكبير مستطرّ» وما نسب لأبى عمرو «وتواصوا بالصبرّ» ، كما قرأ سلام «والعصرّ» .

ويظهر أن هذه القبيلة قد التزمت فى معظم الأحيان نبر المقطع الأخير من الكلمة فى حالة الوقوف عليها ، مما أدى إلى تضعيف الحرف الأخير .

وهناك قبائل أخرى يضغطون على المقطع الأخير من الكلمة فى حالة الوقف عليها ، وأولئك هم الذين يقفون بما سماه النحاة الوقف بالنقل . ففى مِثل الوقف على بكر وعمرو ، ينقلون حركة الراء إلى الساكن قبلها ويقولون «هذا بكُر» ومررت ببِكِر ... إلخ. وقد ترتب على التزام نبر المقطع الأخير فى لهجتهم شيئان: أولهما ما سمى بالنقل ، وثانيهما تضعيف الحرف الأخير. فأولئك الذين يقفون بالنقل كانوا فى الغالب يضغطون فى الوقت نفسه الحرف الأخير من الكلمة. ولعلّ النطق الصحيح لهذه القبائل هو أنهم كانوا يقولون «هذا بكُرّ» ، ولم يفطن النحاة

لهذه الصفة وظنوها الوقف بالنقل فقط .

ومما يؤيد ما نذهب إليه تلك الرواية التى رويت عن أبى عمرو فى وقفه على قوله تعالى «وتواصوا بالصبرّ» . وقد ذكرها النحاة مرة فى الوقف بالتضعيف، ومرة أخرى حين أشاروا إلى الوقف بالنقل ، مما يدل على أن الوقف بالنقل يستلزم أحياناً التضعيف ، ولكن ليس كل وقف بالتضعيف يتضمن نقلا ، إلا فى لهجة «لخم» وبعض من «طئ» أولئك الذين يلتزمون النقل ، ولو كان الحرف الذى قبل الأخير متحركا . وقد مثل النحاة للهجة لخم وطئ أولا بقول الشاعر :

من يأتمر للخير فيما قصدُه تحمد مساعيه ويعلم رشدُه

وثانيا بقول القائل :

«والكرامة ذات أكرمكم اللّه بهْ» .

ويظهر أنهم كانوا يشددون الهاء فى كل من «قصدهّ ، وشدّ بهَ» ، لأن النقل يصحبه فى الغالب تضعيف .

على أن ما يسميه النحاة وقفاً بالنقل ليس فى الحقيقة إلا تخلصاً من التقاء الساكنين حين يقعان فى آخر الكلمة . فبعض القبائل قد سيطرت عليها عادة التخلص من التقاء الساكنين سيطرة تامة إلى حد أن التزموه أيضاً حين يكون الساكنان فى آخر الكلمة(١) .

(حـ) اختلفت القبائل العربية فى أحكام الفعل المضعف ، أى الذى فيه العين واللام من نوع واحد ، مثل «ردّ ، عدّ» ، وليس لهذا الاختلاف من سر ، سوى اختلاف موضع النبر بين هذه القبائل .

وقد نظر النحاة إلى مثل هذا الفعل من وجهين : أولا حين يكون مجزوما ، وثانياً حين يتصل بضمير رفع :

١ - رووا لنا أن لهجة الحجازيين تلتزم فك الإدغام فى حالة الجزم فيقولون «لم يردد» ، فى حين أن بنى تميم يبقون الإدغام ويقولون «لم يردّ» . وعدّ النحاة كلا من الوجهين جائزاً صحيحاً .

أما السرّ فى التزام الحجازيين فك الإدغام فهو أن يترتب على الجزم عادة

---

(١) انظر أسرار اللغة صفحة ١٤٧ .

نقل النبر من موضعه إلى المقطع الذى قبله ، لأن الجزم يختصر أواخر الكلمات . ففى قولنا «يكتب» نلحظ أن النبر على المقطع «تـ» ، ولكن إذا جزم الفعل كما فى مثل «لم يكتبْ» ، انتقل النبر إلى المقطع «يكْ» . وعلى هذا كان من الواجب فى حالة جزم الفعل «يردُّ» أن ينتقل النبر من المقطع «ردْ» إلى المقطع «ب» لتصبح الكلمة لم «يردْ» ، ولكن التباس هذا الوضع بوضع الفعل المعتل العين ، والحرص على إظهار تضعيف الفعل ، جعل العرب من الحجازيين يفكون الإدغام ليجمعوا بين أمرين : نقل النبر إلى الوراء بسبب الجزم ، وإظهار تضعيف الفعل .

وهكذا جاء الوضع «لم يردُدْ» . ولهذا عاد الحجازيون إلى الإدغام حين بقى النبر فى موضعه ، مثل «لم يردّوا» .

أما بنو تميم فلم ينقل النبر فى لهجتهم بسبب الجزم وبهذا بقى الإدغام . فكانوا يقولون فى حالة الوقف «لم يردّ» ، أما فى الوصل فكانوا يحركون الدال الثانية بحركة لالتقاء الساكنين ، سواء أكانت تلك الحركة فتحة أم ضمة أم كسرة على اختلاف بين النحاة . وربما كان هذا من المواضع القليلة التى يتخلص فيها من التقاء الساكنين بتحريك الثانى منهما .

نخلص من كل هذا إلى أن فك الإدغام عند الحجازيين فى مثل «لم يردد» ليس له سرٌّ سوى نقل النبر من موضعه ، فلما جئ بالأمر من هذا الفعل كان من المعقول أن يأتى على هذا الوضع «اردُدْ» ، فى حين أن الأمر عند بنى تميم هو «ردّ» .

أما تلك اللهجة التى رويت عن «عبد القيس» واختص بروايتها الكسائى فهى أنهم كانوا يقولون فى حالة فعل الأمر «أُرُدّ» ، «أُغضّ» . ومن المحتمل هنا أن يكون هذا الوضع من أنواع القياس الخاطئ ، رغبة فى اطراد الصيغ والأوضاع فى اللهجة الواحدة . وبهذا قاس بنو عبد القيس فعل الأمر هنا ، على الأمر من الفعل الثلاثى الصحيح الذى يلتزم فيه البدء بهمزة الوصل .

٢ – أما فى حالة اتصال الفعل المضعف بضمير الرفع ، فقد أجمع النحاة على وجوب فك الإدغام فى الكثرة الغالبة من اللهجات العربية . وربما لم يكن هذا إلا عن طريق قياس أمثال «ردّ» على الأفعال الصحيحة ، وبهذا يقال «رددت» كما يقال «ضربت» . وإذا أمكن قبول قول النحاة إن لام الفعل الصحيح قد سكنت حين اتصاله بضمير الرفع لكراهة توالى أربع متحركات فيما هو كالكلمة الواحدة ، فليس من المقبول أن يلتزم هذا فى مثل «ردّ» الذى لا يترتب على اتصاله بضمير الرفع

أن يتوالى أربع متحركات .

فالسرّ إذاً فى فك الإدغام ، هو القياس على الفعل الصحيح لا أكثر ولا أقل . وعلى هذا فما روى لنا من أن ناساً من بكر بن وائل كانوا يقولون «ردَت» ، قد جاء على الأصل . وقد ترتب على اتصال الضمير بالفعل فى لهجة بكر بن وائل ، انتقال النبر إلى الأمام ، من المقطع «ردْ» إلى المقطع «د» . وانتقال النبر إلى مثل هذا المقطع قد يطيل صوت اللين فيه فيصبح «دا» . ولهذا جاءت بعض الروايات بأن لهجة قيس عيلان تزيد ألفاً بعد المدغم قبل الضمير ، فيقال «مدات» . وإذا نطق مثل هذا الوضع الأخير بالإمالة ، نتج هذا الوضع الذى التزمته معظم اللهجات العربية الحديثة والذى نلحظه فى لغة كلامنا .

هذه إشارات نرجح منها أن القبائل العربية تلتزم فى لهجاتها قانوناً واحداً لمواضع النبر من الكلمات . ولعل بحوث المستقبل تكفل لنا الكشف عن صفات أخرى للنبر فى اللهجات العربية القديمة . وليس اختلاف مواضع النبر فيها بالأمر الغريب ، بل هو طبيعى . وإننا لنشهد الآن آثاره فى اللهجات الحديثة ، فموضع النبر فى لهجة الصعيد يختلف عن موضعه فى لهجة القاهريين وسكان الوجه البحرى ، لا فى لهجات الكلام فحسب ، بل حتى فى النطق بالعربية الفصيحة أيضاً .

- ٧ -

أشهر القبائل فى اللهجات العربية

حين نستعرض أسماء القبائل التى ذكرت فى روايات اللهجات ، نراها تشمل طائفة كبيرة من القبائل العربية المشهورة فى التاريخ والأدب . على أن روايات اللهجات قد خلت فى كثير من الأحيان من ذكر أسماء قبائل معينة إليها تنسب اللهجة . وقد تفاوتت القبائل فى نسبة اللهجات إليها ، فمنها قبيلة نسبت إليها صفة واحدة وأخرى نسبت إليها صفات عدة . وربما كان أشهر القبائل فى روايات اللهجات قبائل ثلاث ، هى : تميم وهذيل وطئ ، وكلها من القبائل التى نسب الرواة لها الفصاحة وإجادة القول ، واحتجوا بأقوالهم وأخذوا عنهم فى رواياتهم عصر تدوين اللغة . ولكن الغريب أن نلحظ أن هذه القبائل الثلاثة كانت من أقل القبائل نصيباً فى الشعراءالجاهليين ، إذ لم ينسب إلى واحدة منها شاعر من شعراء الطبقة الأولى ، وإنما نسب إليها شعراء مقلون ، روى عنهم القليل من الشعر الجاهلى . فقد نسب لتميم : «أوس بن حجر ، والأسود بن يعفر ، والبرّاق ابن روحان ، وسلامة بن جندل ، وعلقمة بن عبيدة ، وعمرو بن الأهتم» .

ونسب لقبيلة هذيل من الشعراء الجاهليين : «المنتحل بن عويمر ، وعامر ابن حليس ، وخويلد بن خالد ، وأبو ذؤيب الهذلى» .

ونسب لقبيلة طئ : «حاتم الطائى ، وإياس بن قبيصة ، وأبو زبيد الطائى ، والطرماح بن حكيم» .

والروايات الأدبية التى رويت لنا عن العرب قبل الإسلام وفى صدر الإسلام، تمثل لنا كما أشرنا آنفا لهجة واحدة منسجمة الصفات ، قد ترفعت عن معظم صفات اللهجات التى رويت لنا ، فقد خلت من العنعنة والكشكشة والعجعجة ونحو ذلك ؛ مما نفر منه خاصة العرب قبل الإسلام وبعده . وقد اتخذت تلك اللغة الأدبية معظم صفاتها من لهجة قريش ، مع ما استحسنه خاصة العرب من صفات اللهجات الأخرى . فهى إذاً مزيج من عدة صفات نسبت إلى قبائل عدة ، ولكنه مزيج منسجم القواعد والأصول ، نراه فى أسلوب القرآن الكريم ، كما نراه فى الآثار الأدبية الأخرى من شعر ونثر وصحت روايته وتحققت . وكما يسرت

القراءات على العامة من العرب نطق القرآن الكريم بما تستطيعه ألسنتهم وبما يوافق لهجاتهم ، كان من الطبيعى أيضاً أن ينطقوا الآثار الأدبية نطقا يوافق ألسنتهم وما جبلوا عليه من لهجات ، لأن تلك الآثار الأدبية وإن كتبت بلغة الخاصة ، شاع تداولها بين العامة ، وتغنوا بها واعتزوا بما اشتملت عليه من جمال الأسلوب والمعانى . فلم تكن فى تداولها وقفاً على الخاصة من العرب ، بل كان يتلقفها العامة أيضاً بشغف كبير ، ويرددونها فى أغانيهم ومجالسهم ، وإن لم يفهموا الكثير منها .

وإذا تصورنا تلك القبائل المتعددة اللهجات ، تردد الآثار الأدبية فى أغانيها ومسامراتها ، أدركنا بسهولة أنه لابد من وقوع بعض الاختلاف فى النطق ، فلما جاء عصر تدوين اللغة وأخذ الرواة عن قبائل عدة ، جاءتهم أشعار الشاعر الواحد بروايات عدة فى بعض النواحى . هذا هو معنى قول ابن هشام فى شرح الشواهد : [كانت العرب ينشد بعضهم شعر بعض ، وكل يتكلم على مقتضى سجيته التى فطر عليها ، ومن هنا كثرت الروايات فى بعض الأبيات] .

ولنضرب هنا بعض الأمثلة التى توضح ما نرمى إليه :

تصور معى أن رجلا من القبائل التى تميل إلى الإدغام وتأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض ، ينشد قول امرئ القيس :

وإذ هى تمشى كمشى النزيـ ـف يصرعه بالكثيب البهر

فلا شك أننا سنسمعه منه :

وإذ هى تمشى كمچى النزيـ ـف يظرعه بالكثيب البهـر

أى إنه سيقلب الشين فى «مشى» إلى جيم كثيرة التعطيش ليجعلها مجهورة كالياء . كما أنه يشم «الصاد» صوت الزاى فتصبح تلك «الظاء» المعروفة بين العوام فى مصر ، لأن الراء التى تليها صوت مجهور . بل قد ينطق بهذا البيت رجل ممن اشتهر بالعجعجة فنسمع منه كلمة «كمشى» «كمجّ» أى يقلب كلا من الياء والشين ، جيما .

وتصور أيضاً أحد العامة فى قبيلة من تلك التى تؤثر الإدغام ، ولا تحقق الأصوات ، ينطق بقول امرئ القيس :

غدائره مستشزرات إلى العلا تضل المدارى فى مثنى ومرسل

فلا شك أنه سيتلمس أيسر الطرق للنطق بتلك الكلمة «مستشزرات» ، التى اتخذها علماء البيان مثلا للتعقيد اللفظى ، ويقول «مستزّرات» بإدغام الشين فى الزاى ، بل وربما قال «متّزرات» بإدغام السين فى التاء أيضاً .

كذلك حين نتصور رجلا من أصحاب الكشكشة ينشد بيت امرئ القيس :

أغـرك مـنى أن حـبك قاتلى　　　وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

فلا شك أنه سيقول :

أغرْتش منى أن حبتْشِ قاتلى　　　وانتش مهما تأمرى القلب يفعل

ولا يترتب على هذا إخلال بوزن البيت ، كما قد يتبادر للذهن ، على الأقل فى هذا البحر بالذات .

بل ويقول أيضاً فى مطلع معلقة امرئ القيس :

قفا نبتْشِ من ذكرى حبيب ومنزل

فإذا أنشد بدوى ممن يميلون إلى الإدغام قول امرئ القيس :

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه　　　فليس على شىء سواه بخزّانِ

فسنسمع منه الفعل [يخزْن] [يغزن] بالغين لا بالخاء .

أو قول النابغة :

لئن كنت قد بلغت عنى وشاية　　　لمبلغك الواشى أغش وأكذبُ

فسنسمع منه كلمة [أكذب] [أجذب] ، بجيم خالية من التعطيش .

أو قوله :

فإن أك مظلوما فعبد ظلـمته　　　وإن تك ذات عتبى فمثلك يعتبُ

فسنسمع الفعل [يعتب] [يحتب] ، بالحاء لا بالعين .

أو قول طرفة بن العبد :

كالجـوابى لاتنى مترعـة　　　لقرى الأضياف أو للمحتضر

ثم لا يخـزن فـينا لحـمها　　　إنما يخـزن لحـم المدّخـر

فسنسمع البيتين هكذا :

كالجوابى لا تنى مدرعــة لقرى الأضياف أو للمحتضر

ثم لا يـغزن فــينا لعمــها إنمـا يغـزن لعـم المدخـــر

ثم تصور شاعراً كزهر بن جناب وقد ربى فى قبيلة كلب من قضاعة ، أولئك الذين اشتهروا «بالوهم» «والوكم» ، قد نظم قصيدته الحماسية التى يقول فيها:

أبى قومنا أن يقبلوا الحق فانتهوا إليه وأنياب من الحرب تحرقُ

فلما وصل إلى قوله من هذه القصيدة :

فما برحوا حتى تركنا رئيســهم يعفر فيه المضْـــرحىّ المذلّق

سمعنا قومه ينشدون هذا البيت بكسر الهاء فى رئيسهم .

*****

تلك هى أمثلة قليلة ، مما قد تصنعه اللهجات فى الآثار الأدبية ، ومما قد يتـرتب عليـه اختـلاف فى روايات البـيت الواحـد ، بل وقـد يتـرتـب عليـه نشأة مترادفات وهمية للمعنى الواحد .

- ١ -

اختلاف الدلالة والبنية في اللهجات

الدلالـــة :

روت لنا المعاجم العربية مئات من الكلمات التى اختلفت معانيها بعض الاختلاف تبعاً للهجات المتباينة . ولم يحاول أصحاب هذه المعاجم تنظيم مثل هذه الكلمات على أساس علمى يلقى ضوءاً على تطور المعانى بين اللهجات ، وعلى الحياة الاجتماعية فى القبائل ، بل كان كل همهم هو سرد الكلمات ونسبة بعضها فقط إلى بيئاتها ، فكانوا يقولون مثلا :

١ – وثب بمعنى جلس حميرية ، وبمعنى قفز عدنانية .

٢ – الشائع فى معنى السِّرحان والسِّيد هو «الذئب» ، ولكن قبيلة هذيل تستعملهما بمعنى «الأسد» .

٣ – الشائع فى معنى «الكُتَع» هو ولد الثعلب ، ولكن معناه فى اليمن ولد الذئب .

بل إن المعاجم لتؤكد لنا أن بعض القبائل قد اشتهرت بكلمات معينة واختصت بها دون غيرها من سائر القبائل الأخرى ، مثل :

١ – «اللج» معناه عند طئ وقيل أيضاً هذيل ، السيف .

٢ – «غنج على شنج» معناها عند هذيل ، شيخ على جمل .

٣ – نِفَّاح المرأة زوجها ، يمانية .

٤ – الهرْج معناه القتل عند الحبشة .

وقد وردت كل الأمثلة السابقة فى لسان العرب لابن منظور .

ويروى صاحب المخصص أمثلة أخرى ، منها :

١ – العيش معناه الطعام عند اليمن[١] .

٢ – السدفة الضوء عند تميم والظلمة عند قيس[٢] .

*****

ولا شك أن حصر كل تلك الكلمات وتنظيمها ، والنظر إليها على ضوء ما يقرره البحث الحديث الذى يسمى عند الأوربيين Semantics ، سيطلعنا على نواح من اللهجات جليلة الشأن ، بل ويفسر لنا أيضاً كثيراً من الأمور الغامضة علينا كصلات القبائل بعضها ببعض ، ونظام حياتهم قبل الإسلام .

وليس يتسع المقام هنا لمثل هذا البحث ، فنرجو أن تحققه بحوث المستقبل[٣]

البنيـة :

قد تبين لنا من بحث الصفات الصوتية المختلفة بين القبائل أنه قد ترتب على معظمها تغيير فى بنية الكلمات ، وتلتزم القبائل هذا التغيير فى مواضعه ولايستطيعون غيره إلا مع كثير من التكلف والعنت ، والعربى فى لغة تخاطبه يطلق نفسه على سجيتها ، وينطق كما تعود فى بيئته ، فتبرز فى نطقه تلك الصفات التى أشرنا إليها آنفاً .

وتغير بنية الكلمات نتيجة تغير صوت من أصواتها ، يعدّ فى معظم الأحيان تغييراً طفيفاً لا يصعب معه تعرف الكلمة فى صورتها الأصلية ، أو بعبارة أدق فى صورتها الأكثر شيوعا ، والأفصح استعمالا .

ولئن نسب القدماء بعض الروايات لقبائل معينة ، فلقد أهملوا ذكر القبائل فى كثير من رواياتهم . فهناك صور مختلفة للكلمة الواحدة رووها على أنها كلها صحيحة جائزة ، فى حين أنه من السهل اليسير الحكم على تلك الصور بأنها تنتمى إلى أكثر من لهجة من لهجات العرب . وقد ملئت معاجم اللغة بكلمات جوزوا فيها أكثر من وضع واحد أو صيغة واحدة . ولنضرب مثلا لما جاء فى

---

(١) جزء ٤ صفحة ١١٩ .

(٢) جزء ٩ صفحة ٤١ .

(٣) انظر كتاب دلالة الألفاظ

معظم المعاجم العربية ، حين الإشارة إلى كلمة «أصبع»[1] فقد روى فيها عشر لهجات ، هى :

إصْبَع ، إصْبِع ، إصْبُع ، أَصْبَع ، أَصْبِع

أُصْبُع ، أُصْبَع ، أُصْبِع ، أُصْبُع ، وأخيراً أُصْبُوع .

ويظهر أن بعض هذه اللهجات كان من اختراع الرواة أمثال :

إصْبُع ، أَصْبِع

لأن الانتقال من كسر إلى ضم أو العكس مما كانت العرب تنفر منه بصفة عامة ، وعلى هذا يمكن إرجاع بقية لهجات هذه الكلمة إلى ثلاثة أنواع من القبائل:

قوم يؤثرون البدء بالهمزة مفتوحة ، ولكنهم يختلفون فى حركة الباء فبعضهم يؤثر ضمها ، والآخرون يؤثرون كسرها ، فقبيلة كانت تقول «أُصْبُع» وأخرى كانت تقول «أصْبِع» وأخرى كانت تقول «أصْبِع» ؛ ثم تطورت لهجة كل منهما إلى «أصْبَع» ، للانسجام بين الحركات فى الكلمة .

وهناك قبائل كانت تؤثر البدء بالهمزة مكسورة ، ولهجة هذه القبائل كانت «إصبع» ثم تطورت إلى «إصبِع» للانسجام بين الحركات أيضاً .

أما القبائل الأخيرة ، فقد آثرت فيما يظهر ، ضم الهمزة فجاءت لهجتها الأصلية «أصبع» ، ثم تطورت لانسجام الحركات إلى «أصبع» . ولعل هذه اللهجات الأخيرة كانت من اللهجات التى تقف بالتضعيف ، أى إنها تجعل النبر على المقطع [بعَ] . ونبر المقطع الأخير يؤدى إلى أحد وجهين : إما تضعيف العين أو إطالة الحركة قبلها ؛ مما أدى إلى الصورة الأخيرة وهى «أصبوع» .

هذه هى آراء سريعة ، نرجح احتمالها فيما يتعلق بكلمة [أصبع] . أما الذى لا يحتمل الشك فهو أن ما صح من هذه اللهجات العشر ، ينتمى إلى لهجات مختلفة بعضها أفصح من بعض .

---

(١) قال أستاذنا على الجارم : ولا يصح فى الرأى أن قبيلة واحدة تنطق بكلمة إصبع إلا علي صورة واحدة ، غير أن الناس شغلوا عن تحقيق هذه اللهجات وعن نسبة كل لهجة إلي قبيلتها . وهذا بحث شريف خليق بعناية اللغويين «مجلة مجمع اللغة صفحة ٣٢١ جزء أول»

ولا بأس من أن نسوق هنا بعض الروايات ، التى جاءت فى المعاجم مشيرة إلى اختلاف البنية باختلاف اللهجات .

جاء فى اللسان :

١ - مضنى الأمر وأمضنى ، والثانية تميمية .

٢ - فتنته المرأة وأفتنته ، الأولى حجازية والثانية نجدية .

٣ - «حزنه» لقريش ، أحزنه لتميم .

٤ - عُقر الدار أصلها ، حجازية ، وبالفتح عند أهل نجد .

وجاء فى المخصص :

١ - «هلك» يستعمل متعديا عند تميم[1] .

٢ - الِّيم هو الثعبان عند هذيل ، وفى الحجاز بالتخفيف ، وفى تميم أيْن[2] .

ويمكن أن نلخص العوامل التى دعت إلى اختلاف بنية الكلمات فى اللهجات العربية القديمة فيما يلى :

١ - قبائل تميل إلى صوت لين خاص ، وهذا لا يكون إلا فى الاختيار بين الكسرة والضمة ، لأن كلا منهما صوت لين ضيق[3] .

وعلى هذا إذا روى لنا أن فعلا من الأفعال الثلاثية الصحيحة جاء من باب «ضرب ونصر» ، رجحنا أن إحدى القبائل كانت تنطق به من باب «ضرب» ، وأخرى كانت تنطق به من باب «نصر» . وأمثال هذه الأفعال كثيرة فى المعاجم العربية . وقد أشرنا آنفاً إلى أن القبائل البدوية كانت تميل إلى الضم ، فى حين أن القبائل المتحضرة كانت تميل إلى الكسر .

٢ - الميل إلى نسج خاص فى مقاطع الكلمة . فبعض القبائل تؤثر المقاطع الساكنة على المقاطع المتحركة ، ومن هذه قبيلة «تميم» التى روي عنها أنها كانت تؤثر تسكين وسط الكلمة المتحرك . جاء فى اللسان إن مثل : خمر جمع خمار ، فرش جمع فراش ، رسل جمع رسول ، ينطق بها عند تميم بتسكين الوسط أى

---

(١) جزء ٦ صفحة ١٢٧ .

(٢) جزء ٨ صفحة ١٠٩ .

(٣) انظر كتاب الأصوات صفحة ٣٧ .

خمْر، فُرْش – إلخ .

ويذكر فى موضع آخر أن تسكين «فخذ» وأمثالها مثل «كبد وعضد ورجل» والفعل «كرم وعلم» للتخفيف ، وهى لغة بكر بن وائل وأناس كثير من تميم .

وإلى هذه القبيلة يمكن أن ننسب تلك اللهجة ، التي تجوّز تسكين عين الفعل الماضى الثلاثى ، فيقولون فى «كتب» «كتْب» .

والحقيقة أن معظم اللهجات العربية تنفر من توالى المقاطع المتحركة ، ولكنها تختلف فى نسبة هذا النفور . فإذا روى لنا أن كلمة «فخذ» يجوز فى نطقها «فخذ» ، «فخْذ» ، أدركنا أن الصيغة الثانية لقبيلة مثل تميم تلك التى تؤثر المقاطع الساكنة .

٣ – سبق أن أوضحنا أن القبائل المتحضرة بوجه عام تميل إلى تحقيق كل أصوات الكلمة ، وإعطاء كل صوت حقه فى النطق ، فى حين أن القبائل البدوية تميل إلى تأثر الأصوات بعضها ببعض . ومثل هذا يؤدى إلى اختلاف بنية الكلمة الواحدة بين هذين النوعين من القبائل ، وفيما تقدم من الأمثلة القدر الكافى . كذلك سبق أن شرحنا أن بعض القبائل تؤثر صفات خاصة للأصوات الساكنة ، فبعضها يؤثر الأصوات الشديدة المجهورة ، وآخرون يؤثرون الأصوات الرخوة المهموسة ، ومرجع كل هذا البيئة الاجتماعية .

٤ – العامل الأخير الذى يعد أهم العوامل فى تغيير بنية الكلمات بين اللهجات المختلفة هو أخطاء الأجيال الناشئة وما يترتب عليها :

(أ) فقد يصعب على الطفل تقليد الكبار فى نطقهم لكلمة من الكلمات ، ثم يهمل أمر هذا الطفل فينشأ على الخطأ ، وتصبح الكلمة ذات صورة جديدة فى لهجته.

(ب) كذلك قد يخطئ الطفل فى سمع الكلمة فيرتب أصواتها ترتيباً مختلفاً، وتصبح فيما بعد ذات وضع مختلف عن الكلمة الأصلية .

(جـ) قد يقيس الطفل قياساً خاطئاً فيشتق وضعاً جديداً غير معروف فى لهجة آبائه ، ثم يصبح هذا الوضع معترفاً به بين أبناء جيله .

إلى غير ذلك من مظاهر أخطاء الأطفال وما يميلون إليه فى النطق[١] .

---

(١) كتاب الأصوات ١٤٦ .

ولا يظهر مثل هذا إلا فى البيئات المنعزلة ، التى أهمل إصلاح أخطاء الأطفال فيها .

٥ – ويمكن أن يضاف إلى كل ما تقدم عامل آخر ، كان السبب فيما روى لنا من اختلاف فى بنية الكلمات . وهذا العامل هو احتمال خطأ الرواة فى النقل ولا سيما بعد تدوين اللغة ، ذلك الخطأ الذى سماه القدماء بالتصحيف(١) .

واختلاف بنية الكلمات قد يكون طفيفاً ، لا يصعب معه تعرف علاقة الكلمات بعضها ببعض . أما الكلمات التى رويت مختلفة البنية ، فبعضها جامد وذلك كأمثال «أصبع ، وفخذ» ، وغير ذلك من الأسماء الجامدة التى اختلف نطقها بين القبائل ، لعامل من العوامل السالفة الذكر ، كما أن منها كلمات اختلفت صيغ الاشتقاق فيها ، فمثلا تشتق معظم القبائل مؤنث الصفات المنتهية بالألف والنون الزائدتين مثل «سكران» ، على وزن سكرى ، ثم يروى لنا أن قبيلة أسد ، قد شاع فيها اشتقاق مؤنث هذه الصفة ، بتاء التأنيث فيقولون فى مؤنث سكران : سكرانة . كذلك اتفقت الروايات على أن اسم المفعول من فعل أجوف مثل [باع] هو [مبيع] ، ولكن عرفت قبيلة تميم بأنها لا تفرق بين الفعل الأجوف والصحيح فى اشتقاق هذه الصيغة ، فهم يقولون [مبيوع] ، [مديون] بدلا من مبيع ومدين .

ومن السهل تعليل تلك الظاهرة التى شاعت فى أسد وتميم ، بالقياس الخاطئ الذى يلعب دوراً مهمّا فى خصائص اللهجات ، فقد قاسوا اشتقاق المؤنث من سكران ، على اشتقاقه من معظم الصفات الأخرى ، لأن الكثرة الغالبة فى الصفات العربية تؤنث بالتاء . وليس بغريب أن يقاس على اشتقاق الكثرة اشتقاق القلة .

وكما قد يقول الطفل بيننا [أحمرة] بدلا من حمراء ، قياساً على معظم الصفات ، قال الطفل الأسدى سكرانة بدلا من سكرى . ثم صار خطأ الأطفال لهجة معترفا بها بين قبيلة أسد . وكذلك قاس الطفل التميمى صيغة اسم المفعول من الأجوف على صيغته من الصحيح ، لأن الأفعال الصحيحة هى الكثرة الغالبة فى اللغة .

وعلى هذا ، إذا روى لنا اختلاف فى بنية الكلمات عند الاشتقاق ، فعلينا أن نحاول نسبة كل صورة من صور الكلمة الواحدة ، إلى قبيلة خاصة ، أو مجموعة

---

(٢) انظر أسرار اللغة ٦٨ .

من القبائل . وبذلك تتحدد خصائص كل لهجة وتتميز اللهجات بعضها من بعض، فهناك اشتقاق المؤنث من المذكر ، وهناك اشتقاق الجمع من المفرد ، وهناك الأسماء الخمسة واختلاف بنيتها بين القبائل ، وهناك اشتقاق المضارع من الماضى، إلى غير ذلك مما نلحظ اختلاف اللهجات فى وضعه الاشتقاقى .

رأى القدماء فى اختلاف البنية :

لعل أظهر علماء العربية فى بحث هذا ، هو «ابن جنى» فى كتاب «الخصائص» الجزء الأول ، إذ عقد فصولا أربعة(١) سمى الأول : «باب فى الفصيح يجتمع فى كلامه لغتان فصاعدا» ، والثانى «باب فى تركب اللغات» ، والباب الثالث «فى الأصلين المتقاربين يستعمل أحدهما مكان صاحبه» أما الرابع فستشير فيما بعد إلى ما جاء فيه . وقد وفق ابن جنى فى بعض ما قال فى هذه الفصول الأربعة ، ولكنه لم يوفق فى البعض الآخر . فقد زعم فى الفصل الأول أن الفصيح قد يجمع بين لهجتين فى كلامه ، ثم ضرب أمثلة من الشعر لا تكفى حجة لما يدعى ، فلعلها من ضرورات الشعر . وفوق هذا لم يبين لنا ابن جنى ما عنى بكلام الفصيح ؟ ألغة تخاطبه بين أبناء قبيلته تلك التى تخضع لصفات خاصة مميزة عن غيرها من القبائل ، أم كان يعنى لغة الأدب والشعر ، وهى اللغة النموذجية التى اكتسبت معظم صفاتها من لهجة قريش ؟

ونحن نؤثر أن ننسب لكل لهجة صفات خاصة بها ، وليس من المرجح أن يجتمع فى اللهجة الواحدة صفتان مختلفتان فى أمر واحد ، وكل ما فى الأمر أن المرء من خاصة العرب قد يلتزم شيئاً فى لغة تخاطبه بين أبناء عشيرته ، فإذا عمد إلى بيئة الأدب فنظم الشعر أو خطب الناس فى المواسم والأسواق ، فإنه قد يلجأ إلى صفة مغايرة للهجة قبيلته ؛ لأن للغة النموذجية خصائص قد تخالف خصائص كثير من لهجات الكلام ولغات التخاطب .

وقد روى ابن جنى أمثلة لكلمات مختلفة البنية ، مثل :

بغداد = بغدان = مغدان . طبرزل = طبرزن . أيْمْ = أيْنْ .

رغوة اللبن = رَغوته = رِغوته = رُغاته = رِغاوته = رُغايته .

الذُّروح = الذُّروح = الذَّريح = الذُّراح = الذُّرَّح = الذُّرنوح = الذُّرحرح ...إلخ.

---

(١) صفحات ٢٧٥ ، ٣٧٩ ، ٤٦٧ ، ٤٧٨ على الترتيب .

ومن السهل الحكم على أن مثل هذه الكلمات المختلفة البنية تنتمى إلى لهجات متعددة ، وقد ينتمى بعضها إلى لهجة واحدة ، ولكن فى جيلين مختلفين من أبناء هذه اللهجة . وقد اختتم ابن جنى هذا الفصل بقصة رويت عن الأصمعى قال : اختلف رجلان فى الصقر فقال أحدهما الصقر بالصاد وقال الآخر بالسين ، فتراضيا بأول وارد عليهما فحكيا له ماهما فيه ، فقال لا أقول كما قلتما ، إنما هو الزقر !!

وليس من المعقول أن هؤلاء الرجال الثلاثة من أبناء لهجة واحدة ، بل إنهم ينتمون إلى لهجات متعددة ، وقصة ابن جنى لهذا تقوم حجة عليه لا له . وقد نلتمس العذر لابن جنى لأنه ممن لا يفرقون بين لهجة وأخرى فى الاستعمال ، ويرون جميع اللهجات صحيحة يحتج بها ، وقد عقد فصلا خاصاً بهذا فى الخصائص ، سماه [باب اختلاف اللهجات وكلها حجة] .

ثم انتقل ابن جنى فى الفصل الثانى إلى ما سماه (تركب اللغات) ، فزعم أن قبيلة كانت تقول قنط يقنِط ، وأخرى تقول قنط يقنط ، ثم تداخلت اللغتان فقال من قال (قنط يقنط) .

على أن ابن جنى لم يحدثنا عن كيف تتداخل اللغات ، ولا عن الدوافع التى قد تدعو لمثل هذا التداخل .

ويظهر أن ابن جنى قد مال إلى الناحية الصناعية البحتة فى تفسيره أفعالا مثل (قنط ، يقنط) و (نعِم ، ينعم) و (فضل ، يفضل) وأمثالها مما أعيا القدماء تعليله فى ضوء تلك المقاييس التى وضعوها لأبواب الثلاثى .

ولكن ابن جنى كان موفقاً كل التوفيق حين عرض فى هذا الفصل إلى قانون المغايرة ، الذى اعترف به المحدثون وأشاروا إلى أهميته فى الاشتقاق . فقد قال ما نصه : [وقد دلت الدلالة علي وجوب مخالفة صيغة الماضى لصيغة المضارع] ثم قال : [وإنما دخلت يفعل فى باب فعل يفعِل ، من حيث كانت كل واحدة من الضمة والكسرة[1] مخالفة للفتحة] .

وليس تداخل اللغات الذى زعمه ابن جنى إلا نوعاً من الصناعة لا تبرره تلك الأمثلة التى رواها . وإنما الواجب أن تجمع كل الأفعال الثلاثية ، ماضيها ومضارعها ، ثم تبوب وتنسق وينظر إليها على أنها تنتمى إلى لهجات متعددة .

---

(١) انظر كتاب الأصوات صفحة ٣٧ .

فإذا قيل إن المراد بتداخل اللغات استعارة بعضها من بعض ، واستعارة اللغات بعضها من بعض أمر معترف به بين المحدثين من علماء اللغات ، قلنا إن اللغات قد تستعير الكلمات لا الصيغ ، وليس هناك من مبرر يمكن معه أن تنتقل القبيلة أو الرجل منها ، من قوله (نعِم ينعم) إلى (نِعم ينعم) !!

ومما يؤيد ما نذهب إليه أننا نلحظ فى اللهجات الحديثة ، أن الرجلين من أبناء لهجتين مختلفتين ، قد يلتقيان ويصادق أحدهما الآخر زماناً طويلا . وكل منهما يلتزم لهجته ، وما نشأ عليه ، فإذا تأثر أحدهما بالآخر ؛ وأخذ يقلده فى لهجته لسبب من الأسباب ، تكلم كل منهما بعد مران طويل ومخالطة مستمرة لهجة واحدة . أما أن تمتزج اللهجتان وينشأ منهما لهجة ثالثة ، فليس مما يقره المحدثون من الباحثين فى اللغات(١) .

وقد ذكر ابن جنى فى هذا الفصل بعض القصص التى تقوم حجة عليه لا له . فمن ذلك ما روى عن أبى حاتم قال : [قرأ علىّ أعرابى بالحرمز طيبى لهم وحسن مآب ، فقلت طوبى . فقال : طيبى . قلت : طوبى . قال طيبى ، فلما اشتد علىّ قلت : طوطو . فقال : طى طى] .

وقد تعرض ابن جنى فى الفصل الثالث إلى كلمات رويت مختلفة البنية ، وذلك بأن اختلف ترتيب الأصوات فيها مع اتحاد معناها . وقد فرق ابن جنى بين هذه الكلمات ، فجعل بعضها مقلوباً عن نظائرها ، والبعض الآخر كلمات مستقلة بعضها عن بعض ، وكل منها أصل مستقل بذاته .

ومثل للكلمات المقلوبة عن نظائرها بمثل (امضحل) فهى مقلوبة عن (اضمحل) ، ومثل (اكرهف) مقلوبة عن (اكفهر) ، ولكنه قال إن كلا من (جذب وجبذ) أصل مستقل بذاته ، وليس أحدهما مقلوب الآخر .

والحقيقة أن مثل هذه الكلمات متى كانت تنتمى للغة واحدة ؛ يجب أن ينظر اليها على أن بعضها أصل والبعض الآخر مقلوب عنه ، ولا معنى للتفرقة بينها . وتكاد هذه الظاهرة تشترك فى معظم لغات العالم ، التى اشتملت على كلمات متحدة المعنى والأصوات ولكن ترتيب الأصوات فيها مختلف . وهذه الظاهرة هى فى الأصل من أخطاء السمع بين الكبار ، أو من أخطاء الأطفال ، ثم صار الخطأ صواباً .

---

(١) إلا فى حالة الغزو .

وأخيراً تعرض ابن جنى فى الفصل الرابع إلى أن بعض الكلمات قد تختلف بنيتها ، وذلك بأن يستعمل أحد الحرفين المتقاربين مكان صاحبه ، ثم ضرب أمثلة لهذا مثل :

طبرزل : طبرزن . دهمج : دهنج . خامل : خامن . بنات مخر : بنات بخر.

ومثل هذه الكلمات يمكن أن تنتمى إلى لهجات متعددة ؛ أو إلى لهجة واحدة ، ولكن فى جيلين مختلفين من أبنائها .

على أن ابن جنى لم يحدثنا فى هذا الفصل عن معنى تقارب الصوتين ، ووجه الشبه بينهما من الناحية الصوتية . وقد ملئت المعاجم العربية بهذا النوع من الكلمات ، وسنفرد فصلا مستقلا لما جمعناه منها .

أبواب الثلاثى

وربما كان أظهر المواضع التى توضح اختلاف البنية فى اللهجات ، هو اشتقاق مضارع الفعل الثلاثى من الماضى ، وقد جاءتنا كتب النحاة بعلاج مضطرب لما سموه بأبواب مطردة ، بل كل ما يمكن عمله بصددها هو استنباط قواعد غالبة شواذها كثيرة جداً . ولعمرى كيف تصور القدماء أن لغة منسجمة مطردة كاللغة العربية يمكن أن تتضمن كل هذه الأبواب فى اشتقاق المضارع من الماضى الثلاثى ، فى حين أنهم يرون أن جميع الصيغ الأخرى للفعل تلتزم حالة واحدة مطردة فى جميع المواضع .

يجب إذاً أن ننظر إلى أبواب الثلاثى كما رواها النحاة ، على أنها تنتمى إلى أكثر من لهجة واحدة ، وأن الذى رووه ، إن هو إلا مزيج من لهجات عدة ، لأن أساس الفهم فى أية لهجة من اللهجات هو الخضوع لقاعدة مطردة نادرة الشذوذ .

والذى نستطيع أن نتصوره هو أن كل لهجة من اللهجات ، أو مجموعة منها قد التزمت اشتقاق المضارع من الماضى الثلاثى على هيئة خاصة ، لا تشذ عنها إلا فى النادر . فأبواب الثلاثى تنتمى إلى عدة لهجات ، كل منها كانت تلتزم باباً أو بابين من بينها ، ويؤيد ما يذهب اليه اشتقاق المضارع من الماضى الثلاثى فى كل اللغات السامية الأخرى ، شقيقات اللغة العربية .

ولن نحاول هنا فصل تلك الأبواب بعضها عن بعض ونسبة كل منها إلى قبيلة خاصة أو مجموعة من القبائل ، لأن هذا يتطلب جمع كل ما ورد فى المعاجم

العربية من أفعال ثلاثية ، والبحث فيها بعد تبويبها وتنظيمها فى مجموعات متناسقة على أننا قد جمعنا كل ما ورد فى القرآن الكريم من أفعال ثلاثية صحيحة غير معتلة ، ماضيها ومضارعها ، لنرى ما يمكن أن تكون قد خضعت له قراءة حفص، التى لا نشك فى أنها تمثل لهجة واحدة منسجمة مطردة فى اشتقاق المضارع من الماضى الثلاثى .

ورد فى كل القرآن الكريم من الأفعال الثلاثية الصحيحة مستعملة فى الماضى مرة وفى المضارع مرة أخرى (نحو ١٣٤ فعلا) ، وقد تركنا تلك الأفعال التى استعملت فى الماضى فقط أو المضارع فقط .

وحين استعرضنا تلك الأفعال التى جاءتنا فى قراءة حفص فى الماضى مرة والمضارع مرة أخرى ، اتضح لنا أنها لا تشتمل على ذلك الباب الذى سماه النحاة (فعِل يفعِل) ؟ بل لقد خلت أيضاً من ذلك الباب الذى سموه (فعل يفعل) ؛ إلا فعلين اثنين هما : «كبر يكبر ، وبصر يبصر» فى مثل قوله تعالى : [كبرت كلمة تخرج من أفواههم] وقوله [فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون] .

ولا شك أننا نلحظ فى مثل هذا الفعل معنى من معانى المبالغة ، أو شدة فى الحدث ، يرجح عندنا أن مثل هذه الصيغة متفرعة عن [فعل] ، وأنه لا يلجأ إليها إلا حين يراد المبالغة فى معنى الحديث الذى تتضمنه الصيغة الأصلية [فعل] . فليست إذاً من أبواب الثلاثى ، بل يجب أن ينظر إليها على أنها فرع مستقل ، زاد معناه بتحول الصيغة الأصلية [فعل] إليه .

أما بقية الصيغ الثلاثية التى وردت فى القرآن الكريم ، فهى أحد وجهين لاتخرج عنهما ، وهما : [فعل] ، [فعِل] .

والصيغة الأولى هى أكثر شيوعاً فى الأسلوب القرآنى ، لأن به حوالى ١٠٧ فعلا ماضياً صحيحاً صيغته [فعل] ، وحوالى ٢٤ من صيغة [فعِل] .

والقاعدة التى خضعت لها قراءة حفص فى اشتقاق المضارع من هذه الأفعال ، هى المغايرة التى أشرنا إليها آنفاً . فصيغة [فعل] فى الماضى يناظرها صيغة [يفعل] أو [يفْعل] فى المضارع ، لأن الفتحة كما قال ابن جنى تقابل الضمة أو الكسرة ؛ إذ الفتحة صوت متسع ، فى حين أن كلا من الضمة والكسرة صوت ضيق[1] . أما صيغة [فعِل] فى الماضى فقد قابلها دائماً (يفعَل) فى

(١) كتاب الأصوات اللغوية صفحة ٣٧.

المضارع ، لم يشذُ عن هذا فعل من الأفعال التى جاءت فى قراءة حفص .

تلك هى القاعدة التى يمكن استنباطها من أفعال القرآن ، وهى واضحة جلية لا تعقيد فيها ، ومن الطبيعى أن تكون كذلك .

أما تلك الأفعال التى وردت من صيغة [فعَل] فى الماضى و «يفعَل» فى المضارع ، فقد دعت إليها عوامل صوتية فى بنية الفعل نفسه ، وذلك أن عين الكلمات أو لامها من أصوات الحلق ، تلك التى تؤثر فى كل اللغات السامية ، الفتحة على غيرها من الحركات .

وقد فطن الأقدمون من علماء اللغة إلى ميل الأصوات الحلقية إلى الفتحة ، وأقرهم على هذا المستشرقون . وقد ظهر هذا الميل بصورة أوضح فى اللغة العبرية أما السرّ فيه ، فهو أن كل أصوات الحلق بعد صدورها من مخرجها الحلقى ، تحتاج إلى اتساع فى مجراها بالفم ، فليس هناك ما يعوق هذا المجرى فى زوايا الفم ، ولهذا يناسبها من أصوات اللين أكثرها اتساعا ، وتلك هى الفتحة . ولم يشذ عن هذه القاعدة بين أفعال القرآن الكريم إلا أفعال قليلة هى :

نكح ينكح ، نزع ينزع ، رجع يرجع ، بلغ يبلغ ، قعد يقعد ، زعم يزعم ، مضارع الفعل الأخير بالكسر أو الضم .

وقد أثار الفعل «قنَط يقنَط» دهشة بين القدماء ، وبدأوا يتأولونه على أنه من تداخل اللغات .

والحقيقة أن اللهجة الواحدة يجب أن تخضع لقاعدة مطردة فى الكثرة الغالبة من صيغها ، ولكن قد يتخللها القليل من الصيغ التى تسمى عادة بالشاذة .

وفى مثل هذه الحالة يجب أن تدرس هذه الصيغ على انفراد ، وأن يبحث عن مصدرها أو سر شذوذها .

ويغلب أن يعزى هذا الشذوذ إلى انحدار الفعل من لهجة أخرى ، لها قواعد أخرى تخضع لها .

وليس معنى هذا استعارة الصيغة ، وإنما معناه استعارة الفعل بصيغته . ولهذا نرجح أن الأفعال :

[نزع ينزع . نكح ينكح . رجع يرجع . قنط يقنط . نفخ ينفخ . بلغ يبلغ . قعد يقعد . زعم يزعم .]

تنتمى إلى لهجة أخرى غير اللهجة التى نزل بها القرآن الكريم .

وربما كان يعبر عن معانى هذه الأفعال قبل استعارتها فى لغة القرآن الكريم، بمثل الأفعال الآتية على الترتيب :

قلع يقلع . تزوج يتزوج . عاد يعود ... إلخ

أو أن هذه الأفعال فيما عدا [قنط يقنط] قد غلبت عليها المغايرة لظروف لغوية خاصة باستعمالها .

ولا بأس بعد هذا من أن نورد الأمثلة القرآنية من أفعال بابها «فعَل يفعِل» :

عقل يعقل . ظلم يظلم . عرف يعرف . فرض يفرض . عزم يعزم . ضرب يضرب . حرص يحرص . ربط يربط . قبض يقبض . سبق يسبق . بطش يبطش . كسب يكسب . ملك يملك . حلف يحلف . ليس يلبس . كذب يكذب . صبر يصبر . صدف يصدف . صرف يصرف . نبذ ينبذ . غلب يغلب. كنز يكنز . نفر ينفر . سرق يسرق . حمل يحمل . قدر يقدر . كشف يكشف . خسف يخسف . فصل يفصل . غفر يغفر . ختم يختم . فتن يفتن . قذف يقذف. عدل يعدل . نقم ينقم . قسم يقسم . هلك يهلك . نكص ينكص . نزل ينزل .

وها هى ذى الأفعال التى بابها «فعَل يفعُل» :

خلف يخلف . كتم يكتم . مكث يمكث . عمر يعمر . حسد يحسد . نكث ينكث . سكن يسكن . سلك يسلك . شكر يشكر . طرد يطرد . نظر ينظر . ترك يترك . سجد يسجد . حشر يحشر . مكر يمكر . درس يدرس . عبد يعبد . بسط يبسط . خرج يخرج . حكم يحكم . حضر يحضر . ذكر يذكر . فسق يفسق . نقض ينقض . نصر ينصر . دخل يدخل . خلق يخلق . رزق يرزق . قتل يقتل . كتب يكتب . كفر يكفر .

أما الأفعال التى جاء مضارعها مفتوح العين بسبب حرف من حروف الحلق فهى :

ذهب يذهب . نفع ينفع . لعن يلعن . فعل يفعل . بعث يبعث . قطع يقطع. طبع يطبع . فتح يفتح . جحد يجحد . نصح ينصح . سحر يسحر . خشع يخشع. جمع يجمع . رفع يرفع . ذبح يذبح . جعل يجعل . صنع يصنع . ظهر يظهر . جهر يجهر . زهق يزهق . شرح يشرح . منع يمنع .

وها هي ذى الأفعال التى لا شذوذ فى أمثلها القرآنية ، والتى جاءت من باب «فعِل يفعِل» :

نفد ينفد . عجل يعجل . شرب يشرب . رحم يرحم . سمع يسمع . شهد يشهد . علم يعلم . حسب يحسب . عمل يعمل . فشل يفشل . بخل يبخل . عهد يعهد . ركب يركب . ثقب يثقب . حبط يحبط . خطب يخطب . سخط يسخط . سخر يسخر . لبث يلبث . ضحك يضحك . عجب يعجب . حفظ يحفظ . كره يكره . طعم يطعم . فرح يفرح .

من كل هذا نستطيع أن نرجح أن اللهجات العربية القديمة قد خضعت لقواعد مختلفة فيما يتعلق باشتقاق المضارع من الماضى الثلاثى . ولعل مِن القبائل من كانوا يؤثرون صيغة «فعِل يفعِل» ، أو لعل منها من كانوا يقولون «فعَل يفعَل» إلى غير ذلك من الاحتمالات التى ستكشف عنها بحوث المستقبل .

وكل الذى نستطيع أن نؤكده هنا ، هو أن كل لهجة كانت تخضع لقواعد خاصة بها لا تحيد عنها إلا فيما تستعيره من لهجات أخرى . وقد لاحظنا فى كل ما تقدم من تغيير فى بنية الكلمات أن التغيير طفيف ، لم يمنعنا من تعرف أكثرها شيوعاً وأفصحها استعمالا(١) .

---

(١) انظر اتبعاب هذا البحث في أسرار اللغة صفحة ٣٣ .

الفصل السادس

الترادف والاشتراك اللفظي والتضاد

- ١ -

المترادفــات

شهد القرن الرابع الهجرى خلافاً بين علماء اللغة فى فكرة الترادف ، منهم من ينكرون الترادف فى ألفاظ اللغة ، ويلتمسون فروقاً دقيقة بين معانى الكلمات لاتخلو فى بعض الأحيان من التكلف والتعسف ، ومنهم من ينادون بالترادف أو يعترفون بوقوعه فى الألفاظ ، وبعض هؤلاء المؤيدين لفكرة الترادف ، يغالون فى رأيهم إلى حد أن سمحوا بمئات الكلمات للمعنى الواحد فى بعض الأحيان .

وقد لخص السيوطى فى كتابه المزهر رأى هؤلاء وهؤلاء . ويبدو من كلام السيوطى أن رواة اللغة وجامعيها كانوا فى القرن الثانى الهجرى يسلمون بقضية الترادف ولا يرونها محلا لنزاع أو جدل ، فقد روى أن أبا زيد سأل أعرابياً : ما المحنبطئ ؟ قال هو المتكأكيئ، قال أبو زيد وما المتكأكئ ؟ قال هو المتآزف ! قال وما المتآزف ؟ فسئم الأعرابى من مساءلته وقال له : أنت أحمق !!

من هذا نرى أن عالماً جليلا كأبى زيد الأنصارى كان لايرى غضاضة فى أن يعبر عن المعنى الواحد بأكثر من لفظ ، بل كان فيما يظهر يؤمن أن الأعرابى قد يحتفظ فى ذاكرته بألفاظ عدة للتعبير عن معنى واحد .

على أن بعض العلماء فى أواخر القرن الثالث الهجرى بدأوا يلتمسون فروقاً بين الكلمات التى عدّها من سيقوم من المترادفات مثل «ثعلب» . ثم جاء القرن الرابع الهجرى ونشب الجدل بين علمائه : فانتصر ابن فارس لرأى شيخه «ثعلب» وأنكر الترادف ، كذلك أنكره معه أبو على الفارسى . ولكنّ ابن خالويه وآخرين كانوا يؤمنون بفكرة الترادف ، ويعتزون بما جمعوه من كلمات كثيرة ذات معنى واحد . وكثر بعد هذا العصر أنصار الترادف ، وإن مال بعضهم إلى الاعتدال فى حصر الكلمات المترادفة . فالإمام الرازى كان يرى وجوب تقييد الترادف بعدم

التباين فى المعنى وبعدم الإتباع ، فليس من الترادف : «السيف والصارم» ، لأن فى الثانية زيادة فى المعنى ، وليس منه «عطشان نطشان» ، لأنه لا معنى للكلمة الثانية . ولكنه مع هذا اعترف بفكرة الترادف ونعى على الاشتقاقيين تعسفاتهم .

كذلك يروى أن التاج السبكى قال : لا معنى لإنكار الترادف ، والقول إن الإنسان من النسيان ، وإن البشر من البشرة .

بل إن من هؤلاء المؤيدين لفكرة الترادف من قسم هذه الظاهرة إلى فرعين، فقد ذكر السيوطى «أن ألكيا قال : هناك ألفاظ متواردة مثل : سبع وأسد وليث ، أما الترادف ففى العبارات والجمل مثل : أصلح الفاسد ولمّ الشعث ورتق الفتق» .

ونحن لا يعنينا هنا إلا البحث فى الكلمات ، ولا ننظر إلا إلى ماسماه فى تقسيمه بالألفاظ المتواردة ، وهى التى اصطلح معظم العلماء على تسميتها بالمترادفات .

وكان الأصفهانى يرى الترادف فى اللهجة الواحدة ، وينكره فى لهجتين مختلفتين . وهذه وجهة نظر سليمة تتجه إلى ما يتجه إليه المحدثون فى نظرتهم إلى الترادف .

أما هؤلاء المؤيدون لفكرة الترادف فكانوا يرون أن الاستعمال يؤيدهم ، فمثلا : «لاريب» لا تعنى شيئاً أكثر من «لاشك» . وكان ابن خالويه يفخر بأنه يعرف خمسين اسما للسيف ، وعشرات فى أسماء الأسد ، كما ألف لنا الفيروز أبادى كتيباً فى أسماء العسل .

أما الذين أنكروا الترادف فكانوا يفرقون بين معانى الألفاظ ، فيقولون مثلا : [جلس وقعد] يختلفان بعض الاختلاف ، لأن فى «قعد» معنى ليس فى «جلس» ، ألا ترى أنا نقول : قام ثم قعد ، وأخذه المقيم المقعد ، ثم نقول : كان مضطجعاً فجلس . فيكون القعود عن قيام ، والجلوس عن حالة هى دون الجلوس ! وكانوا يصفون تلك الكلمات الكثيرة التي قيل عنها إنها أسماء للجمل ، أو للثعبان ، أو للأسد ، أو للعسل ، بأنها صفات يلحظ فى كل منها أمر معين . تلك كانت حجة أبى على الفارسى فى جدله مع ابن خالويه ، فقد روى عن أبى على الفارسى أنه قال : [كنت بمجلس سيف الدولة بحلب وبالحضرة جماعة من أهل اللغة ، وفيهم ابن خالويه ، فقال ابن خالويه : أحفظ للسيف خمسين اسماً ، فتبسم أبو على وقال :

ما أحفظ إلا اسما واحداً وهو السيف ، قال ابن خالويه : فأين المهند والصارم وكذا وكذا ؟ قال أبو على هذه صفات] .

ويروى أصحاب الترادف قصصاً وأحاديث للبرهنة على رأيهم ، منها :

١ – أن أبا هريرة لقى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد وقعت من يده السكين ، فقال له ناولنى السكين ، فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ولم يفهم ما المراد بهذا اللفظ . فكرر له القول ثانية وثالثة وهو يفعل ذلك . ثم قال : «آلمدية تريد ؟» ، فقيل له نعم . فقال أو تسمى عندكم سكينا ؟ . ثم قال والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ ! .

على أننا نتردد فى قبول هذه القصة لأن كلمة «السكين» وردت فى سورة يوسف وهى مكية ، أى كانت موضع مدارسة وحفظ قبل الهجرة وبعدها ، ولاتغيب عن ذهن أحد من المسلمين الذين اتصلوا بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وتأدبوا بأدبه . والقصة فيما يظهر قد تمت وقائعها فى المدينة لأن أبا هريرة أسلم فى السنة الثامنة للهجرة . ولا نستطيع أن نتصور أن رجلا مثل أبى هريرة وهو من هو فى رواية الحديث ، والاتصال بالنبى ذلك الاتصال الوثيق ، لم يكن على علم بما نزل من سور مكية كانت تحفظ وتدرس ويتعبد بها بين المسلمين فى المدينة .

هذا إلا أن أبا هريرة كان من «دوس» وهى بطن من قبيلة بلحارث التى عاشت على مسافة غير بعيدة من مكة ، وكان أهلها على اتصال بالبيئة الحجازية قبل الإسلام ، فكيف غاب عنه مثل هذا اللفظ الشائع هناك .

٢ – كذلك يسوقون قصة أخرى أجمعت عليها كتب الأدب ، وهى : أن رجلا من بنى كلاب أو من سائر بنى عامر بن صعصعة ، خرج إلى ذى جدن من ملوك اليمن فاطلع إلى سطح والملك عليه . فلما رآه الملك اختبره فقال له : «ثب» يريد اقعد . فقال الرجل : ليعلم الملك أنى سامع مطيع ، ثم وثب من السطح ودقت عنقه . فقال الملك ما شأنه ؟ فقالوا له : أبيت اللعن ، إن الوثب فى كلام نزار الطمر «أى الوثوب إلى أسفل» . فقال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم ، من دخل ظفارِ حَمّر «أى من دخل مدينة ظفار اليمنية فليتكلم الحميرية» ! ويستدلون من هذا على أن «وثب وقعد» يعبران عن معنى واحد ، وتشير إليهما المعاجم على أنهما مترادفتان ! .

وهنا تبدو مبالغة أصحاب الترادف ، لأن البيئتين مختلفتان ، وشرط الترادف كما يقول الأصفهانى أن يكون فى بيئة واحدة كما سنرى .

٣ - كُتُب النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى القبائل قد اشتملت على كلمات لم تكن مألوفة بين قومه . ويتخذ أصحاب الترادف من هذه الكتب دليلا على وقوع الترادف فى اللغة لأن الكلمات التى استعملها صلعم كانت لها نظائر فى لهجة قريش ؛ فهى مع نظرائها تعتبر من المترادفات . ومن ذلك كتابه لوائل بن حجر أحد ملوك حمير : [إلى الأقيال العباهلة والأرواع المشابيب(١) ... إلخ] .

وعلى هذا ففى رأى أصحاب الترادف أو الذين غالوا فيه ، أن الأقيال والوزراء مترادفتان ، وأن الأرواع والسادات مترادفتان أيضاً وهكذا ... فإذا تذكرنا أن من شروط الترادف أن تنتمى الكلمات المترادفة إلى بيئة واحدة ، استطعنا بسهولة استبعاد هذا النوع من الكلمات.(٢)

أدلة الترادف لدى المحدثين :

يجمع المحدثون من علماء اللغات على إمكان وقوع الترادف فى أى لغة من لغات البشر ، بل إن الواقع المشاهد أن كل لغة تشتمل على بعض تلك الكلمات المترادفة . ولكنهم يشترطون شروطاً معينة لابد من تحققها حتى يمكن أن يقال إن بين الكلمتين ترادفاً :

١ - ومما يشترطونه الاتفاق فى المعنى بين الكلمتين اتفاقاً تاماً ، على الأقل فى ذهن الكثرة الغالبة لأفراد البيئة الواحدة . ويكتفى اللغوى الحديث بالفهم العادى لمتوسطى الناس حين النظر إلى مثل هذه الكلمات . فإذا تبين لنا بدليل قوىّ أن العربىّ كان حقاً يفهم من كلمة «جلس» شيئاً لا يستفيده من كلمة «قعد» ، قلنا حينئذ ليس بينهما ترادف .

٢ - الاتحاد فى البيئة اللغوية ، أى أن تكون الكلمتان تنتميان إلى لهجة واحدة أو مجموعة منسجمة من اللهجات . ولذلك أعجبنا برأى الأصفهانى الذى أشرنا إليه آنفاً . يجب إذاً ألا نلتمس الترادف من لهجات العرب المتباينة ،

---

(١) القيل فى لهجة اليمن كالوزير فى العهود الإسلامية ، والعباهلة الذين استقر ملكهم ، والأرواع السادات ، والمشابيب الأذكياء .

(٢) - انظر كتاب دلالة الألفاظ ٢١٩ - ٢٢٤ .

فالترادف بمعناه الدقيق هو أن يكون للرجل الواحد فى البيئة الواحدة ، الحرية فى استعمال كلمتين أو أكثر فى معنى واحد . يختار هذه حيناً ، ويختار تلك حيناً آخر، وفى كلتا الحالين لا يكاد يشعر بفرق بينهما إلا بمقدار ما يسمح به مجال القول .

ولم يفطن المغالون فى الترادف إلى مثل هذا الشرط ، بل اعتبروا كل اللهجات وحدة متماسكة ، وعدّوا كل الجزيرة العربية بيئة واحدة . ولكنّا نعتبر اللغة النموذجية الأدبية بيئة واحدة ، ونعتبر كل لهجة أو مجموعة منسجمة من اللهجات بيئة واحدة .

٣ – الاتحاد فى العصر : فالمحدثون حين ينظرون إلى المترادفات ينظرون إليها فى عهد خاص وزمن معين ، وتلك هى النظرة التى يعبرون عنها بكلمة Synchronic ، لا تلك النظرة التاريخية التى تتّبع الكلمات المستعملة فى عصور مختلفة ، ثم تتخذ منها مترادفات ، وهذه النظرة الأخيرة هى التى يسمونها Diachronic . فإذا بحثنا عن الترادف يجب ألا نلتمسه فى شعر شاعر من الجاهليين ، ثم نقيس كلماته بكلمات وردت فى نقش قديم يرجع إلى العهود المسيحية مثلا . هذا هو ما جعل ابن خالويه وأمثاله يرون للسيف ونحوه أسماء عدة . فالمتنبى حين استعمل «الصارم والبتار والهندى واليمانى» ، لم يكن يعمد إلى كلمة «الهندى» وفى ذهنه صفات خاصة تتصل ببيئة الهند التى صنع فيها ، ولم يكن يعمد إلى كلمة «الصارم» وفى ذهنه اعتبار آخر لا يراه فى كلمة أخرى كالبتار مثلا.

٤ – ألا يكون أحد اللفظين نتيجة تطور صوتى للفظ الآخر : فحين نقارن بين «الجثل والجفل» بمعنى النمل ، نلحظ أن إحدى الكلمتين يمكن أن تعتبر أصلا والأخرى تطور لها ، فإذا كان الأصل هنا هو الكلمة الأولى قلنا إن «الجفل» صيغة حضرية نشأت فى بيئة تراعى خفوت الصوت والتقليل من وضوحه ، أما إذا كانت الثانية هى الأصل ، رجحنا أن «الجثل» قد نشأت فى بيئة بدوية تميل إلى الأصوات الأكثر وضوحاً فى السمع . وسنورد فيما بعد مجموعة كبيرة من أمثال هذه الكلمات التى يعدها المحدثون مترادفات وهمية ؛ «فالجثل والجفل» ليست فى الحقيقة إلا كلمة واحدة . وهكذا يتبين لنا مغالاة أولئك الذين اعتبروا مثل هذه الكلمات من المترادفات .

فإذا طبقت هذه الشروط على اللغة العربية ، اتضح لنا أن الترادف لا يكاد يوجد فى اللهجات العربية القديمة ، وإنما يمكن أن يلتمس فى اللغة النموذجية

الأدبية ؛ ففى القرآن الكريم الذى نزل بهذه اللغة ، والذى نطق به الرسول للمرة الأولى ، نرى الترادف فى بعض ألفاظه . ولا معنى لمغالاة بعض المفسرين حين يلتمسون فى كل لفظ من ألفاظه شيئاً لا يرونه فى نظرائه من الألفاظ الأخرى . ولا بأس هنا أن نسوق بعض الآيات الكريمة التى تبرهن على وقوع الترادف فى كلمات القرآن :

١ - «تالله لقد آثرك الله علينا»	: وأنى فضلتكم على العالمين .
٢ - حتى إذا حضر أحدهم الموت	: حتى إذا جاء أحدكم الموت .
٣ - بعث فيهم رسولا	: فأرسلنا فيهم رسولا .
٤ - البلد	: القرية .
٥ - ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين	: فإن الجحيم هى المأوى .
٦ - فلا تأس على القوم الكافرين	: ولا تحزن عليهم .
٧ - وأقسموا بالله جهد إيمانهم	: ثم جاءوا يحلفون بالله .
٨ - فتوبوا إلى بارئكم	: قل الله خالق كل شىء .

ويظهر أن السّر فى إنكار الترادف ، أن أصحاب هذا الرأى كانوا من الاشتقاقيين الذين أسرفوا فى إرجاع كل كلمة من كلمات اللغة إلى أصل اشتقت منه ، حتى الأسماء الجامدة والأسماء الأجنبية عن اللغة العربية ، أبوا إلا أن يجعلوا لها أصلا اشتقت منه . فنراهم يقولون إن «إبليس» مشتق من كيت ، «جهنم» مشتقة من كذا !!!

ويقولون إنما سمى الإنسان إنساناً لأنه ينسى ، وسمى الشيطان شيطاناً لسبب تلمسوه هم واخترعوه !

ولعلّ ابن دريد فى كتابه الاشتقاق ، هو المسئول الأول عن هذه المدرسة ، فقد حاول إرجاع جميع أسماء القبائل والأمكنة المشهورة إلى أصل اشتقت منه أو سميت من أجله . فكان يقول إن قضاعة إما من قولهم انقضع الرجل عن أهله إذا بعد عنهم ، أو من قولهم تقضع بطنه إذا أوجعه !!

ثم جاء ابن فارس فبلغ بهذا الاشتقاق الذروة ، وألف معجمه الذى سماه مقاييس اللغة ، واضعاً نصب عينيه أن يجمع أكثر ما يمكن جمعه من كلمات يمكن أن تشتق لها أصول .

فإذا قلت لهم إن «القمح والبرّ» كلمتان مترادفتان ، فربما قالوا لك : إن «القمح» من قمحه أى استفّه ، ولكن البرّ من أصل آخر معناه الصلة والخير !!

هذا إلى أن بعض هؤلاء الذين أنكروا الترادف كانوا من الأدباء النقّاد الذين يستشفون فى الكلمات أموراً سحرية ، ويتخيلون فى معانيها أشياء لا يراها غيرهم ، فهم قوم شديدو الاعتزاز بألفاظ اللغة ، يتبنون الكلمات ويرعونها رعاية كبيرة ، ينقبون عما وراء المدلولات ، سابحين فى عالم من الخيال يصور لهم من دقائق المعانى وظلالها ، مالا يدركه إلاّ هم ، ولا يقف عليه إلا أمثالهم . وفى كل هذا من المبالغة والمغالاة ما يأباه اللغوى الحديث فى بحث الترادف .

فإذا أبعدت من المترادفات تلك الكلمات التى تحايل عليها من أثبتوا الترادف، وخلقوا بينها مماثلة المعنى ، كما أنه إذا أبعدت تلك الكلمات التى لم ترد فى نص لغوى صحيح النسبة ، وجدنا أنفسنا أمام عدد معقول من المترادفات فى اللغة العربية:

ويجدر هنا أن نشير إلى أهم الأسباب التى ولدت الترادف فى كلمات اللغة العربية ولدى علماء العربية :

(أ) إيثار بعض القبائل لكلمات خاصة تشيع بينها وتكاد تكون مجهولة فى القبائل الأخرى ، كما لا حظنا فى الروايات التى أشرنا إليها آنفاً مثل :

١ – شلحاء = السيف عند أهل الشّحْر .

٢ –فقح الشيءَ = سفّه عند أهل اليمن .

٣ – نقّاح المرأة زوجها يمانية .

٤ – إبل ضحضاح بمعنى كثير عند هذيل .

وتولد مثل هذه الكلمات ترادفاً فى اللغة العربية على أساس أن الجزيرة العربية كلها بيئة لغوية واحدة ؟ أما حين نطبق عليها شروط المحدثين فى الترادف فإنها تستبعد من بين الكلمات المترادفة .

(ب) استعارة كلمات من لهجة من اللهجات ، أو لغة من اللغات ، بسبب الغزو أو الهجرات ، أو الاحتكاك بين القبائل ، فيصبح للمعنى الواحد أكثر من كلمة واحدة ، وفى هذه الحالة لا تتساوى نسبة الكلمتين فى الشيوع ، بل ينظر عادة إلى الكلمة المستعارة نظرة أرقى وأسمى فى الاستعمال ، وذلك لأنها انحدرت من قوم

أرقى فى الناحية الاجتماعية أو السياسية ، أو لأنها أخف على السمع وألطف فى الجرس .

وقد أجمع الرواة على أن قريشاً كانت تتخير من كلمات القبائل فى مواسم الحج والأسواق ، ما خف على اللسان وحسن فى السمع ، حتى لطفت لهجتهم ، وجاد أسلوبهم :

كالحرير مع السندس والاستبرق ، وكاليمْ مع البحر . وقد ذكر صاحب شفاء الغليل أن [الأسطول بمعنى سفن القتال ، مما استعارته العرب وقد وقع فى أشعارهم بعد العصر الأول . وأن البند بمعنى : «العلَم» تكلمت به العرب قديماً . وأن «الجؤذر» معرب ، وتكلمت به العرب قديماً.] .

هذا إلى الفردوس مع الجنة ، والصراط مع الطريق والسبيل ، قال الجاحظ فى البيان والتبيين : أهل المدينة نزل فيهم ناس مع الفرس فعلقوا بألفاظهم فيسمون السوق البزار .

(جـ) هناك صفات تفقد عنصر الوصفية مع مرور الزمن وتصبح أسماء لايلحظ الكاتب أو الشاعر ما كانت عليه ، فيؤدى هذا إلى الترادف . ونحن نلحظ هذا بصفة خاصة ، فى تلك الكلمات العربية التى تعبر عن أشياء ذات اتصال وثيق بالبيئة البدوية ، والحياة الاجتماعية فيها .

وفيما روى للجمل والسيف والعسل من كلمات عربية كثيرة ، خير شاهد على ما تقول ، ولا سيما حين يراعى مفهومها بين الناس فى عصر معيّن . فالسيف كان يمانياً وكان هندياً وكان لكل من النوعين سمات خاصة تميز هذا من ذاك ، ولكن مثل هذه السمات قد تنوسيت وأصبح الشاعر فيما بعد يستحلّ لنفسه استعمال كل من اليمانى والمهند ، ولا يعنى بهما سوى المعنى العام المفهوم من كلمة السيف .

(د) من الكلمات ما تشترك معانيها فى بعض الأجزاء ، وتختلف فى البعض الآخر ، ويمكن تشبيهها بدوائر متحدة المركز ، ومختلفة فى جزء من سطوحها ، أو مشتركة فى جزء من السطح فقط . فإذا مر عليها زمن طويل ، ودعت عوامل تغير المعانى أن تنطبق الدوائر بعضها على بعض ، أصبحت تلك الكلمات مترادفة . لأن المعانى لا تبقى على حالة واحدة ، فقد يصبح الخاص عاماً أو يصبح العام خاصاً .

فإذا قارنا بين الكلمة [هلك] فى العربية ، وجدنا معناها فى العبرية لكل نوع من الذهاب ، فى حين أن معناها فى العربية قد تحدد فأصبح مقصوراً على نوع واحد من الذهاب وهو [الهلاك] ، وقد أدّى مثل هذا التطور إلى الترادف بين الموت والهلاك .

(هـ) المجازات المنسية قد تولد نوعاً من الترادف فى الكلمات ، فقد تستعمل بعض الكلمات استعمالا مجازياً ، يطول العهد عليه ، فيصبح حقيقة . وهنا نرى كلمات مستعملة بمعانيها الأصلية الحقيقية ، جنباً إلى جنب مع تلك التى أخذت معانيها عن طريق المجاز .

والمعانى الأصلية الحقيقية ، هى المعانى الحسية ، التى يتفرع عنها عادة عن طريق المجاز ، ما يشيع من معنويات . فالرحمة مثلا قد اشتقت من [الرحم] موضع الولد ، والمكان الذى بلد الأبناء والأخوات ، فتنشأ بينهم صلة من الحب والعطف . فلعل الرحمة فى الأصل هى عملية النسل من الأرحام ، ثم استعملت فى قديم الزمان عن طريق المجاز فى الصلة بين الذين يولدون من رحم واحد . وقد تقادمت العهود على هذا المعنى المجازى حتى أصبح حقيقة ، وبهذا نشأ الترادف بينها وبين كلمة مثل (الرأفة) .

لا نريد بعد هذا أن ننساق مع بعض العلماء حين عددوا فوائد المترادفات للكاتب والشاعر والخطيب ، لأن مثل هذا البحث قد يخرجنا عما نهدف إليه فى هذا الكتاب ، وإنما نريد الإشارة إلى ذلك النوع من الكلمات التى ظنها بعض العلماء من المترادفات ، فى حين أن اختلاف الصورة بينها ، ليس إلا ظاهرياً ، وأنها كلمات ذات أصل واحد ، وتطورت صورتها لعامل من عوامل تطور الأصوات .

وليست هذه الكلمات بمترادفات على حسب المعنى الدقيق للترادف . وقد مثل القدماء لقليل من هذه الكلمات ، دون أو يشرحوا لنا العلاقة الصوتية بينها . لهذا قمت بجمع عشرات من تلك الكلمات ، أوردها هنا مبوبة مع شرح العلاقة الصوتية بينها ، وكيف تطورت إلى صور متعددة .

الشدة والرخاوة

١ - الهمزة والهاء :

هلبت السماء القوم مطرتهم مطراً متتابعاً : ألبتْ السماء دام مطرها .

أتّه بالحجة : الهت سرد الكلام ، والهتات الكثير الكلام .

الأرّ ، رمى السلح : هرّ سلحه استطلق .

الأصر العطف : الهصر عطف شيء رطب .

أزّ : هزّ . الألس اختلاط العقل : مهتلس العقل مسلوبه .

الأبْش الجمع : الهبْش . يأشّ : يهش .

أضنّه كسره : هضنّه وطئه فشدخه . أضّ كسر : هضّ .

أراق : هراق . أزم القوم استأصلهم : هزم .

بدهه بأمر : بدأه به . درأ الرجل خرج فجأة : دره هجم وطلع .

٢ - الهمزة والعين :

بدأ الله الخلق خلقهم : بدعهم . الخباء : الخباع .

دنع الصبى خضع وذل ولؤم : الدنئ . شنأه كرهه : شنيع كريه .

الأزر التقوية : التعزيز . ألك الفرس اللجام : علكه .

الأتُم زيتُون البر . العتُّم .

٣ - الباء والميم :

كمح الدابة : كبحها . الطَبْش الناس : الطمش .

رأيته عن كثب : رأيته عن كثم . ثلّبَه : ثلمه . اطبأنّ : اطمأن .

المبخور : المخمور .

٤ - الباء والفاء :

ناقة زفون : زبون . إفّانة : إبّانه . السُكل : البسُكل .

٥ - **الضاد والظاء :**

عظّته الحرب : عضته .

ظجّ : صاح فى الحرب صياح المستغيث وبالضاد فى غير الحرب .

فاظ مات : فاضت روحه .

٦ - **الدال مع الذال أو الزاى :**

ذشّ الرجل سار : دشّ . الدغدغة : الزغزغة

فشَردْ بهم : فشرذ بهم (قراءة) .

٧ - **الجيم والياء :**

شجرات : شيرات

٨ - **التاء مع السين :**

اتخذ : استخذ

الجهر والهمس

١ - **الدال والتاء :**

المدّ : المت .

هرد اللحم أنعم إنضاجه أو طبخه حتى يهرأ : الهرْت الطبخ البالغ

فدغه شرخه : فتغة . فدرَ الفحل : فتر .

٢ - **الذال والثاء :**

بثّ الخبز نشره وفرقه : البذ من التمر المنتثر . الجثّ القطع : الجذ .

الملْث الوعد بلانية الوفاء : الملذْ الكذب . تلعثم : تلعذم .

جذوة : جثوة . جذا : جثاً .

٣ - **الجيم والشين :**

جزر قطع : الشرز القطع . جظّه طرده : شظّ القوم طردهم .

الجفن : شفنَ نظر بمؤخر عينه .

٤ - العين والحاء :

الفلح الشق وفلح الأرض شقها : فلعه شقه .

لطحه ضربه ببطن كفه أو ضرباً ليناً على الظهر : اللطْع أن تضرب مؤخر الإنسان برجلك .

أمتح النهار ارتفع : متع النهار ارتفع قبل الزوال . حظب سمِن : عظب

الحوّس الجوْس : العوس الطوفان بالليل .

خنشه عن الشىء عطفه : عنش . الحبكة : العَبكة .

٥ - الغين والخاء :

زاغ فى المنطق جار : زاخ . الخود الناعمة الراقية : الغيد .

خزز الجلد بالمخرز ثقبه : غرز الإبرة . الأخنّ : الأغنّ .

الخنّة : الغنّة .

٦ - الزاى والسين :

الحرز الموضع الحصين : حرس الشىء . غرس : غرز .

سنَخ الدهن : زنخ . زرد الدرع : سردها .

الزلَع شقاق فى ظاهر القدم وباطنه : السلعْ الشق فى القدم .

زفت الريح السحاب طردته واستخفته : سفت الريح التراب . الزفت : السفت

الإطباق والاستفال

١ - الصاد والسين :

الدخيس اللحم المكتنز : دخصت الجارية امتلأت شحماً .

الرْعس الارتعاش والانتفاض : الرعص النفض والهز وارتعص انتفض .

المغَص : المغس . ما ينبس ما يتكلم : ما ينبص .

السّقْب ولد الناقة : الصقب .

سفح الجبل عرْضه المضطجع : صفح الجبل مضطجعه .

الصراط : السراط . الصَّعوط : السعوط .

السَّنْط : الصنط . سلطه : صلطه . سفعَ : صفع .

صلغتْ الشاة : سلغت . السَّخَب : الصَّخَب . البساق : البصاق .

٢ - الظاء والذال :

ذأته خنقه : ظأته

٣ - الطاء والتاء أو الدال[1] :

غته فى الماء : غطه . هتلت السماء : هطلت .

الغلت : الغلط . دلع لسانه أخرجه : طلع .

دحمه دفعه شديداً : الطَّحوم الدفوع .

نسبة الوضوح فى السمع

هناك أصوات اتحدت فى الصفة ، ولكنها اختلفت فى نسبة وضُوحها فى السمع ، وهذه الأصوات يحل بعضها محل بعض ، كالراء مع اللام ، فإن الأولى أوضح فى السمع من الثانية ، مع أن كلا منهما من الأصوات المتوسطة الشبيهة بأصوات اللين ، وكذلك السين مع الفاء ، والحاء مع الهاء ، والثاء مع الفاء .

١ - الراء واللام :

الرَّخْف الزبد : اللَّخف . رمقه لحظه : اللمق النظر .

رَبكه خلطه : اللَّبْك الخلط . الرمز واللمز : الإشارة .

رتب رتوباً ثبت : اللَّتب اللزوم والثبات .

الخَيزَرى مشية خاصة : الخيزلى . ربَدَ أقام : لبد .

الركود السكون : لكد عليه الوسخ لزمه . جرفه : جلفه

رعلَّ : لعل . تبرَّص : تبلَّص .

---

(١) الطاء كما تنطق الآن هى الصوت المطبق للتاء ، ولكن يظهر أنه كان يتعلق بها قديماً كمطبق الدال . انظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ٥٢ .

٢ - الثاء والفاء :

جدث : جذف . الجثْل النمل : الجفل .

ثار : فار . انثجر الماء : انفجر .

الثغر الفم : فغْر الفم بابه . ثلع رأسه شدحه : الفلْع الشق .

مغفور : مغثور . ثجِل عظم بطنه واسترخى وغلظ .

٣ - السين والفاء

رجست السماء رعدت شديداً : رجف الرعد ترددت هدهدته فى السحاب .

وارتجس البناء : رجف .

الشوَس النظر بمؤخر العين تكبراً أو تغيظاً : الشّنْف النظر إلى الشىء كالمعترض عليه أو كالكاره له .

الوجْس الفزع : وجف يجف اضطرب خوفاً . سطح فطح .

السلْع الشق فى القدم : الفلع . السحَم : الفحَم .

٤ - الحاء والهاء

التحريش بين الناس الإفساد : التهريش .

ويمكن أن نعزو معظم ما تقدم من أمثلة ، إلى الاختلاف بين البيئة البدوية والبيئة الحضرية ، كما أشرنا فى موضعه . على أن منها ما يمكن أن يعزى إلى أخطاء الأطفال ، أى إنها كانت تستعمل فى البيئة الواحدة ، ولكن فى أجيال مختلفة منها .

أمّا الكلمات التى سنوردها فيما بعد فهى تختلف إما فى مجرى الصوت من الفم أو الأنف مع الاتحاد فى الصفة ، أو تختلف فى مخرج الصوت ، وذلك بانتقاله من موضعه إلى موضع آخر أيسر فى النطق ولا يحتاج إلى جهد عضلى ، أو قد تختلف فى ترتيب أصواتها .

اختلاف المجرى

الشتل غلظ الأصابع : الشثن ، غمَل الجلد : غمنه .

امتقع لونه . التقع . لعلّ . لعنّ .

أصيلالا : أصيلانا .

اختلاف المخرج

١ - الكاف والتاء

بتكه قطعه : بتّه . عَرَتَ أنفه دلكه وحكه : عرك دلكه وحكه .

الأعفت الأحمق : عِفكَ حَمَقَ جداً .

تخ تخ زجر للدجاج : كخ كخ زجر للصبى .

٢ - القاف التى كان ينطق بها فى الأصل كالغين[١] ، حلت الغين محلها فى بعض الكلمات ، ثم همست كما ننطق بها الآن فحلت الكاف محلها فى بعض الكلمات :

غثم له من المال دفع له دفعة جيدة : قثم .

الغمس الغوص : القمس . قرته الأمر : كرثه .

الدّك الدق . الدعْكة : الدعقْة .

حزقه ضغطه وشده : حزكه عصبه وضغطه . الغسق : الغسك .

القُحّ : الكح . القهْر : الكهر . القحط : الكحط .

٣ - السين والشين

الرعْس : الرعْش . الغبس الظلمة . الغبش .

معسه دلكه شديداً : المعْش الدلك الرقيق .

النسّ السوق والزجر : النشّ السوق الرقيق .

نهشه : أخذه بأضراسه بالسين أخذه بأطراف أسنانه .

سئغتْ يده تشققت وتشعث ما حول الأظافر : شئغت أصابعه تشعث ما حول أظافرها .

اختلاف ترتيب الأصوات

اللجِز : اللزج . جذب : جبذ . ربض : رضب .

صاعقة : صاقعة . عميق : معيق .

لبكتُ الشىء : بلكته . سحاب مكفهر : ومكرهب

اضمحل : امضحل .

---

(١) انظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ٧٢ .

- ٢ -

المشترك اللفظى

لابد فى الحديث عن اللهجات العربية من التعرض لنوع من الكلمات ، رويت لنا متحدة الصورة مختلفة المعنى . وقد تعود القدماء أن يسموا هذا النوع من الكلمات بالمشترك اللفظى ، لأن الكلمة الواحدة مع محافظتها على لفظها وأصواتها، تعبر عن أكثر من معنى واحد .

وقد عرض القدماء فى بحوثهم لهذه الكلمات ، فأنكرها بعضهم ، وتأول ما ورد منها بأن جعل أحد المعنيين حقيقياً والآخر مجازياً ، وعلى رأس هذا الفريق ابن درستوريه . ولكن الكثرة من علماء اللغة ، قد ذهبوا إلى ورود المشترك اللفظى، وضربوا له أمثلة كثيرة ، وعلى رأس هؤلاء الأصمعى ، والخليل ، وسيبويه ، وأبو عبيدة ، وغيرهم . بل لقد أفرد بعض هؤلاء مؤلفات خاصة سردوا فيها أمثلة المشترك اللفظى[1] .

ويظهر أن كلا الفريقين قد أسرف فيما ذهب إليه . وبعد عن جادة الصواب فى بحثه ، إذ لا معنى لإنكار المشترك اللفظى مع ما روى لنا فى الأساليب العربية الصحيحة من أمثلة كثيرة ، لا يتطرق إليها الشك . كذلك لامعنى للمغالاة فى رواية أمثلة له مع ما فى هذا من التعسف والتكلف . ولكن كما اختلف القدماء فى ورود الترادف اختلفوا أيضاً فى ورود المشترك اللفظى ، وذلك لأن كل فريق قد نظر إلى الكلمات ومعانيها من زاوية خاصة ، فالذين تأولوا أمثلة المشترك اللفظى على أنها كلها من الحقيقة والمجاز ، قد نظروا إليها نظرة تاريخية ، وتتبعوها فى عصورها المختلفة ، وتلك هى الطريقة التى سميناها آنفاً Diachronic أما الآخرون فنظرتهم وصفية واقعية ، إذ بحثوا فى الكلمات ومعانيها فى عصر خاص، وتلك النظرة التى سميناها Synchronic .

وليس الأمر من البساطة بالقدر الذى تصوره القدماء من علماء اللغة ، إذ وقع المشترك اللفظى فى كل لغة ، وقد دعت عوامل متعددة لوقوعه . فكما تتطور

---

(١) انظر دلالة الألفاظ ٢١٤ – ٢١٥ .

أصوات الكلمات وتتغير ، قد تتطور معانيها وتتغير ، مع احتفاظها بأصواتها ، وتطور المعانى وتغيرها مع الاحتفاظ بالأصوات ، هو الذى ينتج لنا كلمات اشتركت فى الصورة واختلفت فى المعنى .

ولعل أهم عامل فى تغير المعنى هو الاستعمال المجازى،[1] وليس من الضرورى أن يكون الاستعمال المجازى مقصوداً متعمداً ، كما نلحظه فى بعض الأساليب الشعرية والكتابية ، بل قد يقع من عدة أفراد فى البيئة اللغوية فى وقت واحد . ودون مواضعة أو اتفاق بينهم . فالناس فى لغة تخاطبهم قد يلجأون إلى مجازات لتوضيح معانيهم وإبرازها فى صورة جلية ، دون أن يعمدوا إلى هذا عمداً، أو يرغبوا فى إظهار براعة فى الكلام . فكما تعودوا أن يقولوا رأس الانسان ، قد يقولون أيضاً رأس الجبل ورأس النخلة ثم أخيراً رأس الحكمة ! ولا يعنون بكلمة (رأس) فى كل استعمال من هذه الاستعمالات سوى الجزء الأعلى البارز من كل شيء ، وإن اختلفت هذه الأجزاء فى تفاصيلها .

ونحن فى فهمنا لمعانى الأشياء لا نتطلب الدقائق والتفاصيل فيها ، بل نكتفى عادة بفكرة سريعة ذات ارتباط بتجاربنا السالفة . فحين نسمع للمرة الأولى استعمالا مثل [رأس الجبل] لا نحاول تحليله إلى دقائقه ، وإنما نربطه ربطاً سريعاً بتجاربنا السابقة ، التى منها فهمنا أن رأس الإنسان هو أعلى جزء فيه وأبرزه ، فنقبل هذا الاستعمال الجديد متى كان يمت بعلاقة ما لاستعمال قديم ، وهكذا تنتقل معانى الكلمات من محيط إلى آخر . وقد يكون الاستعمال الجديد من عمل فرد ممتاز فى البيئة اللغوية كشاعر أو كاتب، كما قد يكون من عمل مجموعة من الناس دون مواضعة أو اتفاق بينهم . وانتقال الكلمات من محيط دلالى إلى محيط آخر هو الذى اصطلح على تسميته بالمجازات . على أن المجازات تخضع عادة للذوق العام ، فإذا أسرف الشاعر فى مجازاته ، أو غالى فيها أو بعد بها عن بيئته لم يقبلها الذوق العام : ولا تلبث أن تموت . وحين تمر الأيام على تلك المجازات ، ويكثر استعمالها ، لا تلبث أن تنسى الناحية المجازية فيها ، وتصبح معانيها حقيقة. والبحث عن تلك المجازات المنسية أمر ليس باليسير ، لأنه يتطلب التوغل فى العصور التاريخية للبحث عن نصوص قديمة استعملت فيها الكلمات بشكل مجازى واضح ؛ أو يتطلب البحث فى تاريخ الحياة الاجتماعية لأمة من الأمم لنستطيع الوصول إلى أن المعنى الذى يبدو لنا الآن حقيقياً ، كان فى بدء استعماله مجازياً ،

---

(١) انظر دلالة الألفاظ ١٢٨ – ١٢٣ .

لما كانت عليه تلك الأمة من تقاليد كذا وكذا . وكل تغير فى الحياة الاجتماعية يستتبع تغيراً فى معانى بعض الكلمات التى قد تحتفظ بصورتها ، وينشأ من هذا ما نسميه بالمشترك اللفظى . فمثلا الكلمة التى تعبر فى كل اللغات الأوربية عن [الكهرباء] قد اشتقت من كلمة إغريقية قديمة كانت تعنى ذلك الحجر المسمى بالكهرمان ؛ وذلك لأن الكهرمان كان معروفاً منذ القدم بأنه يجذب بعض المواد الصغيرة بعد حكه . ولسنا الآن نشك فى أن الكلمتين اللتين تعنيان فى اللغات الأوربية كهرباء ، كهرمان ، من أصل إغريقى واحد ، رغم أنهما عربتا بصورتين مختلفتين بعض الاختلاف .

وشرط المجاز فى رأيى ، أن يثير عند سماعه دهشة أو غرابة ، أى يحس السامع أو القارئ أن فى استعمال الكلمة بهذا المعنى أمراً غير عادى يبعد قليلا أو كثيراً عن مألوف الناس وفهمهم لمثل هذه الكلمة . فليس من المجاز ما يحدثنا به علماء البلاغة من أن فى قول القائل «حكمت المحكمة» مجازاً ، ولا فى «جرى النيل» ، «طلعت الشمس» ، «ركب المخاطر» ، ونحو ذلك من أساليب تنوسيت فيها الناحية المجازية ، وأصبحت من الشيوع والدوران بحيث لا تثير فى الذهن دهشة أو غرابة .

أما حين تحلل مثل هذه التراكيب وينظر إليها النظرة التاريخية ، فيمكن أن يقال إنها حين استعملت للمرة الأولى – ولا ندرى متى كان هذا – قد أثارت فى أذهان الناس تلك الدهشة أو الغرابة التى نتطلبها فى المجاز .

المعانى إذاً لا تبقى على حال واحدة بل هى دائمة التغير ، وإن كان تغيرها بطيئاً ، يمر فى أجيال قبل أن نشعر به أو نتعرف عليه ، وكما يصيب التغير بعض الأصوات دون البعض الآخر ، كذلك نرى تغير المعانى مقصوراً على بعضها دون البعض الآخر ، وذلك لتلك الظروف اللغوية الخاصة التى قد تطرأ على بعض الكلمات فقط . وكما قد تحافظ بعض الكلمات على أصواتها ولفظها ، وكذلك قد تحافظ بعض الكلمات على معانيها .

أما أهم العوامل التى تسبب تغير المعانى ، فيمكن أن نلخصها فيما يلى :

(أ) الانتقال من الحقيقة إلى المجاز :

وهذا هو أهم العوامل ، وإليه يمكن أن يعزى معظم اختلافات المعانى وتغيرها .

والمجازات قد تكون من عمل الأفراد الموهوبين فى شعر أو نثر ، كما قد تكون من عمل جماعة من الناس فى البيئة اللغوية . ومجازات الشعراء والكتاب حين يعمدون إليها فى أساليبهم للمرة الأولى ، تصدر منهم عمداً ، ولغاية خاصة ، أما المجازات الأخرى فإنما يدعو إليها تغير فى الحياة الاجتماعية ، أو تقدم فى الحياة العقلية . وهنا قد ينتقل المعنى الحسى إلى مجال المعنويات .

(ب) سوء فهم المعنى :

قد يسىء الطفل فهم معنى الكلمة فى البيئة المنعزلة ثم ينشأ هذا الطفل دون أن يصلح له ما فهم ، فتراه يستعمل الكلمات فى معنى جديد ، إن لم يكن مخالفاً للمعنى الأول كل المخالفة ؛ فلا أقل من أن نرى بين المعنيين بعض الاختلاف ؛ فتغير المعانى قد يكون من أخطاء الأجيال الناشئة .

وليس من السهل التمييز بين الكلمات التى اختلفت معانيها بسبب استعمال مجازى ، وبين تلك التى تعددت معانيها بسبب أخطاء الأطفال ، على أنه يمكن بوجه عام أن ننسب تغير المعانى فى كلمة من الكلمات إلى عبث الأطفال ، حين لا نلحظ علاقة واضحة بين المعنى القديم والمعنى الجديد . وحكمنا فى هذه الحالة مرجح لا مؤكد ؛ لأن بعض المجازات المنسية قد نشأت فى ظروف لغوية خاصة، ومضى عليها زمن طويل فأصبح من الصعب الكشف عنها .

(حـ) قد تستعير اللغة كلمات تماثل صورتها كلمات أخرى فيها ، وإن اختلف معناها . وهنا قد نرى كلمتين متحدتين فى الصورة ، مختلفتين فى المعنى ولكن كلا منهما ينتمى فى الأصل إلى لغة مستقلة . ومثل هذا النوع من الكلمات نادر وهو وليد المصادفة ، ولكنه قد يولد لنا المشترك اللفظى(١) .

«فالبُرْج» بمعنى الحصن قد استعارته اللغة العربية من اللغة اليونانية ، فليست بلاد العرب بيئة للحصون والأبراج ، ومع هذا تشتمل اللغة العربية على هذه المادة «برج» وتتخذها فى عدة معان لا تمت للحصون بصلة ما ، فهى مادة عربية أصيلة . فإذا تصادف أن كان بين كلمات اللغة العربية كلمة مشتقة من هذه المادة للتعبير عن صفة خاصة فى العين ، أو للتعبير عن الزينة والتزّين وجاءت على صيغة «البرْج» . ولد هذا فى اللغة ما يسمى بالمشترك اللفظى .

---

(١) خير مثل لهذا فى اللغة الإنجليزية كلمة Race بمعنى سباق من أصل جرمانى ، وبمعنى جنس من أصل لاتينى .

ويظهر أن صاحب شفاء الغليل قد فطن إلى إمكان وقوع هذه الظاهرة فى اللغة ؛ بدليل قوله : [لا يضرّ المعرب كونه موافقاً للفظ عربى «كسكر» فإنه معرب وإن كان عربى المادة بمعنى أغلق . قال تعالى «سكرت أبصارنا» . كذلك لا يضر ما صحت عربيته موافقته لفظاً فارسياً أو قربه منه كضنك وتنك وجناح وكناه] .

(د) قد يتغير معنى الكلمة فى لهجة من اللهجات ، ثم يمر زمن طويل خلاله ينسى المعنى الأصلى ، وتلتزم تلك اللهجة استعمال هذه الكلمات فى معناها الجديد دون سواه . وهنا نرى لهجات اللغة الواحدة تستعمل كلمات متحدة الصورة فى معان مختلفة . ويظهر أن هذه الظاهرة قد لعبت دوراً مهمّاً فى اللهجات العربية إذ تغيرت معانى بعض الكلمات فى بعض اللهجات دون البعض الآخر لظروف لغوية خاصة . فلما جمعت اللغة خيل لجامعيها أن إحدى القبائل تستعمل هذه الكلمة فى معنى من هذه المعانى . فى حين أن قبيلة أخرى تستعملها فى معنى آخر . والحقيقة أن معنى هذه الكلمة قد تغير فى لهجة من اللهجات دون أن يطرأ عليه تغيير فى اللهجة الأخرى .

فحين تذكر لنا المعاجم القديمة أن «الهجرِس» تعنى القرد فى الحجاز . وتعبر عن الثعلب عند تميم ، لا نشك فى أن الكلمة كانت تطلق على أحد الحيوانين وحده لأن البيئة الصحراوية تناسبه ويكثر فيها أمثاله . ثم تغير هذا المعنى لظرف من الظروف المجهولة لنا ، فأصبح يعنى عند قبيلة من القبائل شيئاً آخر غير الشائع المألوف . ثم جاء جامعو اللغة وذكروا لنا معنيين لهذه الكلمة الواحدة .

(هـ) هناك كلمات كانت تستعمل فى الأصل مختلفة الصورة والمعنى . ثم تطورت صورة بعض منها حتى ماثلت البعض الآخر . وهكذا رويت لنا متحدة الصورة مختلفة المعنى . فاشتراك الصورة فى مثل هذه الكلمات لم ينشأ عن اشتراكها فى المعنى الأصلى . وإنما نشأ عن تغير فى أصوات بعضها ؛ ترتب عليه مماثلة فى اللفظ ، واختلاف أصلى فى المعنى .

ونحن حين نستعرض أمثلة المشترك اللفظى ، كما رويت لنا فى المعاجم العربية ونحاول إرجاعها إلى العوامل المتقدمة . نراها من الكثرة والاضطراب فى روايتها بحيث تعيى الباحث المدقق عن الحكم عليها حكما قاطعاً . وكيف يمكن القطع فيها برأى مع جهلنا بالحياة العربية قبل الإسلام . هذا إلى أن تلك الكلمات مرت فى أحقاب بعيدة ، وفى ظروف اجتماعية مجهولة ، قبل أن تروى لنا على هذه الصورة التى نشهدها فى المعاجم . وكل الذى نستطيع تأكيده بصددها ، أن

معانيها قد تغيرت مع احتفاظها بصورتها ، أو أن صورتها قد تغيرت مع الاحتفاظ بمعانيها ، أما سبب التغير فأمر أقرب إلى الترجيح منه إلى مرتبة اليقين .

وليس هناك ما نستدل به على تغير المعانى فى بعض الكلمات خير من تلك الأخطاء الإنشائية الشائعة بين تلاميذها ، وفى بعض صحفنا حين تستعمل بعض الكلمات فى معان لم ترد فى المعاجم .

وكلنا يعلم أن مدرس اللغة العربية فى صراع مستمر فى تلك المعانى الجديدة لكلمات قديمة ، ينكرها حيناً ويقبلها حيناً آخر ، دون أن يعلم الظروف التى أدت إلى مثل هذا التغير فى المعنى . فقليل من التلاميذ من يستعملون كلمة مثل (العتيد) أو (عيال) فى معناهما الذى روته المعاجم . وقد اشتملت لغة كلامنا على كلمات كثيرة عربية الأصل ، احتفظت بصورتها فقط ، دون معناها الأصلى .

وكان أساتذتنا يأبون علينا استعمال «التكاتف» بمعنى التعاون ، ويرفضون قبول «كرس حياته لكذا» ، كما علمونا أن الثوب المهلهل هو الرقيق المنسج الذى يكاد يشف عمّا تحته ، وليس الخلق الممزق كما قد يتبادر لبعض الأذهان .

هذا إلى ما شاع فى لهجات كلامنا الآن من استعمال «السبع» مقصوراً على الأسد ، وبص يبص بمعنى نظر ، والتبجّح بمعنى المغالاة فى الجرأة مع وقاحة واستهتار ، وطبّ عليه أى فاجأه ، وباش يبوش أى ذاب .

بقى أن نلقى نظرة سريعة فى بطون المعاجم اللغوية لنلتقط منها بعض الأمثلة العربية التى توضح لنا اضطراب الرواية فى معانى الكلمات وصعوبة الكشف عن العلاقة بينها :

١ – فالليث من معانيه : الأسد ، وضرب من العنكبوت ، واللسن البليغ !! فكيف عبرت هذه الكلمة عن كل هذه المعانى ، وما الظروف اللغوية التى ترتب عليها مثل هذا الاختلاف ؟

٢ – وما العلاقة بين المعانى التى رويت لكلمة الفخْت : ضوء القمر ، نشل الطباخ الفِدرة من القدرة ، ثقوب مستديرة فى السقف ! ؟

٣ – وكيف عبر بكلمة (البلد) عن :

مكة ، كل قطعة من الأرض مستحيرة عامرة ، التراب ، القبر ، الدار، الأثر !؟

٤ – وكيف التقت المعانى الآتية فى كلمة النجم ؟

الكواكب . نبات نجم على غير ساق ، الوقت المضروب والأصل إلخ !

غير أننا نلحظ العلاقة واضحة جلية بين معانى بعض الكلمات مثل :

١ – الجبل : ما علا من الأرض . سيد القوم . عالمهم .

٢ – التفاحتان : رءوس الفخذين فى الوركين .

٣ – العنبة : بثرة تخرج بالإنسان .

والذى نلحظه بصفة عامة أن كثيراً من الكلمات التى تسمى بالمشترك اللفظى تجمع بين معنيين . أحدهما حسى والآخر معنوى . ولاشك أن المعنى الأصلى فى مثل هذه الحالة هو الحسى ، وأن المعنوى فرع عنه بطريق المجاز .

وقد عنى الزمخشرى فى معجمه أساس البلاغة بتبيان المعانى الحقيقية والمجازية للكلمات ، ولكنه لم يوفق فى كل حالة ، فقد ضل الطريق حين حاول اشتقاق معنى حسى ، من آخر معنوى ، مع أن الذى أجمع عليه المحدثون من علماء اللغات هو أن المعانى الحسية أسبق فى الوجود . وأجدر بأن تعد المعانى الحقيقية ، وغيرها فروع لها عن طريق المجاز . وقد وقع فى الزلل نفسه بعض الرواة المشهورين مثل : أبى عمرو بن العلاء حين روى قصة اشتقاق الخيل من الخيلاء . وقال لصاحبه مؤيداً هذا الزعم ألا تراه يمشى العِرضْنة ؟

وليت شعرى كيف يمكن هذا مع أن الناس قد عرفوا الخيل قبل أن يعرفوا الخيلاء ! فإذا صح أن هناك علاقة بين الخيل والخيلاء . فالأولى أن يقال إن الخيلاء من الخيل لا العكس .

ولا بأس هنا أن نورد بعض الأمثلة التى وردت فى أساس البلاغة ؛ لنؤيد ما نذهب إليه من أن المعانى الحسية ، أسبق فى الوجود ، وأنها مصدر الاشتقاق لغيرها من الكلمات :

١ – الجُبن مشتق من الجبّانة والجبّان أى الصحراء .

٢ – جثم الطائر مشتق من الجثمان .

٣ – دبج بمعنى زيّن مشتق من الديباج .

٤ – جدثوه غيبوه فى الجدث .

٥ – خيمَ الظلام من الخيمة .

ولهذا لا نتجنى على اللغة حين نرجح أن معظم المعنويات التى لا ندرك لها مصدر اشتقاق ، والتى تبدو لأول وهلة حقيقية المعانى ، ليست فى الحقيقة إلا مجازات منسية .

على أن البحث والتنقيب يوقفنا فى معظم الأحيان على المعانى الحقيقية الأصلية لتلك المعنويات فانظر مثلا :

١ – الرطانة وهى العجمة فى النطق قد اشتقت أصلا من معنى حسى هو : إذا كثرت الإبل وكانت رفاقا ومعها أهلها فتسمى الرطانة ، والعلاقة بين المعنى الأصلى والمعنى الفرعى هى الجلبة مع الإبهام .

٢ – وكذلك البطلان التى منها الباطل ضد الحق جاءت من كلمة الباطل بمعنى إبليس . وقد ورد المعنى الأصلى فى القرآن الكريم (وما يبدئ الباطل وما يعيد) .

٣ – الطمع فى الأصل معناه رزق الجند .

٤ – السفاهة فى الأصل من سفهت الطعنة أسرع منها الدم وجف .

ولكن حين يسائل المرء نفسه عن المعانى الأصلية للجوع والعطش والرعب والفرح ، لا يكاد يعثر على معان حسية تعدّ مصادر الاشتقاق لها . ولعلّ هذا لأن مثل تلك المعنويات قديمة بعيدة القدم ، ولا سبيل إلى التوغل في تاريخ الإنسان لتعرف كيف عرف الجوع والعطش ، أو الخوف والفرح أول الأمر ، وكيف بدأ يشتق كلمات تعبر عنها ؟

وقد يكون من العبث أن نسرف هنا فى ذكر أمثلة لما يسمى بالمشترك اللفظى ، لأن المعاجم العربية قد ملئت بها . ومن اليسير الوصول إليها بمجرد الكشف فى القواميس ، ومن اليسير أيضاً إرجاع تلك الأمثلة التى يعثر عليها إلى عامل من العوامل الآنفة الذكر .

غير أنا سنعنى هنا بالعامل الأخير من عوامل المشترك اللفظى ، لأن القدماء لم يشيروا إليه ، أو لم يفطنوا لإمكان حدوثه ، وهو أن بعض الكلمات لم تشترك فى اللفظ إلا بعد تطور فى أصوات بعضها ، وأن هذا الاشتراك فى اللفظ لم يكن فى الحقيقة إلا وليد المصادفة ، فانظر مثلا إلى الكلمات الآتية :

١ – روت المعاجم أن (التغَب) لها معنيان غير ظاهرى العلاقة ، وهما الوسخ والدرن ، والقحط والجوع . ثم فى موضع آخر نجد أن «السغَب» معناه

الجوع !

ويظهر أن كلمة «السغَب» قد تطورت فى لهجة من اللهجات ، ولظرف من الظروف الخاصة ، حتى أصبحت [التغب] من المشترك اللفظى . وقد يستأنس لهذا الرأى بما روى عن بعض قبائل اليمن من ميلها إلى قلب السين تاء ، فيقولون (النات) بدلا من [الناس] . فلعل كلمة (السغب) قد نطق بها فى القبائل اليمنية (التغب) ، مع احتفاظها بمعناها وهو الجوع ، ثم جاء جامعو المعاجم ونسبوا معنيين مختلفين لكلمة (التغب) ، وعدوها من المشترك اللفظى .

٢ - حربه حرباً سلبه ماله ، وحرِب حربا اشتد غضبه ، وعلى هذا فكلمة (الحرَب) من المشترك اللفظى فى رأى أصحاب القواميس !

والحقيقة أن المعنى الأول لهذه الكلمة هو معنى الفعل [حرمه] نفسه فلما قلبت الميم «باءً» فى لهجة من اللهجات العربية كلهجة مازن مثلا ، التبس الفعل (حرمه) بمعنى سلبه ، بالفعل حرِب بمعنى اشتد غضبه .

٣ - «قطب» زوى ما بين عينيه وكلح كقطّب ، والشىءَ قطعه ! فهل نلحظ علاقة ما بين التقطيب فى الوجه وقطع الشىء ؟ اللهم لا ! على أن أصحاب المعاجم قد عدوا هذا من المشترك اللفظى ، ولو أنهم رجعوا إلى الفعل (قطم) لرأوه بمعنى قطع ، ولما قلبت الميم منه إلى «باء» ، ظهر لهم فعل ظنوه جديداً وهو (قطب) بمعنى قطع ، ونسبوا له الاشتراك اللفظى .

٤ - جاء فى مادة [سحب] أن لهذا الفعل معنيين ، هما :

(أ) جرّه على وجه الأرض .

(ب) أكل وشرب أكلا شديداً .

فهل هنا علاقة ظاهرة بين المعنيين بحيث نقول إن أحدهما فرع عن الآخر؟ أليس الأصوب أن نبحث عن المعنى الثانى فى مادة (زعب) التى فيها (تزعّب) فى أكله وشربه أكثر ، فلما همست الزاى والعين أصبحتا سينا وحاء ؟

وهكذا التبس لفظ الفعلين ، وحسب القدماء الفعل (سحب) من المشترك اللفظى .

٥ - وقد خلطت المعاجم بين مادتى (لزب) و (لسب) فنسبت لكل منهما معنيين هما : السوق ولد العقرب أو الحية : فقد جاء فى قاموس المحيط اللزوب :

اللصوق ، لزبته العقرب لدغته ، لسب به لصق ، لسبته الحية لدغته !!

وكان الأولى أن ينسب أحد المعنيين إلى المادة الأولى ، والمعنى الثانى إلى المادة الأخرى . ولكن التطور الصوتى فى إحدى المادتين ، وذلك بهمس الزاى لتصبح سيناً ، أو بجهر السين لتصبح زاياً . قد أوقع القدماء فى اللبس ، وجعلهم يخلطون بين معنيين بعيدى العلاقة .

٦ - أليس من الإسراف والمغالاة أن نجارى المعاجم العربية فنقول إن مادة (نسب) من المشترك اللفظى لأن من معانيها : نسبه ذكر نسبه . وأنسبت الريح اشتدت ؟ فى حين أنا نرى فى موضع آخر [أنشبت الريح اشتدت] ! أو ليس الأقرب إلى الصواب أن نقول إن التطور الصوتى فى الفعل (أنشبت الريح) ، قد أدى إلى قلب الشين سيناً ، فالتبس الأمر على جامعى اللغة ؟

٧ - الخبْت : المتسع من بطون الأرض ، والخبيت الحقير ! هذا هو ما رواه صاحب قاموس المحيط . ولعمرى كيف استباح لنفسه أن ينسب لهذه الكلمة شيئاً من ظاهرة الاشتراك اللفظى مع وجود كلمة (الخبيث) بالثاء وشهرتها ، واحتمال قلب الثاء إلى التاء مما أدى إلى اللبس بين المادتين .

٨ - المحْت : الشديد ، اليوم الحار ، والخالص !

قد يعدّ بعض الناس مثل هذه الكلمة من المشترك اللفظى دون علاقة واضحة بين هذه المعانى ، فى حين أننا نعلم أن كلمة (البحْت) معناها الخالص ، وأن قلب الباء منها إلى ميم ، قد أدى إلى نسبة معنى الخالص إلى (المحت) ، مع مالها من معان أخرى .

٩ - فحث عنه كمنع فحص ، والفحِث حية عظيمة لا تؤذى !

فليت شعرى ما العلاقة بين هذين المعنيين حتى نجعلهما من مشتقات مادة واحدة ؟ أليس الأجدر أن نقول إن المعنى الأول متفرع عن الفعل (بحث عنه) ؟ فلما قلبت الباء إلى الفاء ، وكلاهما من الأصوات الشفوية ، أدى هذا إلى اللبس بين المادتين ؟

تلك هى أمثلة قليلة ، أردنا أن نوردها لتوضيح ما نعنى من أن ظاهرة الاشتراك اللفظى ، قد تكون فى بعض الأحيان نتيجة تطور صوتى فى بعض الكلمات .

ولا شك أن الباحث فى بطون المعاجم العربية سيعثر على مئات من أمثال تلك التى أوردناها هنا .

- ٣ -

التضـــاد

لا يتم الحديث عن المشترك اللفظى إلا بالتعرض لتلك الكلمات التى رويت لنا متضادة المعانى ، والتى اصطلح القدماء على تسميتها بالأضداد . وأشهر من عنى بتلك الكلمات وجمعها بين مؤلفى العرب ، هو ابن الأنبارى فى كتاب له سماه أضداد ، أحصى فيه ما ينيف على أربعمائة كلمة ، ولكنه تعسف فى اختياره ، وتأول كثيراً من معانى الكلمات .

ويجدر بنا أن نسوق بعض الأمثلة التى وردت فى كتاب ابن الأنبارى ، ومنها نرى إلى أى حدّ بلغ التكلف والتعسف بالمؤلف ، ليجعل منها كلمات متضادة .

١ - يذكر ابن الأنبارى أن «عسعس الليل» معناه أقبل أو أدبر !! ثم يسوق بعض الشواهد الشعرية للبرهنة على ما يقول ، وليس من بين هذه الشواهد ما هو منسوب لصاحبه إلا بيتان أحدهما لامرئ القيس والآخر لعلقمة بن قرط . على أن الفراء قد وصف ما نسب لامرئ القيس بأنه موضوع مصنوع ، أما بيت علقمة فمعنى «عسعس» فيه هو أدبر ، إذْ قال :

حتى إذا الصبح لها تنفسا وانجاب عنها ليلها وعسعسا

فإذا رجعنا إلى القرآن الكريم وجدنا الكلمة قد وردت فيه مرة واحدة ومعناها فى الآية هو «أدبر» فقط ، قال تعالى : [والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس] .

٢ - يزعم ابن الأنبارى أن «الندّ» معناه المثل والضدّ ، وقد حاول أن يفسر «أندادا» فى القرآن الكريم على المعنيين ، وفى هذا من التكلف ما فيه ، ذلك لأن الآيات القرآنية لا تحتمل إلا معنى واحداً ، قال تعالى :

«فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون» .

«ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله» .

وما رواه من شعر منسوب للبيد ولحسّان ، لا يستفاد منه إلا معنى واحد لكلمة «النِدّ» وهو المثل . قال لبيد :

أحمد الله فلا نِدَّ له ... بيديه الخير ما شاء فعلْ

وقال حسان بن ثابت :

أتهجوه ولست له بنِدّ ... فشرّكما لخيركما الفداءُ

٣ - أليس من التكلف والتعسف أن تجعل «الإسرار» بمعنى الإظهار ، كما يقول ابن الأنبارى ، مفسراً الآيتين الكريمتين : [وأسروا النجوى الذين ظلموا] ، [وأسروا الندامة لمّا رأوا العذاب] على هذا المعنى !؟

إن الآيات الأخرى التى وردت بالقرآن مشتملة على هذه الكلمة لا تحتمل إلا معنى واحداً وهو ضد الإظهار :

«ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً» .

«فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم» .

«والله يعلم ما تسرون وما تعلنون» .

إلى غير ذلك من آيات كثيرة .

٤ - نعرف أن المعنى الشائع لكلمة «البيْن» هو الفراق ، ولكن ابن الأنبارى يزعم أن لها معنى آخر هو الوصل ، ويستشهد على هذا بقراءة من قرأ : «لقد تقطع بينكم» ! ولكن القراءة المألوفة والمشهورة هى «لقد تقطع بينكم» أى ما بينكم من صلة ، فلا تحتمل الكلمة تضاداً أو ما يشبه التضاد .

٥ - المشهور فى معنى «عفا المكان» هو درس ونسى أمره . ولكن ابن الأنبارى يتصور لها معنى ضدياً بجانب المعنى الأصلى ، ويستشهد بقوله تعالى : «ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مسّ آباءنا الضراء والسراء» . ويفسر «حتى عفوا» هنا قائلا : أى كثروا !

ويظهر والله أعلم أن المعنى : حتى اندرس أمرهم ونُسى ، وحينئذ لا تضاد. أماحديث (أن تحفى الشوارب وتعفى اللحى) فليس معنى إعفاء اللحى تكثير شعرها كما يزعم ابن الأنبارى ، وإنما يكون بتركها وإعفائها من الإحفاء والقصّ .

٦ - حتى الكلمات المصحفة يتخذ منها ابن الانبارى كلمات متضادة ، فيقول : إنّ «سمل» لها معنيان : أصلح بين القوم وفقأ عين فلان !! ويظهر أن «سمل» بمعنى أصلح بين القوم ليست فى الحقيقة إلا «شمل» بالشين ، وقد جاءت إلى المؤلف مصحفة فى شاهد من الشواهد .

كذلك قوله فى «برّد» بمعنى سخّن مستشهداً بقول الشاعر :

عافت الشرب فى الشتاء فقلنا   بَرّديه تصـادفيه سـخينا

ورواية البيت يجب أن تكون :

عافت الشرب فى الشتاء فقلنا   بلْ رِديه تصـادفيه سـخينا

٧ – مادة «قسط» تفيد معنى العدل ، وقد استعملت فى القرآن الكريم أكثر من عشرين مرة ومشتقاتها بهذا المعنى . ولكنها استعملت اسم فاعل من الثلاثى فى سورة الجن للتعبير عن معنى مضاد للعدل ، قال تعالى :

«وأنّا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا» .

على أن القرآن قد وردت فيه آيتان فى كل منهما «أقسط» بمعنى أعدل :

«ذلكم أقسط عند الله وأقوم» ، «ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله» . وأفعل التفضيل لا يكون إلا من الثلاثى ، فكيف تأتى أن يقول اللغويون إن الثلاثى من هذه المادة لا يفيد معنى العدل !

ويظهر والله أعلم أن استعمال «القاسطين» بمعنى الظالمين ، ليس إلا تأدباً فى الخطاب أمام الله ، وتحاشياً لذكر كلمة الظلم أمامه سبحانه وتعالى . ويمكن أن تؤول الشواهد التى ساقها المؤلف ؛ للبرهنة على أن «قسط» بمعنى «ظلم» على هذا النحو من التأول ، فمن بينها «قسطوا على النعمان» ، ومقام الكلام عن علاقتهم بملك عظيم كالنعمان يقتضى هذا الاستعمال .

٨ – وأخيراً يقال لنا إن «الجلل» معناه العظيم والقليل ، ويستشهد عادة للبرهنة على هذا بقول الشاعر :

كل شىء ما خلا الموت جللْ   والفتى يسعى ويلهيه الأملْ

فالمعنى هنا : قليل حقير .

ويقول الآخر :

قومى همو قتلوا أميم أخى   فإذا رميت يصيبنى سهمى

فلئن عفوت لأعفونْ جللا   ولئن سطوت لأوهننْ عظمى

فدل الكلام على أنه أراد فلئن عفوت لأعفون عفواً عظيما لأن الإنسان

لايفخر بصفحه عن ذنب صغير !

ولكنا حين نتأمل الظرف الذى قيل فيه هذان البيتان ، وما اكتنف قولهما من ملابسات ، نرى أن الشاعر يريد أن يعتبر العفو عن قتل أخيه أمراً بسيطاً ، إذا قيس بما سيترتب على وقوع الشحناء بين قومه ، من حرب أهلية توهنهم جميعاً وتذهب بقوتهم .

أما ابن سيده والسيوطى فقد اعتدلا فى اختيار الأضداد ، ولم يسرفا فى تلمس العلاقة بين الكلمات ، فجاء ما أحصياه نحواً من مائة كلمة .

والضدية نوع من العلاقة بين المعانى ، بل ربما كانت أقرب إلى الذهن من أية علاقة أخرى . فمجرد ذكر معنى من المعانى ، يدعو ضد هذا المعنى إلى الذهن ، ولا سيما بين الألوان . فذكر البياض يستحضر فى الذهن السواد . فعلاقة الضدية من أوضح الأشياء فى تداعى المعانى . فإذا جاز أن تعبر الكلمة الواحدة عن معنيين بينهما علاقة ما ، فمن باب أولى جواز تعبيرها عن معنيين متضادين؛ لأن استحضار أحدهما فى الذهن يستتبع عادة استحضار الآخر ؛ فالتضاد فرع من المشترك اللفظى ، وعوامل تكونّ المشترك اللفظى فى اللغات ، وقد أشرنا إليها أنفاً ، تصلح أيضاً أن تكون عوامل الأضداد . فكلمة «الهاجد» معناها النائم والساهر ، وجاء فى القرآن الكريم «ومن الليل فتهجد به نافلة لك» ، ولا يحتمل الفعل هنا إلا معنى واحداً وهو السهر ، غير أنه قد روى لنا أن المرقش يقول:

سرى ليلا خيال من سليمى ... فأرّقنى وأصحابى هجودُ

فمعنى هجود فى شعر المرقش هو «نيام» لا نزاع فى هذا . فكيف نفسر وقوع هذا التضاد إلا عن طريق الأخطاء ، التى يمكن أن تنسب إلى الأجيال الناشئة . فقد كان للكلمة معنى واحد . ولكن لقلة شيوعها فهمت فى بيئة من البيئات على معنى آخر ، ونما هذا الفهم وذاع فى الجيل الناشئ ، ثم أصبح معترفاً به فى اللغة النموذجية الأدبية ، فاستعمل القرآن هذه الكلمة بمعنى ، واستعملها المرقش بمعنى مضاد للمعنى الأصلى . وقد تم مثل هذا التطور فى عصور الجاهلية قبل نشأة اللغة النموذجية وازدهارها . غير أنه من الممكن أن يضاف إلى تلك العوامل ما يأتى :

(أ) التطير :

إن غريزة التفاؤل والتشاؤم من غرائز الإنسان التى تسيطر على عاداته فى التعبير إلى حد كبير . فإذا شاء التعبير عن معنى سيئ ، تشاؤم من ذكر الكلمة الخاصة به، وفر منها إلى غيرها ؛ فجميع الكلمات التى تعبر عن الموت والأمراض ، والمصائب والكوارث ، يفر منها الإنسان ويكنى عنها بكلمات حسنة المعنى ، قريبة إلى الخير . وأوضح ما تكون هذه الغريزة بين النساء وفى الأوساط التى نالت حظاً ضئيلا من الثقافة . وأقرب المعانى إلى كلمات التشاؤم ، هى أضدادها من كلمات التفاؤل . لهذا عبر فى اللغة العربية عن الأسود بالأبيض تجنباً لذكر لفظ السواد وعبر عن المكان المحفوف بالمخاطر ، بالمفازة . ومن ذلك ما جاء فى اللسان من أن [العِدّ الكثير عند تميم والقليل عند بكر بن وائل] .

ولا تختص بهذا قبيلة دون أخرى ، بل قد يجوز أن تعبر اللهجة الواحدة بلفظ واحد أساسه الخير ، عن الخير والشر . ويتوقف الأمر على قوة غريزة التطيُّر بين أفراد القبيلة ، وما أصابوه من ثقافة .

(ب) التهكم :

ويلحظ هذا بصفة خاصة بين الشباب ، فهم لرغبتهم فى الخروج عن القواعد المألوفة فى التعبير ، وحبهم للتجديد فى الكلام ، وإظهار مهارتهم فى تخيّر الكلمات ، يلجأون أحياناً إلى التعبير عن الشيء بكلمة مضادة ، هازئين ساخرين . ويغلب أن يكون هذا النوع من التعبير بين الخاصة من الناس ، القادرين على التفنن فى القول ، وعلى كل حال يؤدى آخر الأمر إلى وقوع كلمات متضادة المعنى . ويعزى إلى الظاهرة ، وقوع كلمات متضادة مثل (القشيب) التى تعبر عن «الجديد فى غالب الأحيان ، وعن «الخلق» فى القليل من الأحيان ، ومثل يا «عاقل» التى قد تقال للمجنون ، وكلمة «سليم» التى قد تقال للملدوغ ، وكذلك «لمقت» الشيء بمعنى كتبته فى لهجة عقيل ، وبمعنى محوته عند قبائل قيس .

ولاشك أن عاملى التطير والتهكم مرتبطان أحدهما بالآخر بعض الارتباط ، وأن التضاد فى معنى الكلمة قد يفسر تبعًا لعامل التطيّر مرة ، ويفسر تبعاً لعامل التهكم مرة أخرى ، لأن الظروف الاجتماعية التى مهدت لتطور معانى الكلمات ، كثيرة ومعقدة ، وليس من السهل تعيين الملابسات التى اكتنفت هذا التطور فى كل الحالات فمثلا :

١- يقول ابن الأنبارى إن «المسجور» معناه المملوء والفارغ . وقد استعملت هذه المادة فى القرآن الكريم مرتين ، وفى كل منهما كان معناها الامتلاء ، قال تعالى :

«وإذا البحار سجرت» ، «والبحر المسجور إن عذاب ربك لواقع» .

ويظهر أن المعنى الأصلى هو المملوء ثم اتخذت الكلمة للتعبير عن الفارغ تفاؤلا أو تفاديا لذكر ما يشير إلى الفراغ وانقطاع الخير ، مما يؤدى إلى الحاجة والعوز .

ولنا فى الاستعمال العامىّ حين ينادى عمّال المقاهى قائلين «خذ المليان» ، ما يوضح هذا بجلاء .

ومع هذا فقد يكون مبعث استعمال المملوء فى الفارغ ، التهكم والسخرية .

٢- ويمكن أن يقال مثل هذا فى «الناقة الحافل» التى قيل انا عنها إنها تستعمل إذا ذهب اللبن من ضرعها فلم يبق منه إلا اليسير . وكذلك إذا امتلأ ضرعها باللبن . ويبدو أن المعنى الأصلى المشهور هو قلة اللبن ، ثم استعمل فى كثرة اللبن درءاً للعين ومنعاً للحسد . وقد كان العرب يصفون الفرس أحيانا بأنها شوهاء مع أنها فى الواقع جميلة . ويشبه هذا ما نسمعه أحيانا من أفواه العامة حين يتجنبون وصف الطفلة بالجمال خوفاً من الحسد فيقولون «يا بتّ يا وحشة !» .

٣- استعمل الفعل «عزّر» فى القرآن الكريم ثلاث مرات بمعنى يناصر ويقوّى ويؤيد ، ومع هذا فيستعمل الفقهاء مصدر هذا الفعل وهو «التعزير» كنوع من العقوبة.. ويظهر أن معنى الفقهاء أحدث ، وهو من قبيل التفاؤل ومثله فى استعمال كلمة «التأديب» فى العقاب . وذلك لأن من فلسفة العقوبة أن تعد نوعاً من التهذيب والتأديب لا الانتقام أو الشماتة ، فكأن فى العقاب طريقاً لنصرة المرء على نفسه الأمارة بالسوء ، وفيه مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع ، وفى هذا من النصرة والتأييد ما فيه .

٤- تثبت المعاجم لكلمة «المولى» عدة معان ، منها : السيد والعبد وابن العم والحليف والجار والصهر ... إلخ .

ولذلك نشهد فى هذه الكلمة مثلا طيباً لتطور المعنى ؛ إذ يظهر أن المعنى الأصلى لهذه الكلمة هو السيد المتنعم صاحب الفضل ، ثم أطلق على العبد المخلص المتفانى فى خدمة سيده ، وذلك من قبيل التفاؤل والفرار من وصف العبد

المخلص بصفة خسيسة قد يشتم منها الرق والعبودية .

ولاشك أن العرب فى الجاهلية والإسلام كانوا يفرقون بين العبيد والموالى فى معاملتهم والنظرة إليهم . ولسنا نعلم نصاً قديماً استعمل فيه كلمة «المولى» فى مجال الذم أو الحط من قدره .

ثم تفرع من معنى السيد ، تلك المعانى الأخرى كابن العم الذى هو عَصَبة ومصدر نفوذ وقوة فى الأسرة ، وتفرع عن فكرة الخادم المخلص للسموّ به فى بعض الأحيان إلى مرتبة الحليف والجار والصهر .

وقد استعمل القرآن الكريم كلمة «المولى» بمعنى السيد فقط ، ولكنه استعمل الجمع «الموالى» بمعنى التابعين الملحقين بالمرء من إماء وحلفاء .

(جـ) الإبهام فى المعنى الأصلى وعمومه :

قد يؤدى إلى التضاد أن المعنى الأصلى للكلمة يكون عاماً غير محدود ، ثم يتحدد معناه مع الزمن ، ولكن فى تطوره وتحدد معناه قد يتخذ طريقتين متضادين ، ويترتب على هذا أن نجد الكلمة الواحدة يتخصص معناها فى لهجة من اللهجات بشكل خاص يضاد الشكل الذى اتخذته الكلمة فى لهجة أخرى . وخير مثل لهذا قصة الملك الذى قال للأعرابى «ثب» يريد اجلس ، فوثب الأعرابى ودق عنقه لأنه لم يكن يعرف معنى «لوثب» إلا طفر .

فالتضاد هنا بين «وثب» فى لهجة أهل الشمال ، ومعناها فى لهجة حمير ، نشأ عن تحدد المعنى وتخصصه بشكل خاص فى كل لهجة . والكلمة العبرية التى تناظر الفعل (وثب) هى «يشب» وليس لها إلا معنى واحد ، وهو جلس أو أقام ، فلعل المعنى العام الذى كانت تدل عليه هذه الكلمة فى اللغات السامية ، هو الانتقال من حال إلى حال ، وتغير الوضع .

وقد تخصص هذا المعنى العام فى اللهجات الشمالية فأصبح يعبر عن القفز، فى حين أنه أصبح يعبر عن الجلوس فى غيرها من اللهجات .

ولعل كلمة «السدفة» التى روى أنها كانت تعبر عن الظلمة فى لهجة تميم ، وعن الضوء بين قبائل قيس ، كانت شيئاً من هذا . فقد كان معناها العام أن تعبر عن حالة بين الظلمة والنور ، ثم تحدد معناها فى تلك اللهجات فأدى إلى التضاد .

ومن الكلمات المشهورة التى كان لها معنى عام ثم تخصص فى بيئتين مختلفتين فاتخذ فى البيئة الأولى معنى خاصاً ، وفى البيئة الثانية معنى مضاداً

لذلك الذى شاع عند أبناء البيئة الأولى :

١- «الصريم» بمعنى الليل والنهار ، لأن الليل ينصرم من النهار ، والنهار ينصرم من الليل ، فأصل المعنيين واحد وهو القطع والفصل .

٢- «القرء» بمعنى الطهر تبعاً لاختلاف المعنى ، مما هو مشهور فى كتب الفقه .

ويظهر أن المعنى العام للكلمة هو «الوقت» ، ثم تخصصت فى البيئتين على معنيين مختلفين . ومن هذا المعنى العام اشتق «القرأة» بمعنى وقت المرض فيقال للمسافر : «ذهبت عنه قرأة الحجاز أوقرته» ، أى تبين أنه خالٍ من مرض الحجاز ، وقد قدروا هذه المدة بنحو ١٥ يوما .

٣- يثبت معظم اللغويين للفعلين «باع واشترى» معنى التضاد ، فيقولون إن «باع» قد تستعمل بمعنى اشترى ، وإن اشترى قد تستعمل بمعنى باع .

والحقيقة أن هذين الفعلين من الكلمات المترادفة ، وأصل معناهما «المبادلة» ، هو معنى عام ينطبق على الشراء والبيع ، ثم تحدد المعنى مع الزمن لكل من الفعلين ، فغلب استعمال الشراء فى معناه المألوف ، والبيع فى ضد هذا المعنى . ويمكن أن تفسر الشواهد التى يشتم منها أن «باع» بمعنى اشترى ، أو أن اشترى بمعنى باع ، على هذا المعنى العام الأصلى . ويتضح لنا رجحان هذا الرأى حين نذكر طريقة البيع والشراء عند العرب القدماء ؛ فلم تكن على الصورة التى نألفها الآن فى غالب الأحيان .

ولسنا بحاجة إلى كثير من التأويل أو التخريج ؛ حين نقصر «باع» على المعنى المعهود لنا ، واشترى على ضد هذا المعنى ، فى جميع الآيات القرآنية التى ورد فيها هذان الفعلان ، وليس هناك من صعوبة حين تفسر تلك الآيات على هذا الأساس .

هذا ولا ننسى أن للمصادفة دخلا فى تكون بعض الأضداد ، فقد يترتب على التطور الصوتى فى كلمة ما . أن تصبح ماثلة فى لفظها لكلمة أخرى مضادة فى المعنى . فكلمة (الجون) التى تعبر عن الأبيض ، قد انحدرت من أصلين لاعلاقة بينهما ؛ إذ يظهر أن (الجون) التى تعبر عن السواد قد اشتقت أولا من الفعل (جنّ) بمعنى ستر . وهو الذى يستعمل فى مثل (جنّ الليل) أى أظلم فهذه المادة تعبر أساسياً عن معنى الظلمة . ثم تطورت أصواتها بتأثير عامل المخالفة

،Dissimilation، فقلب أحد النونين إلى صوت مشابه وهو الواو (١) . وبذلك التبس الجون المنحدر من مادة ،جن، ، بالجون التى تعبر أصلا عن النور .

وانظر أيضاً إلى كلمة (أكعت) التى روت المعاجم أنها تعبر عن معنيين متضادين هما : انطلق مسرعاً ، وقعد !

ويظهر أن تطور الفعل ،قعد، فى أصواته بأن انتقل مخرج القاف إلى الأمام قليلا ، فصادف مخرج الكاف ، وبأن همست الدال فأصبحت تاء ، كل هذا أدى إلى أن صار الفعل (قعد) (كعت) ، دون تغير فى معناه ، ثم التبس هذا الفعل بفعل آخر من أصل مختلف وهو (أكعت) بمعنى انطلق مسرعا (٢) .

ومما يبرهن على أن التطور الصوتى قد يوقع اللغويين فى اللبس ، ويجعل بعضهم ينسب للكلمات التضاد فى المعنى ، ماذكره ابن الأنبارى من أن ،القانع، معناه الراضى بما هو فيه والسائل المحتاج !! ثم يحتج بقوله تعالى :

،وأطعموا القانع والمعترّ، مفسراً القانع هنا بالسائل !

ويظهر والله أعلم أن معنى الآية : اطعموا من لا يسأل حياء منه ، لأنه قنع بما هو عليه وما قسم له ، وأطعموا أيضاً من يسأل بتلميح دون تصريح وهو المعترّ، أما ما يذكره اللغويون من تفرقة بين القنوع والقناعة ، مؤكدين لنا أن الأولى تعنى الخضوع ، والثانية تعنى رضا المرء بما قسم له . فليس له من سبب سوى التطور الصوتى فى مادة ،خنع، إلى ،كنع، ؛ أى إن الصوت الرخو وهو الخاء قد تطور إلى نظيره الشديد وهو الكاف فى بيئة بدوية . ثم جاء جامعو اللغة وذكروا لنا أن كلا من ،خنع، و ،كنع، يفيد ذل وخضع . ومصدر ،كنع، هو ،الكنوع، بمعنى الذلة والخضوع . ثم اختلط الأمر بين القاف والكاف . وترتب على هذا اختلاط الفعلين ،قنع، ، ،كنع، ، والحقيقة أن مصدر ،قنع، هو القناعة ، ومصدر ،كنع، هو الكنوع. فقول القائل ،أعوذ بالله من الخنوع والقنوع، ، لا يعدو أن يكون تكراراً للفظ الواحد.

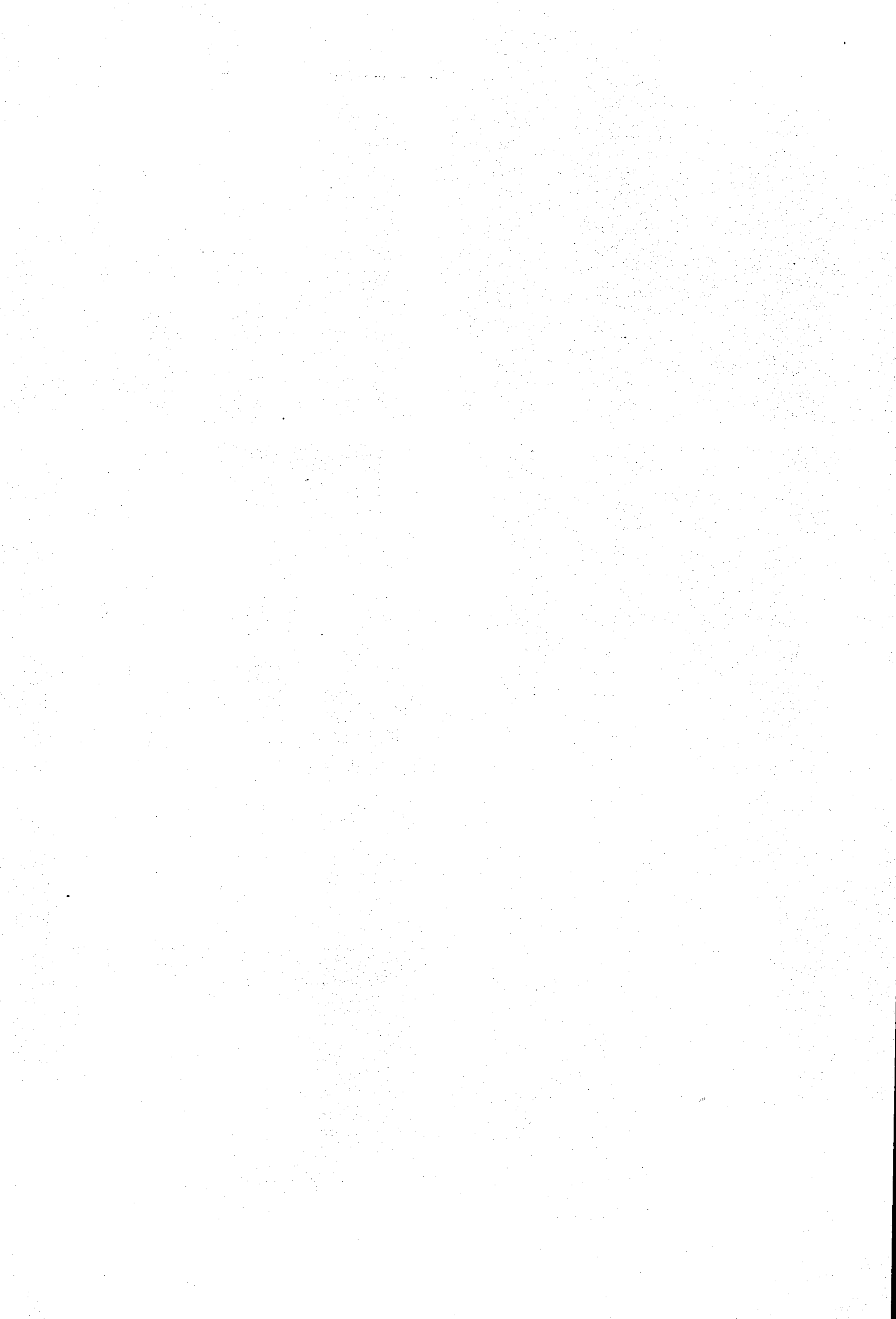
وبهذا يمكن أن نفسر كل الشواهد ، التى يشتم فيها أن ،القنوع، يعنى الذلة والسؤال .

---

(١) انظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ١٧١ .

(٢) انظر مقالا مسهباً عن الأضداد للدكتور منصور فهمى صفحة ٢٨٨ الجزء الثانى من مجلة المجمع اللغوى.

نكتفى بهذا القدر فى الحديث عن الأضداد لأن ماروى عنها من الشواهد يعوز أكثره النصوص الصريحة القوية ، وحين نحلل أمثلة التضاد فى اللغة العربية، ونستعرضها جميعاً ، ثم نحذف منها ما يدل على التكلف والتعسف فى اختيارها ، يتضح لنا أن ليس بينها ما يفيد التضاد بمعناه العلمى الدقيق إلا نحو عشرين كلمة فى كل اللغة . ومثل هذا المقدار الضئيل من كلمات اللغة لا يستحق عناية أكثر من هذا ، لا سيما وأن مصير كلمات التضاد إلى الانقراض من اللغة ، وذلك بأن تشتهر بمعنى واحد من المعنيين مع مرور الزمن .



الفصل السابع

هل اللغة العربية لغة بدوية [1]؟

حين عرض لى هذا التساؤل للمرة الأولى ، تذكرت كلمة رئيس المجمع الدكتور طه حسين فى افتتاح أحد المؤتمرات إذ يقول مداعباً وزير التعليم العالى : (ومن الحق أن لغتنا العربية قد بدأت لغة بدوية ، ولكن من الغريب أن يظل مجمع اللغة العربية فى القرن العشرين بدوياً أيضاً لا يستقر ، يجتمع فى مكان مرة ، وفى مكان آخر مرة أخرى) !!

ولما رددت أمامكم التساؤل نفسه ، كأنى بمن يهمس إلىّ فى لهفة وإشفاق علىّ ويقول :

بدأت يا أخى بدوية قبل الإسلام ، ثم انتهت إلى حضرية بعد الإسلام ، وبلغت ذروة حضارتها فى عصور العباسيين . ألم تدرس أو يدرّس لك أن شعراء ما قبل الإسلام كانوا يقفون على الأطلال ، ويبكون الدمن ، ويصفون النوق فى إسهاب أو إسراف كالذى كان من طرفة فى معلقته ، كما حدثونا عن الصحراء رمالها وكثبانها وجبالها وحراتها وأوديتها وآبارها ومنتجع الكلأ فيها ؟ ألا تذكر قول أحدهم مع أنه كان ملكا فى قومه :

ترى بعر الآرام فى عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفلِ

وقول الآخر

أثافى سفعاً فى معرس مرجل ونؤيا كخدم الحوض لم يتثلم

فأى بداوة فوق هذا تريد ؟ ثم ثار الشعراء على كل ذلك فى العصر العباسى وتزعمهم فى هذه الثورة أبو نواس ؛ إذ يقول فيما يقول :

صفة الطلول بلاغة القدمِ فاجعل صفاتك لابنة الكرْمِ

ويقول الشاعر الشعوبى :

عنينا بالطبول عن الطلول وعن عنس عذافرة ذمولِ

---

(١) بحث ألقى فى مؤتمر مجمع اللغةالعربية سنة ١٩٦٨ .

وأستمع لمثل هذا الهمس ، ثم أجد أن من واجبى قبل أن أعرض رأيى فى سؤال «هل اللغة العربية لغة بدوية ؟» أن أبين أولا حدود ما أعنيه باللغة العربية ، ثم دلالة الوصف «بدوىّ» حين يخلعه الدارس الحديث على اللغة .

أما اللغة العربية التى أعنى فهى تلك تتمثل فى نصوص تراثنا الأدبى قبل الإسلام وبعد الإسلام ، تلك اللغة المشتركة الأدبية النموذجية التى نظم بها الشعراء وخطب بها الخطباء وكتبت بها الرسائل والوصايا قبل الإسلام ، تلك اللغة التى انتظمت كلّ أو جلّ أنحاء شبه الجزيرة ، والتى اصطعنت فى الأمور الجدية من القول ، وهى التى نمت وازدهرت قبل الإسلام أداة القول فى كل تراثنا الأدبى الرائع .

وقد يقال وماذا نستبعد بعد هذا كله ؟ أستبعد ما لم يصح من تراثنا الأدبى ، وأستبعد بعض أو ربما كلّ ما ينسب لرؤبة وأمثال رؤبة كأبيه العجاج وابن أحمر الباهلى ، وأستبعد كثيراً مما جاء فى معاجمنا العربية القديمة من لهجة خاصة لقبيلة من القبائل ، أو نصوص مبتورة مجهول قائلها ، أو ربما ما أنزل الله بها من سلطان .

أما الوصف «بدوى» فأمره عجب ، إذ تقول عنه المعاجم القديمة إنه منسوب إلى البدو ، وأن نبته على هذه الصور أمر نادر ، وفى الحق أن الندرة غير مقصورة على النسبة ، بل إن استعمال الوصف بدوىّ فى نصوص الأدب الجاهلى وصدر الإسلام أمر نادر أيضا . وكذلك المشهور من هذه المادة كالبدو ، والبداوة ، والبادية . فليس فى القرآن الكريم إلا كلمة «البدو» فى قوله تعالى «وجاء بكم من البدو» ، وتفسر هنا على أن معناها البادية .

وكلمة البدو فى الاستعمال القرآنى فريدة وحيدة وردت مرة واحدة ، أى من الكلمات التى يسميها المستشرقون Hapax legomena . أما ورودها فى قول ابن أحمر :

جزى الله قومى بالأبلة نصرة ... وبدوالهم حول الفراض وحضّرا

فيحتاج إلى إعادة الفهم ، وليس كلام ابن أحمر على كل حال مما يدخل فى نطاق ما نسميه باللغة العربية .

ولم ترد فى القرآن الكريم الكلمات «بدوى وبداوة وبادية» . أما ما يقال لنا إن «الباد» فى قوله تعالى «والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه

والباد، معناه القادم من البادية ، فعند التأمل نجد أن معناه الطارئ على مكة كما يقول القرطبى فى تفسيره ، «أى سواء وفد من البادية أو من الأمصار» . فالتعبير يراد به الشمول ، ومثله مثل التعبير الفقهى «المقيم والمسافر» ، بل ومثل «الغائب والحاضر» . أما «البادى والحاضر» فى شعر حسان وعمر بن أبى ربيعة فلا يعنى كذلك إلا مجرد الشمول ، فلا يفيد فى أصل دلالته بداوة أو حضارة ، وإن اشتهر فى العصور الإسلامية بهذا المعنى .

وأما الجمع «بادون» فى قوله تعالى «وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب» ، ففى رأيى أن معناه مجرد مسافرين أو راحلين ، ولعله اكتسب هنا دلالة البدواة من المناسبة التاريخية ومن كلمة الأعراب . ذلك لأن الاستعمال المألوف فى القرآن الكريم لما اشتهر بعد ذلك بالبدو ، هو الأعراب فى عشر آيات ، ولما اشتهر فى العصور الإسلامية بالحضر هو أهل القرى .

ويكفى للاستدلال على ندرة الكلمات : بدوىّ ، وبدْو ، وبداوة ، وبادية فى الأدب الجاهلى وصدر الإسلام أن معجمنا الكبير مع وفرة إمكانياته لم يجد شاهداً للوصف بدوىّ إلا ذلك الخبر العجيب ونصه (وفى الحديث لا تجوز شهادة بدوىّ على صاحب قرية) ، ولا أدرى كيف ينسجم هذا مع الروح الإسلامى فى الإخاء والمساواة ؟

ومن يمن الطالع أن ابن الأثير يعقب عليه بقوله (وإليه ذهب مالك والناس على خلافه) ، هذا إلى ما نعرفه من موقف القدماء من الاستشهاد بالحديث فى مسائل اللغة . فمع التسليم بصحة المعنى فى هذا الخبر لا يستلزم ذلك أن تكون كل ألفاظه من النص الأصلى .

ويسوق لنا معجمنا الكبير شاهداً فريداً أيضاً لكلمة «البداوة» هو (وفى الحديث أنه أراد البداوة مرة) ، ولا حاجة للوقوف عند هذا الشاهد طويلا بعد الذى قلناه عن سابقه .

وأما كلمة «البادية» فيورد لها معجمنا الكبير ثلاثة شواهد اثنين منها لشاعرين أمويين ، أى بعد صدر الإسلام ، هما : القطامى والفرزدق ، والثالث لحسان بن ثابت هو :

وشر من يحضر الأمصار حاضرها   وشر بادية الأعراب باديها

وفى رأيى أن كلمة الأعراب فى البيت هى التى أوحت بما يراد منا أن

نفهمه من كلمة «بادية» فى بيت حسان إن كان مفهوما حقا .

ونتساءل بعد الذى تقدم هل الكلمات «بدوى وبدو وبداوة وبادية» بمعناها المألوف لنا الآن من الكلمات التى نشأت مع ظهور الإسلام ، وشاعت بهذا المعنى بعد أن استقرت الفتوحات الإسلامية ؟ أما الذى نستطيع أن نؤكده هنا فهو أنه ليس لهذه الكلمات نظائر فى اللغات السامية شقيقات اللغة العربية ما عدا الحبشية فيما يبدو ، ففيها «بدو» بمعنى مكان قفر ، و«بدو» بمعنى أقفر المكان .

نكتفى بهذا القدر فى التأصيل الاشتقاق للوصف «بدوى» ، ونعود إلى دلالته حين يخلعه الدارس الحديث على اللغة وهو ما يعنينا هنا . فاللغة البدوية لديه هى تلك التى لم تتح لها فرص كافية من التطور من حيث الأصوات والصيغ وتركيب الجمل ، أو التى تمثل مرحلة قديمة من مراحل تطور اللغة الإنسانية ، ومن أوضح أمثلتها لغة الرعاة الرحلّ الذين عرفوا فى أوروبا باسم Nomads ، ويسميهم الأوربيون فى بلاد الغرب بالكلمة العربية الأصل Bedouins . وقد تبينت للغويين المحدثين بعد دراسات مستفيضة معالم وسمات اللغة البدوية ، وأخرى للغة البدوية ، وأخرى للغة الحضرية ، ولا يتسع المجال هنا إلا لما يتصل بالناحية الصوتية ، بل ومع الإيجاز أيضاً .

فمنذ أن اكتشفت اللغوى الدينمركى «راسك» فى أوائل القرن التاسع عشر ما سماه بالتطور الصوتى بين أفراد المجموعة الجرمانية ، وهو ما عرف بعده بقانون (جريم) الصوتى ، واللغويون يحاولون تفسير هذه التطورات وبيان السر فيها . وقد دعم (جريم) اللغوى الألمانى آراء (راسك) ، وجعل بحثه أشمل وأكمل بحيث يشمل كل اللغات الجرمانية ، ويتضمن من الأمثلة والشواهد قدراً كبيراً لم يرد فى بحث معاصره (راسك) ، ولذلك ينسب عادة هذا القانون الصوتى (لجريم) وحده . ويتلخص هذا القانون الصوتى فى أن استقرار الصور المختلفة للكلمات فى اللغات الجرمانية خلال العصور التاريخية دل على ظاهرتين متميزتين : إحداهما انتقال أصوات شديدة إلى نظائرها الرخوة مثل الـ P أصبحت ثاء ، والكاف أصبحت هاء .

فالـ (P) فى Paternal التى فى اللاتينية Paternus أصبحت فاء فى الكلمة الأنجلوسكسونية Fatherly ، التاء فى الكلمة Trinity التى فى اللاتينية Tri-nitas أصبحت ثاء فى الكلمة الأنجلو سكسونية Three ، والكاف فى الكلمة Cen-tury التى فى اللاتينية Centuria أصبحت (هاء) فى الكلمة الأنجلو سكسونية Hundred .

أما الظاهرة الثانية فهى انتقال أصوات مجهورة إلى نظائرها المهموسة ، فالباء أصبحت P ، والدال أصبحت تاء ، والجيم غير المعطشة أصبحت كافا . ولاأريد أن أثقل عليكم بذكر أمثلة لهذه الظاهرة الثانية . والمهم هو أن نذكر أن الأصوات فى تطورها على حسب قانون (جريم) قد واجهتنا بقضيتين متميزتين : قضية الانتقال من شدة الصوت إلى رخاوته ، وقضية الانتقال من جهر الصوت إلى همسه .

هذا هو ملخص قانون «جريم» فى التطور الصوتى بين لغات المجموعة الجرمانية ، ذلك القانون الذى يفسر عادة بأن انتقال المجتمع الإنسانى من مرحلة الرعاة الرحل إلى حياة الاستقرار فى المدن هو الذى أدى إما إلى انتقال الأصوات الشديدة إلى نظائرها الرخوة ، أو انتقال الأصوات المجهورة إلى نظائها المهموسة .

وفى ضوء ما تقدم ، نظرنا إلى لغتنا العربية فرأينا أن حياة العرب قبل الإسلام كانت تتنازعها بيئتان متميزتان : بيئة بدوية بين القبائل الرحل ، وأخرى حضرية فى مدن الحجاز واليمن . وقد اختلفت البيئتان فى كثير من النواحى الصوتية تبعاً لاختلافهما فى بعض العادات ومظاهر السلوك الاجتماعى العام . فالقرآن الكريم يصف لنا الأعراب المتوغلين فى البداوة فى عشر آيات مدنية ، بالنفاق والقعود عن القتال وضعف الإيمان . كما يصف لنا سلوك هؤلاء الأعراب فى آيات أخرى مدنية أيضا وإن لم ينص عليهم فيها ، ولكن يبدو من أسباب النزول أنها نزلت فى هؤلاء الأعراب حيث كانوا يفدون إلى المدينة ويتصايحون فى الحديث رافعين عقائرهم فى جلبة وضوضاء ، مثل ما كان من وفد بنى تميم حين قدموا إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقت الظهيرة وأخذوا يصيحون : اخرج إلينا يا محمد : فدعاهم الإسلام إلى آدابه السامية فى الخطاب والسلوك ، فيقول سبحانه فى سورة الحجرات ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون . إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم . إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم﴾ .

وكان هؤلاء الأعراب يفخرون بجهارة الصوت ، بل بجهارة أى شىء ، فيقول شاعرهم فى مجال الفخر :

جهير الكلام جهير العطاسِ   جهير الرواء جـهير النَّعمْ

وكان لهذا السلوك العام فى الحديث أثره الواضح فى نطق هؤلاء الأعراب . تبين لنا هذا فى كثـيـر من الأمـثلة التى تنسب إليـهم ، فـبـينمـا يقـول الحـجـازى الحضرى «حتى» يقول البدوى «النات» ؛ أى إننا حين نطبق قانون «جريم» على ما ساد فى شبه الجزيرة فى بيئتها قبل الإسلام من ظواهر النطق ، نجد حقاً أن البيئة الحـضرية الممـثلة فى مـدن الحـجـاز كـانت بوجـه عـام تؤثر الصـوت المهـمـوس والصوت الرخو ، فى حين أن البيئة البدوية فى وسط الجزيرة وشرقيها كانت تؤثر النظير المجهور والنظير الشديد .

ونحن نضيف إلى قانون «جريم» ظاهرة أخرى ، لاحظنا فى بعض اللغات البـدائيـة مثل الدنكا والشيلوك فى جنوب السـودان ، هى أن هذه اللغات تتـضـمن أبجديتها عدداً كثيراً من الأصوات الشديدة ، وعدداً قليلاً من الأصوات الرخوة ، أى على عكس لغتنا العربية كما نألفها فى النصوص القرآنية وفى تراثنا الأدبى . فليس فى الأبجدية العربية إلا ستة أصوات شديدة ، تلك الأصوات التى تتميز بها لغات البيئات البدائية أو البدوية .

لا جـدال إذاً فى أن اللغـة العـربيـة التى نشـأت ونمت وازدهرت فـى المدن الحـجازية قبل الإسلام ثم نزل بها القرآن الكريم ، كانت من حيث الأصوات لغة حضرية . ولعل مما يؤكد هذه الحـقيقة مـا لاحظناه أيضاً بصـدد قضـية اليـائيـة والواوية ، فقد أصبحنا الآن نطمئن إلى أن الكلمة مع الأصل الواوى وما تفرع عنه من ضم وواو مـد صورة بدوية ، وأنهـا مع الأصل اليائى ومـا يتفرع عنه من كسر وياء مدّ صـورة حضـرية . فبينمـا كـان الحـجـازى الحضرى يقـول : «حـيث» يقـول البـدوى «حوث» وبينمـا يقـول الحـجـازى «صيَّام» يقول البدوى «صوّام» ، وبينمـا يقرأ الحجازى «سخـرياً» يقرأ البدوى «شخـريا» ، وبينما يقـول الحـجـازى «الذين» يقـول البـدوى «اللذون» وهكذا . وقـد دلت البـحـوث الصـوتيـة الحـديثـة على أن الواو ومـا يتفرع منها أقرب إلى الطبيعة البدوية ، فى حين أن الياء ومـا يتفرع منـهـا أقرب إلى الطبيعة الحضرية .

هذا كله من النـاحيـة الصـوتيـة ، ولما طبقنا المعـالم والصـفـات الأخرى التى اهتدى إليـهـا اللغـويون المحـدثون للغة الحضرية من حيث الصيغ وتركيب الجمل ظهر لنا بوضوح أن اللغة العربيـة ، حين جاء الإسلام ، كـانت لغة حضـرية كـخير

ما كانت عليه لغة حضرية فى القرن السادس الميلادى من حيث الأصوات والصيغ ونظام الجملة .

لكن مأساة لغتنا إنما كانت على أيدى بعض اللغويين فى القرنين الثانى والثالث من الهجرة حين حاولوا - بحسن نية طبعاً - صبغها بالصبغة البدوية . فقد كانوا يؤمنون إيمانا قويا بأن الفصاحة العربية ترتبط ارتباطا وثيقا بالبداوة ، كما لو أن بين رمال الصحراء وأخبية الأعراب ومنتجعات الكلأ وبين الملكة اللسانية عريٍ وثقى ، أو كما لو أن هؤلاء الأعراب قد أرضعوا الفصاحة مع لبان الأمهات ، أى إنهم كانوا يتصورون أن إتقان اللغة مرجعه إلى الوراثة ، ولم يكونوا يدركون كما يدرك اللغوى الحديث أن إتقان أى لغة عملية مكتسبة لا أثر للوراثة أو الجنس فيها . ولم يجد علماء الأمصار مع علمهم وفضلهم أى غضاضة فى الاحتكام إلى الأعرابى الجلف فى مسائل اللغة . وكلنا يذكر تلك المناظرات التى كانت تعقد فى حضرة الأمراء والخلفاء بين هؤلاء العلماء الأجلاء ويحتكم فيها إلى الأعراب الوافدين على الأمِصار . فإذا قضى الأعرابى بالأمصار شهوراً انصرفوا عنه وقالوا له : هيهات ، لانَ جلدك يا أبا فلان ، أى لم تعد أهلا لتلقى اللغة عنك . وكان مما افتخر به البصريون على الكوفيين قول أحدهم (إنا نحن البصريين نأخذ اللغة عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع ، أما أنتم أيها الكوفيون فقد أخذتم اللغة عن أكلة الشواريز والكوامخ !!) .

ونظرنا فإذا بعالم جليل هو يعقوب بن السكيت فى القرن الثالث الهجرى يحيط نفسه بحاشية من هؤلاء الأعراب تتألف من خمسة عشر أعرابياً ، وبلغ من اعتزازه بصحبتهم أن نص فى كتابه «إصلاح المنطق» على أسمائهم واحداً واحداً !! وفى رأيى أن مثل هذا العدد من المعلمين الأعراب المختلفى القبائل والمناجع يكفى لبلبلة الفكر والذهن حتى مع أنبغ العلماء من أمثال ابن السكيت .

وهنا نتساءل هل نجح علماء الأمصار فى صبغ اللغة العربية بالصبغة البدوية ، والجواب نعم ، ولكن لحسن الحظ فى نطاق ضيق . فسلمت العربية فى معظم ظواهرها من السمات البدوية ، واحتفظت بطابعها الحضرى الذى ساد قبل الإسلام وفى صدر الإسلام من حيث الأصوات والصيغ والتراكيب .

فإذا أردنا أن نضرب مثلا محدداً لما نجح فيه هؤلاء العلماء ، لم أجد خيراً من مسألة تحقيق الهمزة التى هى بإجماع الآراء من صفات البدو ، فيقول عيسى ابن عمر الثقفى (ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر وهم أصحاب النبر ، وأهل الحجاز

إذا اضطروا نبروا) . ونقول له من حقك أن تفرض على اللغة العربية الحضرية صفة بدوية . ويحضرنى هنا ما جاء فى اللسان (قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم يانبى الله ، فقال : لا تنبر بأسمى ، أى لا تهمز) . وفى رواية فقال : إنا معشر قريش لا ننبر . والنبر همز الحرف ، ولم تكن قريش تهمز فى كلامها . ولما حج المهدى قدم الكسائى يصلى بالمدينة فهمز ، فأنكر أهل المدينة وقالوا تنبر فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن ؟

وخير ما نستأنس به فى هذا الصدد نصوص القرآن الكريم ، إذ تلحّ علينا موسيقى الفواصل فى سورة الرحمن أن نقرأ (كل يوم هو فى شان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان) . وكذلك فى سورة مريم التى وردت فيها كلمة (شيئا) فى رءوس أربع آيات ، وفى كل هذه الآيات لو قرئت الكلمة بالتسهيل أى «شيّا» لكانت أكثر انسجاماً مع الفواصل الأخرى فى السورة ، وكذلك كلمة «رئيا» من السورة نفسها . فقد بدأت السورة بفاصلة تمد بمثابة إرهاص للفواصل التى تلتها ، فيقول تعالى (ذكر رحمة ربك عبده زكريا) وجاء بعدها (حفيّا ، شقيّا ، وليّا) من الفواصل الموسيقية ذات الوقع الحسن فى الآذان . والتزم هذا فى الآيات الإحدى والثلاثين الأولى من السورة ما عدا الآية الثامنة التى تنتهى بكلمة «شيئا» ، ثم استؤنفت الفصلة نفسها عند الآية الأربعين ، وظلت ملتزمة إلى الآية الثالثة والسبعين . فلو قرئت الآيات التى تنتهى بكلمة «رئيا» بالتسهيل ، لكانت القراءة أقرب إلى الترتيل الموسيقى .

ومن يمن الطالع أن يروى لنا أن بعض القراء السبعة مثل أبى عمرو ابن العلاء قد قرأ (كل يوم هو فى شأن) ومعه أيضاً قارئ المدينة أبو جعفر . كذلك يروى أن أبا جعفر قرأ كلمة «شيئا» فى سورة مريم بالتسهيل ، ويشاركه فى هذا قالون وابن ذكوان (١) . أما كلمة «رئيا» فقد قرأها بالتسهيل نافع وابن عامر وهما من القراء من السبعة .

وهكذا نرى أن اللغة العربية التى نزل بها القرآن الكريم والتى اصطعنت فى تراثه الأدبى قبل الإسلام كانت تؤثر تسهيل الهمز ، وهو صبغة حضرية ، وأن اللغويين بعد الإسلام قد فرضوا عليها تحقيق الهمز مؤثرين هنا الأداء البدوى ، فشاع بيننا الآن أن تحقيق الهمز هو الأفصح .

أما بعد : فإنى أدعو الله مخلصا أن يوفق مجمعنا الموقر إلى العمل على أن تستكمل هذه اللغة العريقة الحضارة ، أسباب الحضارة فى العصر الحديث .

---

(١) قالون هو راوى نافع ، وابن ذكوان هو راوي ابن عامر .

الفصل الثامن

اللهجات الحديثة

تحدثنا فى مقدمة هذا الكتاب عن أهمية اللهجات الحديثة ، فى دراسة اللهجات القديمة . وهنا سنعرض طرفاً من خصائص اللهجات المصرية ، ولا سيما اللهجة النموذجية فيها ، وهى اللهجة القاهرية ، موضحين بعض ما احتفظت به هذه اللهجات الحديثة من صفات قديمة ، وما ظهر فيها من صفات خاصة ، نمت واستقلت مع الزمن . وسنقتصر فى هذه الإشارة العابرة على بعض التطورات الصوتية فى هذه اللهجة ، وعلى تطور معانى بعض الكلمات . ولسنا نطمع من هذا الفصل إلا فى أن نوضح ما يمكن أن تكشف عنه دراسة اللهجات الحديثة ، فلعل فى مراحل تطورها ما يلقى ضوءاً على ما غمض من تطورات اللهجات القديمة وخصائصها .

- ١ -

الناحية الصوتية

(١) فقدت معظم اللهجات المصرية بعض الأصوات العربية القديمة ، أمثال: الثاء ، والذال ، والظاء ، والقاف ، واستبدلت بها على الترتيب : التاء ، والدال ، والضاد ، والهمزة أو الجيم . وقد اطرد هذا إطراداً يدعو إلى الدهشة فى كل كلمات. والذى يلحظ فى هذا التغير بصفة عامة ، هو الانتقال ببعض الأصوات الرخوة القليلة الشيوع فى اللغة الفصيحة ، إلى نظائرها من أصوات الشدة .

(ب) مالت الأصوات المطبقة إلى الاستفال فى لغة الكلام المصرية فى معظم الأحيان ؛ إذ نلحظ أن المصريين بصفة عامة ، ينطقون الصاد سيناً ، والطاء تاء ، والضاد دالا ، والظاء زاياً مفخمة ، وهكذا مثل :

صقع : «سكع فلاناً قلماً»

(غضر عنه) أى انصرف : «غدر على البيعة»

«لدعة قلماً» : ربما جاءت من اللطع بمعنى الضرب . «مدغ» : مضغ .

والذى نتصوره بصدد هاتين الظاهرتين ، أنهما من التطورات الحديثة التى تمت بعد انتشار اللغة العربية فى بيئات مختلفة نائية ؛ أو ربما تم بعضها فى العصور الإسلامية الأولى .

على أننا نترك البحث فى علة هذا التطور لدراسة أوفى فى اللهجة المصرية، ونكتفى هنا باستعراض بعض تلك التطورات التى تمت فى العصور المتأخرة ، والتى كونت صفات خاصة باللهجة المصرية ، تميزها عن غيرها من اللهجات الحديثة ، وتلك هى الصفات التى تكونت بعد مرور أجيال كثيرة على اللغة العربية فى البيئة المصرية ، وحين أصبح للبيئة المصرية كيان مستقل ، فقد جاء زمن على لهجة الكلام بمصر ، وتركت فيه دون نظر فيها أو عناية بها ، يتحدث بها الناس فى حديثهم العادى ، وفى خطابهم العام ، دون تدوين لها أو تسجيل لما يعرض لها من تغير أو تطور .

وقد صرفت اللغة الفصحى أنظار الناس عن لغة كلامهم ، فلم يعنوا بما عرض لها من تطور مع الزمن ، ولهذا اتخذت فى الأفواه أشكالا وصوراً تباينت باختلاف الأجيال والعصور . والناس لا يشعرون ولايلحظون تلك الفروق ، وإنما وجهوا كل عنايتهم إلى لغة الكتابة وهى اللغة الفصحى، فإذا انحرف الطفل فى الكلام بلهجة أبيه ، لم يجد من يعنى بتصحيح هذا الانحراف ، والإبقاء على صورة معينة فى الكلام . فأخذت اللهجة مجراها الطبيعى ، وتغيرت جيلا بعد جيل ، وقد أدى كل هذا إلى ما نلحظه من فروق خطيرة بين لهجة الكلام واللغة الفصحى . واتسع لهذا ، البون بين لهجة الحديث ، وبين لغة الكتابة ، مما لا نظير فى أية لغة من لغات العالم . فلم تجد اللهجة المصرية رقيباً عليها أو حسيباً ، فانسابت خفية عن الأنظار تتغير فى أفواه الناس ، دون أن يلفت هذا نظر أحد ، وقد ساعد هذا التطور الخطير أنها لم تكتب ولم تسجل؛ لأن الكتابة فى بعض الأحيان من عوامل استقرار اللغات ، ومنعها من أن تقع نهباً لعوامل التطور اللغوى ، تفعل بها ما تشاء ، وهذا هو السر فيما نلحظه من أن التغيرات فى اللهجة المصرية ، يمكن أن تعزى فى غالب الأحيان إلى أخطاء كلامية بين الناشئين ، تركت دون إصلاح ، أو لفت نظر ، فتراكمت وبعدت عن الأصل ، بحيث أصبح من العسير إرجاعها إلى ذلك الأصل إلا بجهد ومشقة .

فنحن الآن ننكر كثيراً من كلمات اللهجة المصرية ، غير مدركين أن لها أصلا عربياً صحيحاً ، وأنها تطورت فى الأفواه دون عناية بإصلاحها من بادئ

الأمر . إذا اتجهت كل العناية إلى لغة الكتابة ، وكان المشتغلون بها قليلين جداً ، وتركت الكثرة الغالبة من الناس يتخبطون فى حديثهم ، فتنتقل الكلمات من صورة إلى أخرى دون أن تستقر على حال ، كل ينطق كما يهوى ، ويقيس مالم يعرف على ما عرف ، وتتوارث الأجيال أخطاء من سبقوهم .

فانظر مثلا إلى كلمة «ألتغ» التى تطورت فيها الثاء أولا إلى «تاء» كمعظم الثاءات وصارت «ألثغ» فى عصر من العصور ، وأخيراً جهر بهذه التاء فأصبحت دالا ، وصارت الكلمة على الصورة التى نألفها الآن وهى «ألدغ» .

نشير بعد هذا إلى الأهم الاتجاهات الصوتية فى لهجة الكلام المصرى ، فنلخصها فى العناصر الآتية :

(١) الميل إلى همس كثير من الأصوات ، وهو أمر طبيعى فى بيئة مستقرة كالبيئة المصرية ذات الحضارة منذ القدم .

فانظر مثلا إلى كلمة مثل «اتكرّع» ، التى لا نشك فى أنها انحدرت من «تجرّع» بعد أن همست الجيم فأصبحت كافاً . ومثل «دهس» التى أصلها من «الدعس» وهو شدة الوطء . ومثل «شحت» التى أصلها من «شحذ» فمرت فى مرحلتين قبل أن تصل إلى الصورة التى نعهدها ؛ إذ قلبت أولا الذال ككل الذالات إلى دال ، وأتى عليها عهد فى لهجة الكلام كانت «شحد» ثم همست الدال فأصبحت «تاء» . ومثل «نكش» التى نرجح أنها من «نجش» الصيد أو كل شىء مخبوء بمعنى استناره .

وهكذا نجد كلمات كثيرة قد همست بعض أصواتها فى لهجة الكلام ، على أننا فى القليل من الأحيان نلحظ فى اللهجة المصرية عكس هذه الظاهرة مثل «اتعتع» التى هى من «التحتحة» بمعنى الحركة ، ومثل «غفير» التى هى فى الأصل «خفير» ، ففى هذه الكلمات نجد اللهجة المصرية قد جهرت ببعض الأصوات المهموسة فى الكلمات العربية الفصيحة ، ويظهر أن النوع الأخير من التطور قد جاء إلى اللهجة المصرية مع بعض النازحين إليها من البدو الذين يميلون إلى جهر الأصوات ، أو أن بعض الطبقات من الناس فى مصر كانوا أميل إلى صفات البداوة وإلى البعد عن الحضارة كأوساط العوام فى المدن ورعاعها .

(ب) أخطاء تبدأ مع الأطفال والناشئين ، ثم تنمو بينهم وتكون جزءاً من لهجاتهم وهم كبار ، ثم يورثونها من بعدهم . وربما كان هذا العنصر أوضح

العناصر فى تطور الكلمات وأصواتها فى اللهجة المصرية [1] :

١- فهناك كلمات قلبت فيها الباء ميما مثل «تبختر» ، أصبحت فى لهجة الكلام «اتمختر» ، وهناك العكس من هذا مثل «متاع» صارت تلك الكلمة الشائعة «بتاع» ، ومثل «حملق» صارت «بحلق» مع تغيير فى ترتيب الأصوات ، ومثل «خمش» التى جاءت منها «خربش» بعد زيادة الراء .

وهناك كلمات قلبت فيها «الفاء» إلى «باء» فى لهجة الكلام ، مثل «سفط»التى صارت «سبت» ، ومثل «قف شعره» نقولها الآن فى الكلام «قب شعره» ، ومثل «فرطش» التى تستعمل فى الفصحى بمعنى «فرطش الجمل» أى تفجج للبول ، صارت فى لهجة الكلام «برطش» .

٢- من بين الأخطاء التى قد تعرض للناشئين ، تغير فى ترتيب أصوات الكلمات ، وهو ما وقع بين العربية الفصحى ولهجة الكلام المصرية ، مثل :

بحلق : حملق . «بعزأ» : جاءت من تزعبق [2] الشىء من يدى تبذر وتفرق. «الزعل» جاءت من العلز بمعنى الضجر . ومثل «فعص» : التى انحدرت من فصع الرطبة إذا أخذها بأصبعه فعصرها حتى تنقشر . ومثل «أهبل» : أبله . جنزبيل : زنجبيل . جوز : زوج . خفس : خسف .

٣- كذلك يميل الأطفال فى نطقهم إلى تكرار المقاطع أو الأصوات ، وقد أدي هذا إلى أن جاءت الكلمة المولدة «التشويش» من «التهويش» [3] . وجاء الفعل «جرجر» من جر .

٤- وكذلك قد يخطئ الطفل فى تقسيم العبارة إلى أجزائها الصحيحة ، ويحدث هذا عادة فى العبارات الكثيرة الشيوع . وقد لوحظ هذا فى لهجات كثيرة من لهجات اللغات الأوربية . ويمكن أن نعزو لهذا الخلط فى تقسيم العبارة ، ما جاءتنا به لهجة كلامنا من أمثال الفعل «جاب» ، الذى لا نشك فى أنه انحدر عن الاستعمال الصحيح «جاء بكذا» ، فخيل للطفل أن «الباء» جزء من الفعل «جاء» ،

---

(١) انظر كتاب الأصوات اللغوية ص ١٤٥.

(٢) هذا ماجاء فى لسان العرب. أما الفيروزأبادى فيذكر [بعرق الشىء زعبقه] ثم بعد ذلك في الباب نفسه يقول [زعبق القوم والشيء فرقه وبدده كبعزقه] .

(٣) جاء فى القاموسى المحيط [والتشويش والمشوش والتشوش كلها لحن ووهالجوهرى، والصواب التهويش].

ولا سيما أنه كان ينطق به فى لهجة الكلام بغير الهمزة . ومثل «عقبال» التى لانشك فى أنها من الاستعمال «عقبى لكم» ، فالتبس الأمر على السامع وجعل «اللام» فى «لكم» جزءاً تنتهى به الكلمة «عقبى» وبهذا أخرج لنا «عقبال» .

٥- هذا وقد يصعب صوت «الراء» على كثير من الأطفال ، فيقلبونها إلى «اللام» فى كثير من الأحيان . وقد ترتب على هذا وجود كلمات عربية صحيحة متحدة المعنى رويت مرة «بالراء» وأخرى «باللام» .

وقد حدث مثل هذا فى لهجة الكلام المصرية ، إذ تطورت فيها بعض الكلمات العربية الصحيحة التى اشتملت على «الراء» مثل :

«الخدَر» بمعنى الشلل أو نوع منه ، نسمعها الآن فى لهجة الكلام «خدل وخدلان» .

ومثل «سرط» اللقمة بمعنى ابتلعها ، أصبحت الآن فى لهجتنا «زلط» ، بعد أن قلبت «الراء» «لاماً» وجهر «بالسين» فأصبحت «زاياً» .

ومثل «رهَط الطعام» صارت فى لهجة كلامنا «لهط» .

ومثل «دحرج» التى تطورت فى اللهجات القديمة إلى «دعلج» ، بأن جهر «بالحاء» فأصبحت «عيناً» وبأن قلبت «الراء» «لاماً» ، وهكذا رويت لنا الكلمتان فى المعاجم العربية على أنهما صحيحتان ، ثم تطورت الأخيرة منهما فى لهجة كلامنا إلى «دألج» .

٦- وقد يخطئ الطفل فى قياسه ، وهنا يولد لنا كلمات كثيرة بعيدة عن الصواب فأحياناً يشتق وزناً للصفات ، لا وجود له فى الفصحى مثل «دبلان» بدلا من «ذابل» ، ومثل «مرشوم» بدلا من «مرشم» التى هى من أرشم الشجر أى ظهر ثمره ، ومثل «غرقان» بدلا من غرِق ، ومثل «رجل لطْخ» بدلا من «اللطِخ» وهو القذر الأكل ، ومثل «حدق» بدلا من «حاذق» .

وليس هذا بغريب لأننا قد نسمع بعض أطفالنا يقولون «البلحة الأحمرة» بدلا من «حمراء» .

٧- كذلك قد يخلط الناشئون بين الجمع والمفرد فيستعملون بعض الجموع ، التى جاءت صيغتها شبيهة بصيغة المفرد على أنها مفردات مثل :

برام . حق . كراس . زناد

فهذه كلها جموع فى اللغة الفصحى ، ولكنها تستعمل فى لهجة الكلام مفردات ، أما مفرادتها الصحيحة فقد أهملت وهى على الترتيب :

برمة . حُقة . كراسة . زند

ومما يمكن أن يعزى إلى القياس الخاطئ اختلاف الحركات فى بنية الكلمة بين لهجة الكلام واللغة الفصحى .

فنحن الآن نسمع الكلمات الآتية مفتوحة الأول فى لهجة كلامنا ، وذلك لأن بعضها قد قيس على البعض الآخر :

خرطوم : شمروخ . طرطور . أزميل . برميل . بطيخ . خنزير . قنديل . كبريت . منديل . مسطرة . مروحة . مدخنة .

وكذلك نسمع كلمات مضمومة الأول مثل :

خلخال . قبقاب . غربال

وأخرى مكسورة الأول وهى كثيرة جداً مثل :

جبة . حِلية . عجّة . علبة . حزمة . حلم . عش . دهن . فجل . دلو .

وربما يسبب الانسجام بين الحركات أن يكسر الحرف الأول من بعض الكلمات مثل :

جميز . زبيب . كبير . جديد

٨- لعبت ظاهرة المخالفة Dissimilation فى لهجة كلامنا دوراً هاماً ، كما ظهر أثرها في اللغة الفصحى [١] . فقد تخلص الناس من إدغام المتماثلين بقلب أحدهما إلى أحد الأصوات الشبيهة بأصوات اللين وهى «الميم واللام والنون والراء وربما العين أيضاً» ، وتلك هى الأصوات التى سماها القدماء بالأصوات المتوسطة . فانظر مثلا إلى الفعل الفصيح «برّق بصره» أصبح فى لهجة كلامنا «برْنأ» . وكذلك الفعل «تفحّس» الذى يعنى تكبر وتعظم ، صار فى لهجة الكلام «تفنحص» ، وكذلك الفعل «كبّل» صار «كعبل» .

وربما زيدت هذه الأصوات على بنية الكلمات للمبالغة فى معناها مثل : «شرمط الورق» التى جاءت من الفعل الفصيح «شرط» . ومثل «طلمس الكتابة»

---

(١) انظر كتاب الأصوات اللغوية.

جاءت عن «طلس» الكتاب محاه ليفسد خطه . ومثل «غطرش» التى تعنى فى لهجة الكلام تجاهل ، قد جاءت من «الغطش» وهو ضعف البصر . ومثل «خرشم» التى جاءت من «خشم» الأنف أى كسره .

٩- هذا وقد شاع فى لهجة كلامنا تلك الأفعال الرباعية التى تشتمل على مقاطع متكررة ، فى حين أن بعض الصيغ القديمة للأفعال قد تلاشت ، ولم تعد تسمع فى لهجة الكلام المصرية :

فصيغة «أفعل» لا نكاد نعثر عليها فى لهجة الكلام ، بل حلّ محلها صيغة «فعّل» أحياناً أو صيغة الرباعى المكررة الأصوات . فانظر مثلا إلى الأفعال العربية الصحيحة : «ألحم» الرجل بالمكان أى أقام ولم يبرحه ، و «أرشم» الشجر أى أخرج ثمره ، و«أسبط» الرجل أى انبسط على الأرض ، و «أنعشه» الشراب .

فقد صارت هذه الأفعال فى لهجة الكلام على الترتيب :

تلحم . اترشم . سلبط . نعنش

وكما أثرت العوامل المتقدمة فى التغيرات الصوتية للهجة الكلام ، قد أثرت أيضاً فى اللهجات العربية القديمة ؛ مما أدى إلى رواية كثير من الكلمات الفصيحة مرة «بالميم» وأخرى «بالباء» ، أو مرة «بالراء» وأخرى «باللام» ، أو مرة بالأصوات المجهورة وأخرى بمهموسها ، أو مرة بأصوات الإطباق وأخرى بنظائرها من أصوات الاستفال . كذلك روت المعاجم كلمات متحدة المعنى والأصوات ، ولكن ترتيب الأصوات فيها مختلف ، وكذلك رويت لنا كلمات يجوز فتح أولها وكسره أو فتحه وضمه ، بل أحياناً تنص المعاجم على التثليث فى مثل تلك الكلمات وهكذا .

فما حدث من تطور صوتى فى لهجة كلامنا ، حدث مثله فى اللغة الفصحى فى معظم الأحيان ، ولكن الكلمات قد تشقى وتسعد كالإنسان !

فتلك التطورات الصوتية التى تمت فى العصور التى سماها الرواة بعصور الاحتجاج ، قد اعترف بها ، وأقرتها المعاجم ، وعدتها من الكلمات الفصيحة ، فى حين أنها رفضت التطور الصوتى نفسه فى العصور التى تلت هذا ، وذلك رغبة فى الوقوف باللغة العربية عند حدود العصور الأولى للإسلام ، وظناً منهم أن التطورات الصوتية القديمة كانت من فعل الأعراب الفصحاء أصحاب اللغة ، ولم يدر بخلدهم أنه تطور طبيعى للأصوات ، سواء حدث فى العصور القديمة أم الحديثة ، وأن الأعراب القدماء لم يعمدوا إليه عمداً ، أو قصدوه فى كلامهم وهم

يشعرون به . ولو قدر لتلك الكلمات العامية التى ذكرناها هنا أن يتقدم بها الزمن وأن يتم تطورها الصوتى فيما سموه عصور الاحتجاج ، لاستحقت من الرواة كل عناية ، ولرووها فى معاجمهم ، وأصبحت فصيحة مقبولة .

على أن كلامنا قد اختصت ببعض التطورات الصوتية التى لا نعرف لها نظائر فى تطورات اللهجات القديمة ، مثل عنايتها بتلك الأفعال الرباعية المتكررة المقاطع . فقد ملئت بها لهجة كلامنا ، واتخذت فى أفواهنا طريقاً خاصة ، لانظير لها فى غيرها من اللهجات العربية القديمة .

وتلك الأفعال تتكون من مقطعين ساكنين [1] ، ونلحظ أ ن المقطع الأول منهما حركته الفتحة دائماً ، فى حين أن المقطع الثانى تتوقف حركته على الأصوات المجاورة : فأحياناً نراها الفتحة وذلك إذا جاوره أحد الأصوات الآتية :

الظاء . الصاد . الضاد . الطاء . الراء . الغين . الخاء . الحاء . العين .

فى حين أنا نراه مكسوراً مع باقى الأصوات الهجائية .

ولهذه الأفعال الرباعية أشكال عدة فى لهجة كلامنا :

(١) فأحياناً يكون المقطعان متماثلى الأصوات مثل :

جرجر . تكتك . بحبح . بربر . بصبص . بسبس . تعتع . تفتف . تلتل . تمتم . تنتن . حتحت . رجرج . رخرخ . رصرص . رطرط . رعرع . رمرم . زحزح . زعزع . زغزغ . زلزل . زمزم . سخسخ . سلسل . سمسم . شبشب . شرشر . شمشم . ضحضح . ضعضع . طبطب . عضعض . فتفت . فلفل . كشكش . لحلح. لخلخ . لقلف . لملم . مصمص . مضمض . نخنخ . نسنس . نغنغ . وسوس . وشوش .

(٢) وأحياناً يتكرر صوت واحد من أصوات الكلمة ، بحيث إما أن يكون الصوت الأول والثالث متماثلين ، مثل :

بربش . جنجل . رهرط . سمسر . زمزأ . كركب . مخمض . مرمط . مسمر . مرمغ . نعنش .

أو بأن يكون الصوت الثالث والرابع متماثلين :

بقشش . دغشش . زقطط . عكنن .

---

(١) انظر معني المقطع الساكن والمقطع المتحرك في كتاب الأصوات اللغوية.

(٣) وأحياناً يتكون الفعل الرباعى من أصوات مختلفة ، ولكن أحد هذه الأصوات يكون فى غالب الأحيان من الأصوات الشبيهة بأصوات اللين ، مثل :

برتع . بريأ . طرشق . حمرأ . خربش . درمغ . سلطح . سمكر . شلفط . زنهر . زمجر . زروط . عربد . عرقص . هرول . مرجح . بعزأ . بهدل . بزوط . بحلق . طلسق . شعبط . شعلق . شقلب . شعوط . غتلم . فشخر . فشكل . لخبط . لخفن . لغمط . نغبش .

- ٢ -
الناحية الدلالية

أشرنا عند التحدث عن الترادف إلى تطور الدلالة ووقوعه فى اللهجات القديمة ؛ مما أدى إلى تلك الظاهرة التى نسميها بالترادف .

وربما كان خير مثل نسوقه هنا لنبين إمكان تطور المعانى فى كل لهجة ، ما حدث لكلمات كثيرة عربية الأصل ، وذات معان خاصة فى اللغة الفصحى ، من تطور معانيها بلهجة كلامنا ؛ فهي أمثلة حية ترينا كيف اختلفت معانيها بفعل تلك العوامل التى تحدثنا عنها آنفاً .

وقد يصعب علينا إدراك تطور المعانى فى اللهجات القديمة ، لبعد العهد بيننا وبين الزمن الذى تم فيه هذا التطور ، ولجهلنا التام بتاريخ الكلمات العربية قبل الإسلام ، ولكنا حين نتتبع معانى كثير من الكلمات العربية الأصل ، ونقارنها بما صارت إليه فى لهجة كلامنا ، نستطيع بسهولة ، أن ندرك كيف يمكن أن يتطور معنى الكلمة ويتغير .

ونحن عادة نرفض المعانى الحديثة ونسميها مولدة ، وننكر عليها فصاحتها، لا لسبب سوى أن الزمن قد تأخر بهذا التطور ، فجاء بعد ما سماه الرواة تعصور الاحتجاج .

ولولا أننا نتقيد بالمعانى القديمة ، ونقف عندها لا نعترف بأى تغيير يلحق معناها ، لقبلنا المعانى المولدة ، وعدت من صميم الكلام الفصيح ، إذ ليست فى الحقيقة بدعاً فى التطور اللغوى ، ولكن كل ما فيها من عيب فى نظر الرواة ، أنها جاءت إلى المعانى المولدة شزراً ، ونتحاشها فى أساليبنا الجدية . بل لقد أبقت بعض الكلمات العربية على معانيها القديمة واحتفظت بها ، ومع هذا فقد تحاشاها الأدباء ونسبوا إليها صفة العامية ، فأصبحت مبتذلة مثل : «خشّ» بمعنى دخل ، ومثل «مقشة» بمعنى مكنسة !!

وقد اتخذت بعض الكلمات المولدة طريق التخصص فى معانيها مثل :

«باش» التى كانت تعنى اختلط ، فأصبحت الآن فى لهجة كلامنا تعنى

اختلاط بعض المواد بالسوائل . ومثل «بطحه» التى كانت تعنى ألقاه على وجهه ، وتستعمل الآن مرادفة للكلمة العامية «عوّر» ، لأن من مستلزمات البطح فى غالب الأحيان «التعوير» . ومثل «حوّش» التى كانت تعنى جمع مطلقاً ، فتخصصت فى لهجة كلامنا بجمع المال . ومثل «لحاف» التى تخصصت الآن بنوع خاص مم يلتحف به ، ومثل «ربع» التى تخصصت الآن بنوع خاص من الدور .

ولقد لعب المجاز دوراً مهماً فى تطور المعانى لبعض الكلمات العامية مثل :

«الهمج» التى كانت تعنى البعوض ، فأصبحت الآن تعنى فى لهجة كلامنا الفوضويين من الناس . ومثل «جيب القميص» التى كانت تعنى فتحة القميص ، فأصبحت تستعمل الآن فى المعنى المعروف المرادف للكلمة العامية «سيّالة» . ومثل «رصرص» التى كانت تعنى ثبت بالمكان فاستعملت بعد ذلك للشعور بالبرد. ومثل «سفرة» التى كانت تعنى طعام المسافر فأصبحت الآن مرادفة للخوان . ومثل «شنب» التى كانت تعنى بريق الأسنان ، أصبحت الآن مرادفة للشارب ومثل «باخ» التى كانت تستعمل فى مثل «باخ الرجل» أى سكن غضبه و «باخت النار» أى سكنت ، فأصبحت تقال حين يشعر الإنسان بالخجل والخزى ... إلخ .

إلى غير ذلك من الكلمات التى لا تكاد تقع تحت حصر .

تلك هى أمثلة قليلة أردنا أن نسوقها لنحفز الهمم إلى الكشف عما قد يكون فى لهجات الكلام من طرائف لاشك أنها ستلقى ضوءاً على دراسة اللهجات القديمة وتجعل حكمنا عليها أقرب إلى اليقين .

كلمة ختامية

كلما زادت دراستنا للهجات العربية الحديثة تكشفت لنا أمور ، وأيقنّا أن لهجات الكلام فى البلاد العربية لاتزال تحتفظ بعناصر قديمة كانت شائعة فى لهجات العرب قبل الإسلام . فاللهجات الحديثة وإن كانت قد تطورت فى البيئات العربية المختلفة تطوراً مستقلا باعد بينها ، وصبغها بصبغة محلية فى بعض ظواهرها ، قد استمسكت بكثير من السمات التى عرفت عن القبائل القديمة .

فالصفة الكلامية التى نراها الآن مشتركة بين جميع البيئات العربية الحديثة ، أو حتى بين معظمها ، لا يمكن إلاّ أن تنتمى إلى لهجة قديمة أو مجموعة من اللهجات . انظر مثلا إلى اسم لإشارة للجمع تراه قد اتخذ صورة تكاد تكون واحدة فى جميع اللهجات الحديثة ، وهذه الصورة لا تمت بصلة إلى اسم

الإشارة المألوف فى اللغة النموذجية أى «هؤلاء أو أولئك»

فإذا قارنا بين اسم الإشارة «هؤلاء» وهو الشائع فى الأساليب الأدبية ، وبين الصورة التى صار عليها اسم الإشارة فى لهجات الكلام الحديثة ، لا نكاد ندرك الصلة بين الصورتين . فكل منهما مستقل عن الآخر ، وليس أحدهما تطوراً للآخر، بل يبدو أنهما صيغتان مستقلتان عاشتا جنباً إلى جنب فى عصور ما قبل الإسلام ، وقد شاعت إحداهما فى المجال الجدىّ من القول وشاعت الأخرى فى لهجات الخطاب .

والغريب أن أصحاب المعاجم على كثرة ما ذكروه عن اللهجات لم يشيروا إلى هذه الصيغة التى نسمعها الآن على كل لسان ، وكذلك النحاة لم يعرضوا لها فى المطولات من كتبهم ، فلم يقل أحدهم مثلا إن لاسم الإشارة الجمع صيغة أخرى ، أو صورة أخرى غير التى نألفها ونعهدها .

ومع هذا لا نشك لحظة فى أن اسم الإشارة الجمع الشائع الآن فى اللهجات الحديثة قد انحدر إليها من مصدر قديم ، فليس الاشتراك فيه بين البلاد العربية وليد المصادفة ، بل الأرجح أنها جميعاً قد استمدته من اللهجات القديمة التى نزحت إليها .

وإذا تذكرنا أن حرف «الذال» القديم قد تطور فى بعض اللهجات الحديثة إلى نظيره الشديد وهو «الدال» ، وأن الضم يناظر الكسر فى اللهجات القديمة ، استطعنا بسهولة أن نتبين العلاقة بين الصور التى صار عليها اسم الإشارة الجمع فى لهجات الخطاب الآن :

ففى شرق الأردن «هاذول» ، وفى العراق «ذول ، ذولِ» ، وفى بلاد الشام «هاذول» ، فى مصر «دول ، دولا» ، وفى بلاد المغرب «هاذول» ، وفى السودان «ديل» ، وفى نجد «ذولا» ، وفى صنعاء «هاذول» !!

بدأ اسم الإشارة بالمقطع «ها» حين يتقدم على المشار إليه ، كما فى لهجات الشام وبلاد المغرب وبعض جهات اليمن .

ويظهر من هذا العرض السريع أن الأصل فى اسم الإشارة الجمع هو الصيغة ، التى نسمعها الآن فى بعض جهات اليمن أى «هاذول» ، وقد انحرف هذا الأصل انحرافاً طفيفاً فى لهجات الكلام الأخرى .

فمن أين أتت لهجات الكلام بهذه الصيغة التى لم تشر إليها المعاجم أو كتب

النحاة ، وكيف اشتركت بينها جميعاً رغم اختلاف البيئة ، واختلاف الظروف الاجتماعية ؟

إن الباحث المنصف لا يتردد فى جعل هذه الصيغة إحدى الظواهر ، التى كانت شائعة فى لهجات القدماء ، وأنها انحدرت إلى اللهجات الحديثة من اللهجات القديمة .

كان للعرب القدماء إذاً كلمتان إحداهما «هؤلاء» ، والأخرى «هاذول» ، وكانوا يقصرون استعمال الأولى على الأساليب الأدبية ، ويتخذون الأخرى للهجات الخطاب .

وأسماء الإشارة كما ذكرنا آنفاً من العناصر العصيّة على التطور والتغيّر ، ولذلك بقيت الصورة القديمة التى كانت شائعة فى لهجات الخطاب ، شائعة أيضاً فى لهجات الكلام الآن بالبلاد العربية .

ويبدو من هذا المثال ونحوه من عناصر مشتركة بين لهجات الكلام الآن ، صحة ما رجحناه من قبل وما ندعو إليه دائماً من أنه كان للعرب القدماء لغتان مستقلتان ، يصطنعون إحداهما فى الأساليب الأدبية ، ويصطنعون الأخرى فى الحديث العادى ، وإلا فكيف نتصور أن اسم الموصول يتخذ الآن فى كل البلاد العربية صورة واحدة هى «اللى» ، بدلا مما نألفه فى اللغة النموذجية الأدبية من كلمات متعددة مثل :

الذى ، التى ، الذين ، اللاتى ، اللائى

بل حتى ما نظنه أحياناً من التطورات الحديثة ، نراه بعد البحث مشتركاً بين كثير من لهجات الخطاب الآن ، ونستطيع بعد التأمل أن ننسبه إلى أصل قديم، كان شائعاً فى بعض لهجات العرب القدماء مثل :

١ – التعبير عن الزمن الحالى أو عن العادة بفعل مضارع متصل بالباء فى غالب الأحيان ، أو بالدال أو القاف أو العين فى أحيان أخرى . والأصل فى كل من الأمرين لا يعدو أن كلمة مساعدة كان العرب يصلونها بالفعل المضارع ، حين يريدون التعبير عن الزمن الحالى أو العادة ، وكان هذا شائعاً فى لهجات كلامهم وفى حديث خطابهم . وانحدرت هذه الظاهرة إلى لهجات كلامنا الآن فأصبح :

المصرى ، وأهل الشام ، وشرق الأردن ، والسودانى ، وأهل مكة ، وبعض جهات اليمن ، يقولون مثلا ، بيلعب ، بيغنّى ... إلخ .

ولسنا نشك فى أن هذه «الباء» هى كل ما تبقى من الكلمة المساعدة ، التى كان العربى القديم فى لهجة خطابه يصلها بالمضارع ؛ للتعبير عن الزمن الحالى أو عن العادة . ويفترض بعض المحدثين لهذا اللفظ المساعدة عدة فروض منها :

باقى ، ذاهب ، بدّى .. إلخ .

وتتخذ لهجات العراق الحرف الذى يتصل بالفعل المضارع من كلمة أخرى هى فى الغالب «قاعد» ، وقد اختصرت هذه الكلمة فى لهجة بغداد ، ولم يبق منها إلا الدال ، فهم يقولون : دا يلعب ، دا يغنّى .

وقيل لنا إن اليهود بصفة خاصة قد سلكوا مع هذه الكلمة نفسها مسلكا آخر، فأبقوا منها على القاف ، فيقولون : قايلعب ، قايغنى .

٢- والنفى مع الشين فى نحو «ماتخفش ، ماجاش» ، نراه فى مصر وفى بلاد الشام وفى بلاد اليمن وفى شرق الأردن ، وجهات أخرى من الدول العربية الحديثة ، مما يرجع أنه ظاهرة قديمة ، كانت مألوفة فى بعض اللهجات العربية القديمة ، وأنها انحدرت إلى لهجات كلامنا من تلك القبائل القديمة .

٣- وأخيراً وليس آخراً ، كيف تسنى أن يكون موقف اللهجات الحديثة جمعيها متحداً فى سلوكها مع المثنى والجمع والمذكر السالم والأسماء الخمسة؟!

فليس فى هذه اللهجات من مظاهر المثنى إلا الاسم المثنى مثل : «كتابين ورجلين» ، وفيها جميعاً يلتزم الجمع المذكر الصحيح حالة واحدة هى بالياء دائما مثل : «مسلمين ومظلومين» ، وتلتزم الأسماء الخمسة حالة واحدة هى بالواو ، مثل: «أبوك وأخوك» .

أليس من الممكن أن يقوم مثل هذا دليلا على أن القبائل القديمة كانت تسلك هذا المسلك أيضاً فى لهجات خطابها ؟

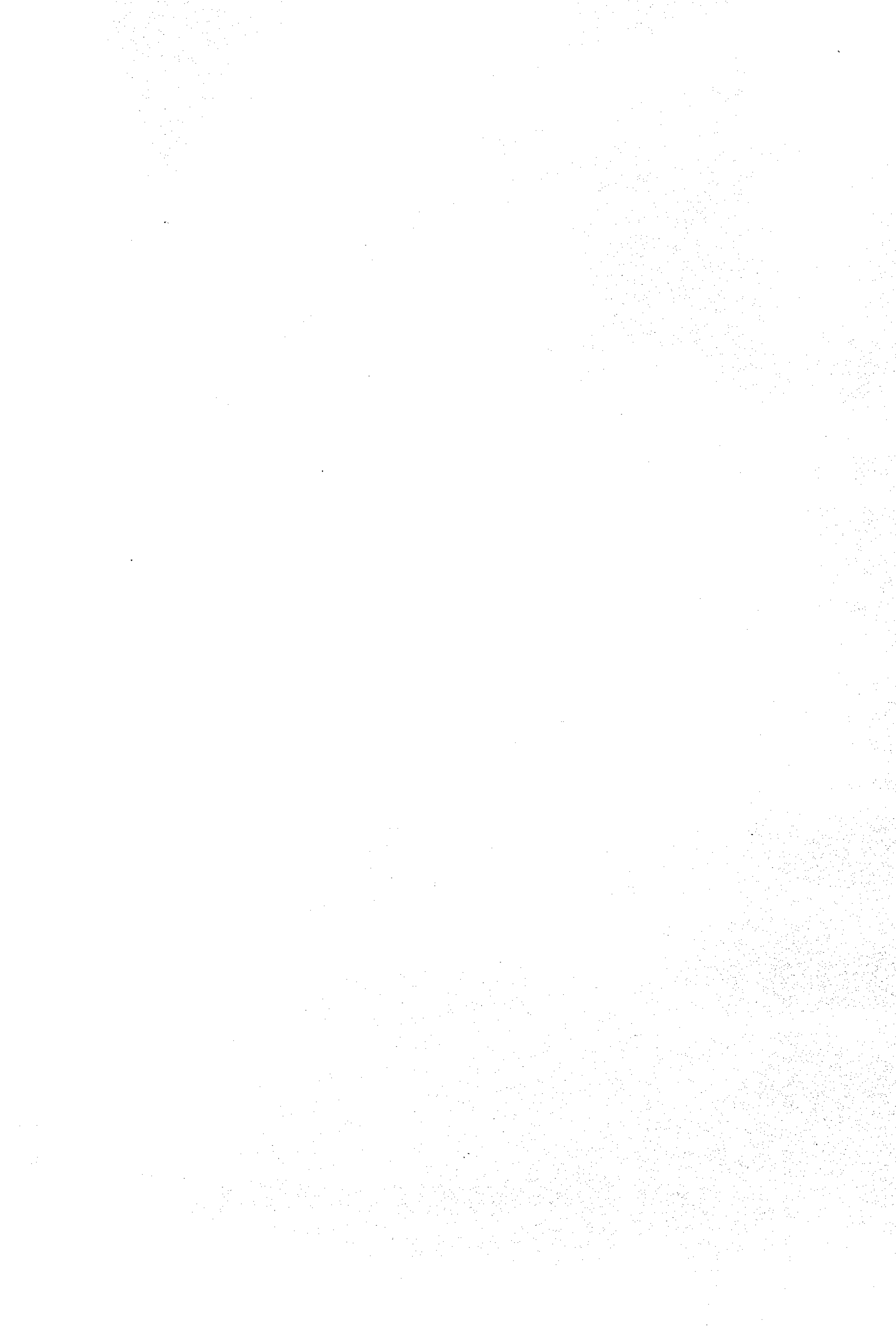
ولنا من كلام النحاة ما يؤكد هذا الرأى ، فقد أشاروا فى كتبهم إلى أن من العرب من كانوا يلتزمون حالة واحدة لكل من الجمع والأسماء الخمسة .

لسنا بعد كل هذا نتجنى على اللغة حين ندعو إلى الفصل بين ظواهر اللهجات وظواهر اللغة النموذجية الأدبية ، وإلى اعتبار ما اشترك فى لهجات الكلام الآن مما ينتمى إلى ظواهر قديمة ، شاعت فى لهجات الحديث عند العرب القدماء .

ملاحـــق

نصوص عن اللهجات العربية القديمة

(مستمدة من معجم لسان العرب)



الجزء الأول

١ - ومنها همزة الوقفة فى آخر الفعل لغة لبعض دون بعض ، نحو قولهم للمرأة قولى ، وللرجلين قولا وللجميع قولو ، وإذا وصلوا الكلام لم يهمزوا . ويهمزون «لا» إذا وقفوا عليها . ومنها همزة التوهم كما روى الفراء عن بعض العرب أنهم يهمزون ما لا همز فيه إذا ضارع المهموز ، قال سمعت امرأة من غنىّ تقول رثأت زوجى بأبيات كأنها لما سمعت رثأت اللبن ذهبت إلى أن مرثية الميت منها . (ص ١٠) .

قال أبو العباس أحمد بن فيمن همز ما ليس بمهموز :

وكنتُ أُرجّى بئر نُعمانَ حائرا فلوأ بالعينين والأنف حائرُ

أراد لوّى فهمز ، كما قال [كمشترى بالحمد ما لا يصيرهُ] قال أبو العباس هذه لغة من يهمز ما ليس بمهموز (ص ١١) .

٢ - قال أبو زيد وسمعت بعض بنى فزارة يقول : هما كِسايان ، خِبايان ، قضايان فيحول الواو ياء . (ص ١٣) .

٣ - قال وسمعت أعرابياً من قيس يقول : يا أب أقبلْ ، وياب أقبلْ ، ويا أبة أقبل ، ويابة أقبلْ فألقى الهمزة . (ص ١٤) .

٤- قال أبو زيد وِسمِعت بعض بنى عجلان من قيس يقول : رأيتُ غلاميّيك ، ورأيت غلاميّسد تحوّل الهمزة التى فى «أسد» وفى «أبيك» إلى الياء ويدخلونها فى الياء ، التى فى الغلامين التى هى الإعراب نفسه ، فيظهر ياء ثقيلة فى وزن حرفين . (ص ١٤) .

قال وسمعت رجلا من بنى كلب يقول هذه دأبّة ، وهذه امرأة شأبّة فهمزوا الألف فيهما : (ص ١٤) .

٥- قال أبو زيد أهل الحجاز وهذيل وأهل مكة والمدينة لا ينبرون ، وقف عليها عيسى بن عمر فقال ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر وهم أصحاب النبر ، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا (ص ١٤) .

٦- قال الفراء : وأهل مكة يخالفون غيرهم من العرب يهمزون البريئة والنبئ والذُرِّيئة ؟!.. وقال اللحيانى أجمعت العرب على ترك همزة هذه الثلاثة ولم يستثن أهل مكة . (ص ٢٢) .

٧- وأهل العالية يقولون بَرَأت أبْرَأ برأ وبروءاً ، وأهل الحجاز يقولون بَرَأتُ من المرض برأ بالفتح وسائر العرب يقولون برئت من المرض (ص ٢٢) .

٨- قال اللحيانى أهل الحجاز يقولون أنا منك بَرَاء ... لا يثنى ولا يجمع ... ولغة تميم وغيرهم من العرب أنا برئ (ص ٢٤) .

٩- وفى المثل شرٌ ما أجاءك إلى مُخة العرقوب (يضرب هذا عند طلبك إلى اللئيم أعطاك أو منعك) وشرٌ ما يجيئك إلى مخة عرقوب . قال الأصمعى وذلك أن العرقوب لا مخ فيه ، وإنما يحوج إليه من لا يقدر على شيء ، ومنهم من يقول [شرٌ ما ألجأك والمعنى واحد ، وتميم تقول : شرٌ ما أشاءك] (ص ٤٥) .

١٠- فى الحديث عن الحدأة جمعها حدأ [قال أبو حاتم أمّا أهل الحجاز فيقولون لهذا الطائر الحديّا وهو خطأ ويجمعون الحدادى وهو خطأ . وروى عن ابن عباس أنه قال لا بأس بقتل الحدْوْ والإفعوْ للمُحرِم وكأنها لغة فى الحِدأ ، والحديّا تصغير الحِدوْ] . (ص ٤٧) .

١١- الحُكأة دويبة وقيل هى العَظاية الضخمة يهمز ولا يهمز والجميع الحُكا مقصور ... وأهل مكة يسمون العَظاءة الحكاءة والجميع الحكا مقصورة . (ص ٥٢) .

١٢- الإدفاء القتل فى لغة بعض العرب ، وفى الحديث أنه أتى بأسير يرعد فقال لقوم اذهبوا به فأدفوه فذهبوا به فقتلوه فوداه صلى الله عليه وسلم أراد الإدفاء من الدفء وأن يدفأ بثوب فحسبوه بمعنى القتل فى لغة أهل اليمن (أو جهينة) ، وأراد أدفئوه بالهمز فخففه بحذف الهمزة وهو تخفيف شاذ ... وتخفيفه القياسى أن تجعل الهمز بين بين لا أن تحذف ، فارتكب الشذوذ لأن الهمزة ليس من لغة قريش . فأما القتل فيقال فيه أدفأت الجريح ودافأته ودفوته ودافيته إذا أجهزت عليه . [ملاحظة : لعلهم ظنوا الأمر من دفوته] (ص ٧٠) .

١٣- فى لغة بلحارث بن كعب «الصيص» هو «الشيص» عند الناس (ص ١٠٢) .

١٤- ما فتئت وما فتأت أذكره لغتان بالكسر والنصب ... وما أفتأتُ الأخيرة تميمية .. (ص ١١٤) .

وروى عن أبى زيد قال تميم تقول أفتأت وقيس وغيرهم يقولون فتئت . (ص ١١٥) .

١٥- قرآة البلاد وباؤها قال الأصمعى إذا قدمت بلادا فمكثت بها خمس عشرة ليلة فقد ذهبت عنك قرآة البلاد وقرآ البلاد . فأما قول أهل الحجاز قرة البلاد، فإنما هو على حذف الهمزة المتحركة وإلقائها على الساكن الذى قبلها ، وهو نوع من القياس . (ص ١٢٨) .

١٦- كثأت اللحية وكثأت (كثف وغلظ شعرها) . كرثأ شعرُ الرجل كثر والتف فى لغة بنى أسد (ص ١٣٢) .

١٧- قل من يكلؤكم بالليل والنهار ، ومن قال يكلاكم قال كليتُ مثل قضيت وهى من لغة قريش (ص ١٤٠) .

١٨- المرأ الإنسان ، وزعم السكرى أن كسر الميم لغة هديل (ص ١٥٠) .

١٩- قا سيبويه ؛ ليس أحد من العرب إلا ويقول تنبأ مسيلمة بالهمز غير أنهم تركوا الهمز فى النبى كما تركوه فى الذُّريّة والبريّة والخابية إلا أهل مكة فإنهم يهمزون هذه الأحرف ولا يهمزون غيره ،ا ويخالفون العرب فى ذلك قال والهمز فى النبئ لغة رديئة يعنى لقلة استعمالها ، لا لأن القياس يمنع من ذلك ألا ترى إلى قول سيدنا رسول الله صلعم وقد قيل يا نبئ الله فقال لا تنبر باسمى فإنما أنا نبى الله . (ص ١٥٧ . وقارن الهامش ٦)

٢٠- استورأت الإبل إذا ترابعت على نفار واحد ، وقال أبو زيد إذا نفرت فصعدت الجبل ، فإذا كان نفارها فى السهل قيل استأور ، قال وهذا كلام بنى عقيل (ص ١٨٩) .

٢١- قال عمر رضى الله عنه «لئن عشت إلى قابل لألحقنّ آخر الناس بأولهم حتى يكونوا ببّانا واحدا» . أى متساوين فى العطاء . وقرر الأزهرى أن ببّان يمانية (ص ٢١٦) .

٢٢- التابّ الضعيف والجميع أتباب هدلية نادرة (ص ٢٢٠)

٢٣- لم تختلف لغة قريش والأنصار فى شىء من القرآن إلا فى التابوت فلغة قريش بالتاء ولغة الأنصار بالهاء (ص ٢٢٧)

٢٤- قال شمر الأُثْلَبُ بلغة أهل الحجاز الحجر وبلغة بنى تميم التراب (ص ٢٣٥)

٢٥- الجدب مذُك الشئ والجبد لغة تميم (ص ٢٥١) ،

٢٦- الجُشب قشور الرمّان يمانية (ص ٢٥٩) .

٢٧- حكى اللحيانى عن بنى سُلَيم ما أحَبْتُ ذلك أى مما أحببْتُ كما قالوا ظَنْتُ أى ظننت (ص ٢٨١)

٢٨- الحرَبُ الطَّلْعُ يمانية واحدته حَرَبَةٌ وقد أحرب النخلَ وحرّبه إذا أطعمه الحرَب وهو الطلع (ص ٢٩٥).

٢٩- أتانى حِساب من الناس أى جماعة كثيرة وهى لغة هذيل . (ص ٣٠٣)

٣٠- تَحَسَّبَ الخيرَ استخبر عنه حجازية (ص ٣٠٧) .

٣١- (أ) قال الفراء ذكر أن «الحَصَبُ» فى لغة أهل اليمن الحَطَبُ (ص ٣١٠ ، ٣١١)

(ب) قال الفراء «الحصب» فى لغة أهل «نجد» ، مارميت به فى النار .

(جـ) وقال عكرمة حصب جهنم هو حطب جهنم بالحبشية .

(د) الحضَب (بالضاد) الحطب فى لغة اليمن .

٣٢- الحَوْب والحُوب والحاب الإثم فالحَوْب بالفتح لأهل الحجاز والحُوب بالضم لتميم (ص ٣٢٩) .

قال الأزهرى وبنو أسد يقولون : الحائب للقاتل .

٣٣- أهل البحرين يقولون للحديدة المعقفة ، التى لا أشَر لها أسنان المِخْلَب (ص ٣٥٠) .

٣٤- التُّذنوب البُسْر الذى قد بدا فيه الإرطاب من قبل ذنبه .

قال الفراء جاءنا بتُذْنوب وهى لغة بنى أسد ، والتميمىّ يقول تَذْنوب والواحدة تذنوبة (ص ٣٧٦) .

٣٥- ذهِبَ الرجلُ بالكسر يذهَب ذهباً فهو ذهِبٌ هجم فى المعدن على ذهب كثير فرآه فزال عقله وبرق بصره من كثرة عظمِه فى عينه .

وحكى ابن الأعرابى ذِهب قال وهذا عندنا مطرد إذا كان ثانيه حرفا من حروف الحلق ، وكان الفَعِل مكسور الثانى ، وذلك فى لغة بنى تميم وسمعه ابن الأعرابى فظنه غير مطرد فى لغتهم فلذلك حكاه (ص ٣٨١)

٣٦ – رابنى أمرُه ، قال الأصمعى أخبرنى عيسى بن عمر أنه سمع هذيلا تقول أرابنى أمره (ص ٤٢٦) .

٣٧ – الشّاعبان المنكبان لتباعدهما يمانية (ص ٤٨٤) .

٣٨ – شُيُبٌ إنما هو جمع شائب ، كما قالوا بازلٍ وبُزل أو جمع شُيُوب على لغة الحجازيين ، كما قالوا دجاجة بيوض ودجاج بيض (٤٩٤) .

الجزء الثانى

١- الخَب لغة فى الصخَب ربَعيَّة قبيحة (ص ٩) .

٢- قال الأزهرى سمعت أعرابياً من بنى فزارة يقول لخادم له ألا وارفع لى عن صعيد الأرض مصطبَة أبيت عليها بالليل . قال وسمعت آخر من بنى حنظلة سمّاها المصطفَة بالفاء (ص ١١) .

٣ - الصَقَبُ القُرْب . ومنه حديث على ، كرم الله وجهه ، أنه كان إذا أُتى بالقتيل قد وجد بين القريتين حمل على أصقب القريتين إليه أى أقربهما ، ويروى بالسين . وأنشد لابن الرقيات :

كُـوفيّةٌ نازحٌ مَحِـلّتُها لا أَمَمٌ دارها ولا صَـقَبُ

(ص ١٤) .

٤- الطُرطُبَة الضرع الطويل يمانية عن كراع (ص ٤٧) .

٥- قال ابن شُمَيْل فى سعد : بنو عَبُّ الشمس ، وفى قريش بنو عبد الشمس (ص ٦٤) .

٦- العُرُب جمع عَرُوب وهى المرأة الحسناء المتحببة إلى زوجها . وقيل هى الشَكِلات بلغة أهل مكة والمغنوجات بلغة أهل المدينة . (ص ٨١) .

٧- طير عَكُوب ، عُكُوف . قال والباء لغة بنى خفاجة من بنى عُقيل (ص ١١٧) .

٨- العنكبوت هى بلغة اليمن عَكَنبَاة (١٢٣) .

٩- والعيبة زبيل من أدم ينقل فيه الزرع المحصود إلى الجرين فى لغة هَمْان (ص ١٢٥) .

١٠- ابن سيده والغَرْب بسكون الراء شجرة ضخمة شاكة خضراء حجازية (ص ١٣٦) .

١١- ولغة بنى أسد امرأة غضبانة وملآنة وأشباهها (ص ١٤١) .

١٢- الأزهرى أهل اليمن يسمون المرأة المسنة قَحْبَة (ص ١٥٥) .

(قيل للبغىّ قحبة لأنها كانت فى الجاهلية تؤذن طُلّابها بقُحابها وهو سعالها) وفى ص ١٩٨ الكَحْب بلغة أهل اليمن العورة .

١٣- قزِب الشئ قزباً صلب واشتد يمانيه (ص ١٦٥) القَسْبُ الصلب الشديد، وقع فى شعر رؤبة .

١٤- القشْبَةُ الخسيس من الناس يمانية (ص ١٦٨) .

١٥- وأهل مكة يسمون القتّ القَضْبة (ص ١٧٣) .

١٦- القِلّيب والقَلُّوب والقِلّوب والقلُّوب والقِلاّب الذئب يمانية . (ص ١٨٢) .

١٧- القائبة والقابة البيضة والقُوب بالضم الفرْخ . وفى المثل تخلصت قائبة من قوب يضرب مثلا للرجل إذا انفصل عن صاحبه ، قال أعرابى من بنى أسد لتاجر اسخفره إذا بلغت بك مكان كذا فبرئت قائبة من قوب ، أى أنا برئ من خفارتك (ص ١٨٧) .

١٨- قال ورأيت فى بعض النسخ تِكتبّان بكسر التاء وهى لغة بهراء يكسرون التاء فيقولون تِعلمون ثم أتبع الكاف كسرة التاء (ص ١٩٢) .

[ملحوظة : هل هى التاء أو الياء ؟!]

١٩- «لا يسمعون فيها لغوا ولا كِذاباً» أى كذبا عن اللحيانى ، قال الفراء خفّفتها على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ، جميعا وثقّلهما عاصم وأهل المدينة وهى لغة يمانية فصيحة ، يقولون كذّبت به كِذّابا وخرّقت القميص خِرّاقا وكل فعّلت فمصدره فِعّال فى لغتهم مشدودة (ص ٢٠١) .

٢٠- المطالب الجرئ يمانية (ص ٢٢٠) .

٢١- الكُوبَةُ النّرْد فى كلام أهل اليمن (ص ٢٢٥) .

٢٢- قيل لصفية بنت عبد المطلب وضربتْ الزبير : لم تضربينه ؟ فقالت ليلَبّ ويقود الجيش ذا الجلب أى يصير ذا لبّ . قال ابن الأثير هذه لغة أهل الحجاز وأهل نجد يقولون لبّ يلبّ بوزن فرّ يفرّ .

٢٣- لَبَاب لَبَاب يريد به لا بأس بلغة حمير (ص ٢٢٨) [ملحوظة : هل تصحيف التاء باء؟؟] (وانظرصفحة ٣٨٨ وهو فى لغة حمير لباتِ أى لا بأس) .

٢٤- اللازب واللاتب واحد قال وقيس تقول طين لاتب ، واللاتب اللازق (ص ٢٣١) .

٢٥- حكى أبو عمرو بن العلاء عن أعرابى من أهل اليمن فلان لَغوبٌ جاءتْه كتابى فاحتقرها ، قلتُ أتقول جاءته كتابى فقال أليس هو الصحيفة ؟ قلت فما اللغوب ؟ قال الأحمق (ص ٢٣) .

٢٦- ابن الأعرابى هربَ الرجلُ إذا هرِمَ . والهُرْبُ الثَرْبُ يمانية الشحم على الكرش (ص ٢٨٢) .

٢٧- الهَوْب اسم النار ، والهَوْب اشتعال النار ووهجها يمانية وهَوْب الشمس وهجها بلغتهم (ص ٢٨٧) .

٢٨- الوثب القعود بلغة حمير يقال ثِبْ أى اقعُدْ ، ودخل رجل من العرب على ملك من ملوك حمير ، فقال له الملك ثِبْ أى اقعد فوثب فتكسّر . فقال الملك ليس عندنا عربِيْت من دخل ظفار حمَر أى تكلم بالحميرية . وقوله عربِيْت يريد العربية فوقف على الهاء بالتاء وكذلك لغتهم . ورواه بعضهم ليس عندنا عربية كعربيتكم ، قال ابن سيده وهو الصواب عندى ؛ لأن الملك لم يكن ليخرج نفسه من العرب والفعل كالفعل . والوثاب الفراش بلغتهم ، ويقال وثبته وثابا أى فرشت له فراشا والوثوب فى غير لغة حمير النهوض والقيام ، والموثبان بلغتهم الملك الذى يقعد ويلزم السرير ولا يغزو (ص ٢٩١)

٢٩- الأشْواب والأوباش والأوشاب الأخلاط من الناس والرِّعاع ، وثمرة وَشْبةٌ غليظة اللحاء يمانية (ص ٢٩٦) .

٣٠- اليَلَبُ الدروع يمانية (ص ٣٠٦) .

٣١- البَرْت والبِرْت الفأس يمانية . والبُرْتُ بلغة اليمن السُّكَّرُ الطَّبْرزَدْ (ص ٣١٣)

٣٢- المبْلَتُ المَهْر المضمون حميرية (٣١٦) .

٣٣- ابن الأعرابي العربِ تقول أبيتُ وأباتُ وأصيدُ وأصادُ ويموت ويمات ويدوم ويدام وأعيف وأعاف . ويقال أخيل الغيث بناحيتكم وأخال لغة وأزيل يقال زال يريدون أزال . قال ومن كلامَ بنى أسد ما يليق بك الخير ولا يعيق إتباع الصحاح بات يبيت ويبات (ص ٣٢٠ وفى باب القاف ما عاقت المرأة عند زوجها ولا لاقت أى ما حظيت) .

٣٤- التابوه لغة التابوت أنصارية (ص ٣٢١) .

٣٥- هذيل تقول عتّى فى حتّى (ص ٣٢٨) .

٣٦- الحَلِيتُ الجليد والصقيع بلغة طئ (ص ٣٢٩) .

٣٧- الخبيتُ الحقير الردئ من الأشياء قال اليهودىّ الخيبرىّ :

ينفعُ الطَّيبُ القليل من الر   رق ولا ينفع الكثيرُ الخبيتُ

وسأل الخليل الأصمعى عن الخبيث فى هذا البيت ، فقال له أراد الخبيث وهى لغة خيبر ، فقال له الخليل لو كان ذلك لغتهم لقال «الكتير» ، وإنما كان ينبغى لك أن تقول إنهم يقلبون الثاء تاء فى بعض الحروف . وقال أبو منصور فى بيت اليهودى أيضا أظن أن هذا تصحيف قال لأن الشئ الحقير الردئ إنما يقال له الختيت بتاءين وهو بمعنى الخسيس فصحّفه وجعله الخبيت (ص ٣٣٢)

٣٨- الخَمِيت السمين حميرية (ص ٣٣٦) .

٣٩- غلبت الحاء على العين فى لغة سعد فيقولون كنتُ مَحُمْ فى معنى معَهُم (ص ٣٤٤) .

٤٠- قال أبو زيد سمعت رجلا من قيس يقول هذا رجل سِكْتِيت بمعنى سِكِّيت (ص ٣٤٨) .

٤١- الطَّستُ هو الطَّسّ بلغة طئ أبدل من إحدى السينينِ تاء للاستثقال (ص ٣٦٣) .

٤٢- الأعفتُ فى بعض اللغات الأعسر قيل هى لغة تميم والألفتُ أيضاً الأعسر (ص ٣٦٤) .

٤٣- وتفاوت الشيئان أى تباعد ما بينهما تفاوُتا بضم الواو ، وقال الكلابيون فى مصدره تفاوتا ففتحوا الواو (ص ٣٧٣) .

٤٤- فى لغة حمير لَبَات أى لا بأس (ص ٣٨٨) .

٤٥- اللَّصْتُ بفتح اللام اللَّصّ فى لغة طئ وجمعه لُصُوت وهم الذين يقولون للطسّ طسْت (ص ٣٨٩) .

٤٦- الألفتُ والألْفَكُ فى كلامن تميم الأعسرِ سمى بذلك ؛ لأنه يعمل بجانبه الأميل وفى كلام قيس الأحمق مثل الأعفت (ص ٣٩٠) .

٤٧- مات يموت موتا ويمات الأخيرة طمائية (ص ٣٩٦) .

٤٨- حَوْثُ لغة فى «حيث» إما لغة طئ وإما لغة تميم وقال اللحيانى هى لغة طئ فقط (ص ٤٤٤) .

٤٩- هى لغة غاشية فى الحجاز يقولون يريدُ يفعلُ أى أن يفعل ، قال ابن الأثير وما أكثر ما رأيتها واردة فى كلام الشافعى (ص ٤٦٣) .

٥٠- طحثه يطحثّه طحنا ضربه بكفه يمانية (ص ٤٧٠) .

٥١- أصل العَيْث الفساد ، وقال اللحيانى عَثَى لغة أهل الحجاز ، وهى الوجه . وعاثَ لغة بنى تميم ، قال وهم يقولون ولا تعيثوا فى الأرض (ص ٤٧٦) .

الجزء الثالث

١- والجيم والشين والضاد ثلاثة فى حيز واحد وهى من الحروف الشجرية والشجْر مفْرج الفم ، ومخرج الجيم والقاف والكاف بين عكدة اللسان وبين اللهاة فى أقصى الفم !! وقال أبو عمرو بن العلاء بعض العرب يبذلون الجيم من الياء المشددة . قال وقلت لرجل من حنظلة ممن أنت ؟ فقال فقيْمج ، فقلت من أيهم ؟ قال مرج ، يريد فقيْمى مرّى . وأنشد لهميان ابن قحافة السعدى يطير عنها الوبر الصهابجا قال يريد الصهابيّا من الصُّهبة . وقال خلف الأحمر أنشدنى رجل من أهل البادية :

خالى عويف وأبو علجّ   المطعمان اللحم بالعشجّ

وبالغداة كسر البرنجّ ، يريد عليّا والعشىّ والبرنىّ ، قال وقد أبدلوها من الياء المخففة أيضاً ، وأنشد أبو زيد .

ياربّ إن كنت قبلتَ حجّتجْ   فلا يزال شاحجّ يأتيك بجْ

أقمزُ نهّازٌ ينزّى وفرتجْ

(ص ٢٦) وانظر ص ١٤٤ .

٢- الجلّج فى لغة أهل اليمامة حباب الماء (ص ٤٧) .

٣- قال ابن شميل : أهل اليمامة يسمون بطيخا عندهم أخضر ، مثل ما يكون عندنا أيام التيْرماه (رابع الشهور الشمية عند الفرس) بالبصرة الحدجْ (ص ٥٦) .

٤- الجمخ بفتح الميم الفتور من مرض أو تعب يمانية (ص ٨٦) .

٥- دحج ابن سيده دحجه يدحجه دحْجاً عركه عرْكاً كعرْك الأديم يمانية ، والذال المعجمة لغة وهى أعلى (ص ٩٠) .

٦- المزجّة ما يُزجج به الحاجبُ ، والأزجُّ الحاجب اسم له فى لغة أهل اليمن (ص ١١١) .

٧- أما الزوج فأهل الحجاز يضعونه للمذكر والمؤنث وضعاً واحداً ، تقول المرأة هذا زوجى ويقول الرجل هذه زوجى ، قال الله عز وجل : اسكن أنت وزوجك الجنة ، وأمسك عليك روحك ، وبنو تميم يقولون هى زوجته ، وأبى الأصمعى فقال زوج لا غير ، وقال الفرزدق :

وإن الذى يسعى يُحرّشُ روجتى كساعٍ إلى أسْد الشرى يَسْتَبيلُها

(ص ١١٦)

٨- المسحَّة التى يُطلى بها لغة يمانية (ص ١١٩)

٩- السَّمْجُ والسَّمِيج الذى لا ملاحة له الأخيرة هذلية (ص ١٢٤) .

١٠- الشَّبَجُ الباب العالى البناء هذلية (ص ١٢٧) .

١١- الليث وابن دريد تقول هذيل غنَجٌ على شنَج أى رجل علي جمل فالغنج هو الرجل والشنج الجمل . والشَّنج الشيْخ هذلية ، يقولون شيْخ شنج على غنج أى شيخ على جمل ثقيل والله أعلم (ص ١٣٤) وانظر ص ١٥٤

١٢- الأصلَجُ الأصلع بلغة بعض قيس (ص ١٣٥)

وقال الأزهرى فى ترجمة «صلخ» «الأصلخ» بالخاء الأصم ، كذلك قال الفراء وأبو عبيد ، قال ابن الأعرابى فهؤلاء الكوفيون أجمعوا على هذا الحرف بالخاء وأما أهل البصرة ومن فى ذلك الشق من العرب فإنهم يقولون «الأصلج» بالجيم . قال وسمعت أعرابياً يقول فلان يتصالج علينا أى يتصامم، قال ورأيت أمة صمّاء تعرف بالصلخاء ، قال فهما لغتان جيدتان بالخاء والجيم . قال الأزهرى وسمعت غير واحد من أعراب قيس وتميم يقول للاصمّ أصلج وفيه لغة أحرى لبنى أسد ومن جاورهم أصلخ بالخاء (ص ١٣٥) وانظر جـ٤ ص٣ .

١٣- والعجعجة فى قضاعة كالعنعنة فى تميم يحولون الياء جيما مع العين يقولون هذا راعجَ خرج معِجَ أى راعىَ خرج معى كما قال الراجز :

خالى لقيطٌ وأبو علجَ المطعمان اللحم بالعشجَ
وبالغداة كِسرَ البرنجَ يُقلَعُ بالودِّ وبالصيِّصجِ

أراد علىّ والعشىّ والبرنىّ والصيِّصِىّ (ص ١٤٤) .

١٤- ابن سيده رجل أَعْصَجُ أصلع لغة شنعاء لقوم من أطراف اليمن لايؤخذ بها (ص ١٤٩) .

١٥- وقولهم شيخ على عنَج أى شيخ هرمٌ على حمل ثقيل ، والعَنَجُ بلغة هذيل الرجل وقيل هو بالغين معجمة قال الأزهرى ولم أسمعه بالعين من أحد يرجع إلى علمه ولا أدرى ما صحته (ص ١٥٤ ويقارن بصفحة ١٣٤) .

١٦- وما أَعيج من كلامه بشئ أى ما أعبأ به ، قال وبنو أسد يقولون ما أُعُوجُ بكلامه (ص ١٦٠) .

١٧- ويقال اللُّجّ السيف بلغة طئ وقال شمر قال بعضهم اللُّج السيف بلغة هديل وطوائف من اليمن (ص ١٧٨) .

١٨- قال الأزهرِى وسمعت أعرابيا من بنى كُلَيْب يقول : لمّا فتح أبو سعيد القرمطىّ «هجر» سوّى حطاراً من سعف النخل وملأه من النساء الهجريات ثم ألعج النار فى الخطار فاحترقن (ص ١٨١) .

١٩- أبو السَّمَيْدع سرنا عقبةً متُوجاً أى بعيدة قال وسمعت «مدركاً» و«مبتكرا» الجعفرِيين يقولون سرنا عقبة متوجا ومتوحا ، «متوخا» أى بعيدة فإذا هى ثلاث لغات (ص ١٨٥) .

٢٠- قال بعض غنىّ يقال لَجلَجْتُ اللُّقمة ونجنجتها ، إذا حركتها فى فيك وردّدتها فلم تبتلعها (ص ١٩٨) .

٢١- تنغَّجت الأرنبُ اقشعرت يمانية (ص ٢٠٥) .

٢٢- وواد هجيج وإهْجيج عميق يمانية (ص ٢٠٩)

٢٣- قال أبو موسى الهرْج بلسان الحبشة القتل (ص ٢١٢)

٢٤- الوَيْجُ خشبة الفدّان عُمانيّة (ص٢٢٥) .

٢٥- وقال اللحيانى زعم الكسائى أنه سمع رجلا من بنى عامر يقول : إذا قيل لنا أبقِى عندكم شىء ؟ قلنا بحْباحِ أى لم يبق (ص ٢٣٠)

٢٦- جحّ الشئ يجحّه جحّاً سحبه يمانية (ص ٢٤٣)

٢٧- قال الأصمعى قال لى صبىٌ من أعراب بنى أسد دلَّبِحْ أى طأطئْ ظهرك ، قال ودَرْبِحْ مثله (ص ٢٦٠)

الأزهرى قال أعراب بنى أسد دَلّبحْ أى طاَطئ ظهرك ودربح مثله (ص ٢٦٠) .

٢٨- قال ابن دريد السُّح تمر يابس لا يُكنز لغة يمانية ، قال الأزهرى وسمعت البحرانين يقولون لجنس من القسْب (تمريابس يتفتت فى الفم) السُّحٌ (ص ٣٠٦)

٢٩- والسِّرحان (الذئب المشهور) ، والسِّيد الأسد بلغة هذيل (ص ٣١١) .

٣٠- السَّقَحَةُ الصَّلَعُ يمانية رجل أسْقحُ وسيذكر فى الصاد (ص ٣١٦) الصُّقْحَةُ الصَّلَعة ورجل أصقحُ أصلع يمانية (ص ٣٤٨) .

٣١- الشارح فى كلام أهل اليمن الذى يحفظ الزرع من الطيور وغيرها (ص ٣٢٩) .

٣٢- الشُّقْحة والشُّقْحة البُسْرة المتغيرة إلى الحمرة . قال وهو فى لغة أهل الحجاز الزّهْو (ص ٣٢٩) .

٣٣- الشّلّحاَء السيف بلغة أهل الشّحْر وهى بأقصى اليمن (ص ٣٣٠) .

٣٤- وقول الهذلى [وكرّم ماء صريحا] أى خالصا ، وأراد بالتكريم التكثير قال وهى لغة هذلية (ص ٣٤١) .

٣٥- قال خالد بن كلثوم ضحضاح فى لغة هذيل كثير لا يعرفها غيرهم يقال عنده إبل ضحضاح ، قال الأصمعى غنم ضحضاح وإبل ضحضاح كيرة وقال الأصمعى هى المنتشرة على وجه الأرض ، والضحضاح فى الأصل مارق من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين (ص ٣٥٧) .

٣٦- وفُقّاحةُ اليد وفَقْحتُها راحتها بِمانيةِ سميتِ بذلك لاتساعها ، والفَقْحة منديل الإحرام كل ذلك بلغتهم ، وفقح الشئ يفقحه فقْحًا سفّه كما يسفّ الدواء يمانية (ص ٣٨٠) .

٣٧- القَدّاح الفصْفصَة (الرطبة من علف الدواب) الرّطْبة عراقية الواحدة قَدّاحة (ص ٣٩١) .

٣٨- القمح لغة شاميّة وأهل الحجاز قد تكلموا بها (ص ٤٠٠) .

٣٩- وروى عن الأصمعى أنه قال : التقَمُّح كراهة الشرب (مادة قمح) ، ولكن التقنّح (مادة قنح) أن تشرب فوق الرِّى ، قال الأزهرى وهو كما قال شمر وهو التقنح والتّرنُّح سمعت ذلك من أعراب بنى أسد (ص ٤٠١ ، ٤٠٢) .

٤٠- ورجل مَجّاح بما لا يملك يمانية (ص ٤٢٥) .

٤١- وحضرني أعرابيان فصيحان من بني كلاب فقال أحدهما لا أقول إلا إنْفَحة وقال الآخر لا أقول إلا منفْحة ثم افترقا على أن يسألا عنهما أشياخ بني كلاب فاتفقت جماعة على قول ذا وجماعة على قول ذا فهما لغتان ، ونفاح المرأة زوجها يمانية (ص ٤٦٤) .

٤٢- امرأة بَيْذَخة تارّة لغة حميرية ، (في مادة بذخ) وامرأة بَيْذَخٌ أي بادن (ص ٤٨٤) .

٤٣- البَرْخُ الكبير الرّخْص عُمانيّة وقيل هي بالعبرانية أو السريانية ، يقال كيف أسعارهم فيقال برْخ أي رخيص (ص ٤٨٤) .

٤٤- الخَوخَةِ كُوة في البيت تؤدي إليه الضوء ، والخَوْخَة مُخْتَرَقٌ ما بين كل دارين لم ينصب عليها باب بلغة أهل الحجاز (ص ٤٩٠) .

٤٥- الرّدَخُ مثل الردغ عُمانيّة (كلاهما بمعنى الوحل الكثير) (ص ٤٩٥) .

٤٦- «رمخ» شمر هو السّدا ممدود (البلح) بلغة أهل المدينة ، وهو السّيَاب (بلح أو تمر) بلغة وادي القرى ، وهو الرُمْخ بلغة طيِئ واحدتها رمْخة ، والخلال بلغة أهل البصرة ، والرمْخ الشجر المجتمع والرمح والرُمخ البلح واحدته رمَخة لغة طائية (ص ٤٩٦) .

٤٧- الزّخِيخ النار يمانية (ص ٤٩٨) .

٤٨- السّماخ لغة في الصّماخ ، ويقال سمخني بحدّة صوته وكثرة كلامه ولغة تميم الصمْخ (ص ٥٠٤) .

الجزء الرابع

١- الأَصْلَخ الأصمّ كذلك قال الفراء وأبو عبيد ، فهؤلاء الكوفيون أجمعوا على هذا الحرف بالخاء المعجمة . وأما أهل البصرة ومن فى هذا الشق من العرب.. فإنهم يقولون الأصلج بالجيم (ص ٣) [وانظر جـ٣ ص ١٣٥] .

٢- الصِّماخ من الأذن الخرق الباطن الذى يفضى إلى الرأس تميمية والسماخ لغة فيه (ص ٤) .

٣- الطِّبيخ بلغة أهل الحجاز البطيخ وقيده أبو بكر بفتح الطاء (ص ٧) .

٤- وأهل اليمن يسمون الصَّقْعَ (بمعنى الضرب) القَفْخ (ص ١٧) .

٥- نكَخهُ فى حلقه نَكْخاً لَهزهُ يمانية (ص ٣٢) .

ابن سيده الهبَيَّخَة المرضعة ، وهى أيضاً الجارية التارّة الممتلئة وكل جارية بالحميرية هبيّخة والهبيّخ فَعَيَّل بتشديد الياء الغلام بلغتهم أيضاً (ص ٣٢) .

٦- وثوب بَرُود إذا لم يكن دفيئاً ولا ليّناً من الثياب وثوب أَبْرَد فيه لُمَعٌ سوادٍ وبياض يمانية (ص ٥٤) .

٧- البلّد الدار يمانية (ص ٦٢) .

٨- التَّقْرِدة الكسِيرة عن ابن دريد قال والتقرد الأبزار كلها عند أهل اليمن (ص ٦٨) .

٩- والجدّاد الخُلْقَان من الثياب هوْ معرب كُداد بالفارسية ، والجدّاد الخيوط المعقدة يقال لها كدّاد بالنبطية (ص ٨٥) .

١٠- الجَريدةُ السَّعَفَة ما كانت ، بلغة أهل الحجاز (ص ٩١) .

١١- قال أبو عبيد والمِرْبَد أيضاً موضع التمر مثل الجرين فالمربد بلغة أهل الحجاز والجرين لهم أيضاً والأَنْدَر لأهل الشام والبَيْدَر لأهل العراق . قال الجوهرى وأهل المدينة يسمون الموضع الذى يجفف فيه التمر لينشف مربدا وهو المِسْطَح والجرين فى لغة أهل نجد ، والمربد للتمر كالبيدر للحنطة (ص ١٥١) ورِبْد السيف فريدة هذلية .

١٢- الرَّنْدُ الآس وقيل وهو العود الذى يُبَخَّر به ، واحدته رَنْدَة ، قال الأزهرى الرعد عند أهل البحرين شبه جوالق ، ورأيت هجريا يقول النَّرْد وكأنه مقلوب (ص ١٦٩) .

١٣- السَّبَنْدَى والسِّبَنْدَى والسَّبَنْتَى النَّمر وقيل الأسد ، وقيل السبندى الجرئ من كل شيء هذلية (ص ١٨٧) قال الأزهرى . فى الرباعى السبندى الجرئ وفى لغة هذيل الطويل ، «الساجد» المنتصِب فى لغة طئ قال الأزهرى ولا يحفظ لغير الليث

١٤- السُّمُودُ الغناء بلغة حمير ، يقال اسمُدِى لنا أى غنّى لنا (ص ٢٠٤)

١٥- والسُّودَد الشرف معروف وقد يهمز وتضم الدال طائية ، الأزهرى السُّودُد بضم الدال الأولى لغة طئ (ص ٢١٣) .

١٦- السِّيدُ الذئب ويقال سِيدُ رَمْل ، وفى لغة هذيل الأسد (ص ٢١٧) .

١٧- فيمكن تخريجه على لغة بعض العرب من بكر بن وائل يقولون «رَدْتُ ، رَدْتَ ، رَدْن» ، يريدون رددتُ ، رددتَ ، رددن .قال الخليل كأنهم قدروا الإدغام قبل دخول التاء والنون (ص ٢٢٠) .

١٨- والشكْد الجزاء والشكْد كالشكر يمانية (ص ٢٢٤) .

١٩- الليث لغة تميم شهيد بكسر الشين يكسرون فعيلا فى كل شيء كان ثانية أحد حروف الحلق ، وكذلك سفْلى مصر يقولون فِعيلا قال ولغة شنعاء يكسرون كل فِعيل والنصب اللغة العالية (ص ٢٢٧) .

٢٠- وكذلك فيمن قال رُسْلٌ مخففة قال وهى اللغة التميمية (ص ٢٤٩) .

٢١- وأهل الحجاز يثبتون الياء والواو نحو صَيِدَ ، عَوِرَ ، وغيرهم يقول صادَ يَصادُ ، عار يعار (ص ٢٥٠) ، والصائد الساق بلغة أهل اليمن (ص ٢٥١) .

٢٢- وقد يوضع الضمّاد على الرأس للصداع يُضمدُ به والمِضَد لغة يمانية (ص ٢٥٣) .

[ص ٤١٢ . المَضْدُ لغة فى ضمْد الرأس يمانية] .

٢٣- سألت أبا عبيدة عن الماء العِدّ فقال لى الماء العِدّ بلغة تميم الكثير ، قال وهو بلغة بكر بن وائل الماء القليل (ص ٢٧٦) .

٢٤- العَضُدُ وهو ما بين المرفق إلى الكتف والكلام الأكثر العَضُد ، قال أبو زيد أهل تهامة يقولون العضد والجز ويذكورن (ص ٢٨٣) .

٢٥- وقوله أعْمَدَتَاه رِجلاه على لغة من قال أكلونى البراغيث وهى لغة طئ (ص ٢٩٦) .

٢٦- القراميد فى كلام أهل الشام آجُرّ الحمامات ، وقيل وهى بالرومية قِرْميدَى (ص ٣٥٢) .

٢٧- الإقْلِيد المفتاح يمانية وقال اللحيانى هو المفتاح ، ولم يَعْزُها إلى اليمن (ص ٣٦٨) .

٢٨- قادَ الدابّة قَوْدا فهى مَقُودَة ، مقْوودة الأخيرة نادرة ، وهى تميمية (ص ٣٧٢) .

٢٩- ولغة بنى عَدِيّ كُدْتُ أفعلُ كذا بضم الكاف (ص ٣٨٦) . وكوّدَ التراب جمعه وجعله كُثْبَةً يمانية .

٣٠- كدُّه عن الأمر كدًّا حبسه هذليّة (ص ٣٩٦) .

٣١- وأما أبو عبيد فروى عن أبىَ عبيدة أن أهل العلية يقولون مَجد الناقةَ مخففا ، إذا علفها ملء بطونها وأهل نجد يقولون مجّدها تمجيدا مشددا إذا علفها نصف بطونها (ص ٤٠٢) .

[العالية ما فوق نجد إلى أرض تهامة إلى ما وراء مكة وقرى بظاهر المدينة] .

٣٢- قال الأخفش نجدُ لغة هذيل خاصة يريدون نَجْدا (ص ٤٢٢) . وقال فلان من أهل نجد قال وفى لغة هذيل والحجاز من أهل النجد (ص ٤٢٥) .

٣٣- وجدَ مطلوبَه والشيء يَجده أيضا بالضم لغة عامرية لا نظير لها فى باب المثال : قال لبيد وهو عامرىّ [تدع الصوادى لا يجدن غليلا] قال ابن برى الشعر لجرير وليس للبيد كما زعم (ص ٤٥٨) .

٣٤- فإن وافق قولٌ عملاً فآخه وأوْدِدْهُ أى أحْبِبْهُ وصادقْهُ فأظهر الإدغام للأمر على لغة الحجاز (ص ٤٦٩) .

الوَدُّ الوتد بلغة تميم . الجوهرى الوَدّ بالفتح الوتد فى لغة أهل نجد كأنهم سكنوا التاء فأدغموها فى الدال (ص ٤٧٠) .

الجزء الخامس

١- قال ابن جنى قال خالد : إذاً لغة هديل وغيرهم يقولون إذِ (ص ٨) .

٢- الرِّيذَةَ الخوقة يُهنأُ بها تميمية (ص ٢٥) .

٣- أشحذَ الكلب أغراه يمانية (ص ٢٨) .

٤- الشعوذة ليس من كلام أهل البادية (ص ٢٩) والطِّرمَذَة ليس من كلام أهل البادية (ص ٣٢) .

٥- وحكي عن بنى سليم ما رأيته مِنْذُ ستٌ بكسر الميم ورفع ما بعده ، وحكى عن عكل مِذ يومانِ بطرح النون وكسر الميم وضم الذال ، وقال بنو ضبة والرباب يخفضون بمذْ كل شيء (ص ٤٧) .

٦- وفى حديث محمد بن مسلمة فإذا جارية من الأنصار على إجّارٍ لهم ، والإنجار بالنون لغة فيه (ص ٦٧) .

٧- قال الأصمعى استوأرتْ الإبل إذا ترابعت على نفار واحد . وقال أبو زيد: ذاك إذا نفرت فصعدتِ الجبل ، فإذا كان نفارها فى السهل قيل استأورث ، قال وهذا كلام بنىَ عقيل (ص ٩٦) .

٨- قال وأما ما يروى من أن النمر بن تَوْلَب قال سمعتِ رسول الله صلى الله وعليه وسلم ، يقول : «ليس من امبرّ امصيام فى امسفر» يريد «ليس من البرّ الصيام فى السفر» فإنه أبدل لام المعرفة ميما . وهو شاذ لا يسوغ حكاه عنه ابن جنى ، قال ويقال إن النمر ابن تولب لم يرو عن النبى صلى الله عليه وسلم ، غير هذا الحديث (ص ١١٦) .

٩- قال وقال بعضهم أبْشَرتَ (بمعنى كشُرتُ) ولعلها لغة حجازية (ص ١٢٧) .

١٠- البَظْر الخاتم حميرية وجمعه بظور ، قال شاعرهم : «كما سَلَّ البظورَ من الشناتر» الشنَاتر الأصابع . قال والبضْر بالضاد نوف الجارية قبل أن تخفض ، ومن العرب من يبدل الظاء ضادا فيقول البضْر وقد اشتكى ضهرى ، ومنهم من يبدل الضاد ظاء فيقول قد عظّت الحرب بنى تميم (ص ١٣٧) .

١١- وبنو تميم يقولون «بِعِير» بكسر الباء وشِعِير وسائر العرب يقولون بَعير (ص ١٣٧) .

١٢- وأهل اليمن يسمون البقرة باقُورة ، وكتب النبى صلى الله وعليه وسلم، فى كتاب الصدقة لأهل اليمن «فى ثلاثين باقورة» بقرة (ص ١٤٠) .

١٣- التَّيْهُور ما اطمأنّ من الأرض ، وقيل هو ما بين أعلى شفير الوادى وأسفله العميق نجدية ، وقيل هو ما بين أعلى الجبل وأسفله هذلية (ص ١٦٣) .

١٤- وقال اللحيانى جبره لغة تميم وحدها قال وعامة العرب يقولون أجبره. قال الأزهرى وهى لغة معروفة ، وكان الشافعى يقول جبر السلطان وهو حجازى فصيح (ص ١٨٥) .

١٥- الحظيرة جرين التمر نجدية لأنه يحظره ويحصره ، والحظيرة ما أحاط بالشىء (ص ٢٧٩) .

١٦- والحَفْر والحَفَر سلاق فى أصول الأسنان وقيل هى صفرة تعلو الأسنان، ويقال فى أسنانه حفْر وبنو أسد تقول فى أسنانه حفر بالتحريك (ص ٢٨١) .

١٧- وحمّر الرحل تكلم بكلام حمير ولهم ألفاظ ولغات تخالف لغات سائر العرب ، ومنه قول الملك الحميرىّ ملك ظفار وقد دخل عليه رجل من العرب فقال له الملك ثِبْ ، وثب بالحميرية اجلس فوثب الرجل فاندقّت رجلاه فضحك الملك وقال ليَست عندنا عربيّت من دخل ظفارِ حمّر أى تعلم الحميرية (ص ٢٩٤) وانظر جـ٢ ص ٢٩١ .

١٨- استخمرَ قوما أى استعبدهم بلغة أهل اليمن ، وأخمره الشىء أعطاه إياه أو ملّكه ، قال محمد بن كثير هذا كلام عندنا معروف باليمن (ص ٣٤٣)

١٩- الويْج والميْس باليمانية اسم الخشبة الطويلة ، بين الثورين (ص ٣٦٣ وانظر جـ٣ ص ٢٢٥) .

٢٠- قال الفراء و «مُدَّكر» فى الأصل مُذْتَكر على مُفتعل فصيرت الذال وتاء الافتعال دالا مشددةَ قال وبعضٍ بنى أسَد يقول مذكر فيقلبون الدال فتصير ذالا مشددة ، وقد قال الليث للدكر ليس من كلام العرب وربيعة تغلط فى الذكْر فتقول دِكْر(ص ٣٧٦) .

٢١- أجمع القراء على ترك الهمز فِى الذُّريّة وقال يونس أهل مكة يخالفون غيرهم من العرب فيهمزون النبىّ والبرى والذرية (ص ٣٩١ وانظر جـ١ ص ٢٢) .

٢٢- قال ابن الأعرابى من غريب شجر البرّ الزنابير ، واحدتها : زِنْبيرة ، زِنْبارة، زُنْبورة ، وهو ضرب من التيّن وأهل الحضر يسمونه الحلواتِى (ص ٤٢٠) .

الجزء السادس

١- السَّوْجَرُ ضرب من الشجر قيل هو الخلاف يمانية (ص١١) .

٢- أبو عمرو وسمعت بعض قيس يقول سَدَلَ الرجلُ فى البلاد وسَدَرَ إذا ذهب فيها فلم يثنه شىء (ص٢٠) .

٣- السَّقْر من جوارح الطير معروف لغة فى الصقْر ، والزقْر الصقر مضارِعه وذلك لأن كلبا تقلب السين مع القاف خاصة رايا ويقولون فى «مسّ سقَر» مسّ زقر (ص٣٧) .

٤- الجوهرى لغة بنى أسد «سكرانة» (ص٣٨) .

٥- الواحدة من كلِ ذِلك شجرة ، شِجَرة ، وقالوا شكِيرَة فأبدلوا فإما أن يكون على لغة مِن قال شجرة وإما أن تكوِن الكسرة لمجاوَرتها الياء . قلبت الجيم ياء فى شِيرةَ كما قلبوا الياء جيما فى قولهم أنا تمِيمجّ أى تميمى . والذى حكاه سيبويه، أن ناسا من بني سعد يبدلون الجيم مكان الياء فى الوقف خاصة ؛ وذلك لأن الياء خفيفة، فأبدلوا من موضعها أبين الحروف وذلك قولهم تميمجّ فى تميمىّ فإذا وصلوا لم يبدلوا فأما ما أنشده سيبويه من قولهم :

خالى عويف وأبو علجّ   المطعمان اللحم بالمشجّ

وفى الغداه فِلَقَ البَرْنَجّ

فإنها اضطر إلى القافية ، فأبدل الجيم من الياء فى الوصل كما يبدلها فى الوقف (ص٦١) .

٦- وأهل الحجاز يقولون هذه الشحر بغيرِ هاء ، وهم يقولون هى البُرُّ وهى الشعير وهى التمر (ص٦٢) .

٧- شحرَ فاه شحراً فتحه قال ابن دريد أحسبها يمانية (ص٦٥) .

٨- والشّرّان على تقدير فعلان دواب مثل البعوض ، واحدتها شرّانة لغة لأهل السواد (لعله الهموش) (ص٦٩) .

٩- الشُرْشُور طائر صغير مثل العصفور قال الأصمعى تسميه أهل الحجاز الشرشور

وتسميه الأعراب البِرْقِش (ص٧٠) .

١٠- الشُّنْتُرة الأصبع بالحميرية ، قال حميرىّ منهم يرثى امرأة أكلها الذئب:

أياَ جَحْمتا بَكّى علــى أمّ واهــبِ أكيلةَ قِـلَّوْبٍ ببعــض المذانبِ

فلم يبق منها غير شطر عِجاَنها وشنترةٍ منها وإحدى الذوائب

التهذيب : الشُّنْتَرة والشِّنْتيرة الإصبع بلغة أهل اليمن ، وأنشد أبو زيد :

ولم يبق منها غير نصف عجانها وشنتيرة منها وإحدى الذوائب

وقولهم لأضمنَّكْ ضمّ الشناتر وهى الأصابع ، ويقال القرِطَة لغة يمانية الواحدة شنترة وذو شناتر من ملوك اليمن يقال معناه ذو القرِطة (ص٩٩) .

١١- قال الأزهرى والمُصطْار من أسماء الخمر التى اعتصرت من أبكار العنب حديثاً بلغة أهل الشام ، قال وأراه روميًا لأنه لايشبه أبنية كلام العرب (ص١٢٦) .

١٢- والصَّعْتَرى الشاطرُ عراقيّة قال الأزهرى رجل صعترىّ لاغير إذا كان فتى كريماً شجَاعاً (ص١٢٨) .

١٣- والصُّفرِيّة ثمرة يمامية تجفف بُسْرا وهى صفراء ، فإذا جفت ففُركتْ انفركت ويحلّى بها السويق فتفوق موقع السكّر (ص١٣٠) .

١٤- والصقْر والصَّقَر ماتَحلّب من العنب والزبيب والتمر ، من غير أن يعصِر وحص بعضهم منِ أهل المدينة به دبْس التمر ، وقيل هو مايسيل من الرطب إذا يبس والصقْر الدبْس عند أهل المدِينة (ص١٣٦) .

قال أبو منصور والصقْر عند البحرانيين ماِسال من جِلال التمر ، التى كُنزتْ وسدُك بعضِها فوق بعض فى بيت مصرّج ، تحتها حوابِ خضر فينعصر منها دبْس خام كأنه العسل (ص١٣٧) .

١٥- الصِنّارة بكسرِ الصاد الحديدة الدقيقة المُعقّفة التى فى رأس المِغْزل ولاتقل صنارةَ . والصِنارة الأذن يمانية (ص١٣٨) .

١٦- وفى قراءة عبدالله بن مسعودٍ وأبى جعفر المدنى «فَصِرْهُنّ إليك» بالكسر ؛ أى قطّعهنّ وشققهن وقيل وجّههن ، الفراء ضمّت العامةَ الصاد ، وكان أصحاب عبدالله يكسرونها وهى لغتان ، فأما الضم فكثير وأما الكسر ففى هذيل وسليم (ص١٤٩) .

١٧- ضارهُ الأمرُ يضوره كيضيرُه ضيْراً وضوراً أى ضرَّه ، وزعم الكسائى أنه سمع بِعض أهل العالية يقول ماينفعنى ذلك ولايضورنى . ابن الأعرابى الضُورة الضعِيف مِن الرجالِ ، قال الفراء سمعت أعرابياً من بنى عامر يقول لآخر أحسبتنى ضورة لا أرد عن نفسى (ص١٦٦) .

١٨- قال أبو زيد سمعت أعرابيين تميمياً وقيسياً يقولان تعذَّرْتُ إلى الرجل تعذّراً فى معنى اعتذرت اعتذاراً (ص٢٢٢) .

١٩- وتقول إحدى عشِرة امرأة بكسر الشين ، وإن شئت سكنت إلى تسع عشْرة والكسر لأهل نجد والتسكين لأهل الحجاز ، قال الأزهرى وأهل اللغة والنحو لايعرفون فتح الشين فى هذا الموضع ، وروى عن الأعمش انه قرأ وقطعناهم اثنتى عشرة بفتح الشين ، قال وقد قرأ القراء بفتح الشين وكسرها وأهل اللغة لايعرفونه (ص٢٤٤) .

٢٠- العُصْفور الولد يمانية (ص٢٥٨) .

٢١- قال الأصمعى عُقْر الدار أصلها فى لغة الحجاز فأما أهل نجد فيقولون عَقْر (ص٢٧٤) .

٢٢- وفى الحديث أنهم كانوا يترصدون عيَرات قريش ، هو جمع «عِير» يريد إبلهم ودوابتهم . قال سيبويه اجتمعوا فيها على لغة هذيل يعنى تحريك الياء والقياس التسكين (ص٣٠٣) .

٢٣- عُقَيل تهمز الفأرة والجُؤْنة والمُؤسَى والحُؤْت (ص٣٤٨) .

الجزء السابع

١- وفِي حديث ابن عباس فى قوله تعالى كعصف مأكول قال هو الهبُور قيل هو دقاق الزرع بالنبطية ، ويحتمل أن يكون من الهبْر القطع ، والهبر مشاقة الكتان يمانية (ص١٠٧) .

٢- وهجَر الشيءَ وأهجره تركه الأخيرة هذلية (ص١١٢) عن النضر ابن شميل أنه قال التهجير إلى الجمعة وغيرها التبكير والمبادرة إلى كل شىء ، تهجيرا فهو مهجّر ، قال الأزهرى ، وهذا صحيح وهى لغة أهل الحجاز ومن جاورهم من قيس (ص١١٥) .

٣- قال اللحيانى أهل الحجاز يسمون الفرد الوَتْر وأهل نجد يكسرون الواو ، وهى صلاة الوِتْر والوَتْر ، لأهل الحجاز ويقرءون والشفع والوتر والكسر لتميم وأهل نجد . وقيل الأعداد كلها شفع ووتر ، قال اللحيانى أهل الحجاز يفتحون فيقولون وتْر وتميم وأهل نجد يكسرون . ابن السكيت قال يونس أهل العالية يقولون الوِتْر فى العدد والوَتْر فى الذَّحْل (الثأر) قال وتميم تقول وِتْر بالكسر فى العدد والذحل سواء ، الجوهرى الوتر بالكسر الفرد والوتر بالفتح الذحل هذه لغة أهل العالية ، فأمّا لغة أهل الحجاز فبالضدّ منهم وأما تميم فبالكسر فيهما (ص١٣٥ ، ١٣٦) .

٤- الوَهَرُ توهّج وقع الشمس على الأرض حتى ترى له اضطرابا كالبخار يمانية (ص١٥٦) .

٥- وقد بَسَرَ ييسر ، ولم تحذف الياء فيه ولافى بَيْعَر وييْبِع كما حذفت فِي يعِدُ وأخواته لتقوِّى إحدى الياءين بالأخرى ولهذا قالوا فى لغة بنى أسد ييجل وهم لايقولون يِعْلم لاستثقالهم الكسرة على الياء (ص١٦٢) .

٦- والارْز حبٌ وفيه ستّ لغات . ورُزّ ورُنْز وهى لعبد القيس (ص١٦٩) .

٧- جَهَازُ العروس والميت وجِهازُها مايحتاجان إليه وكذلك جهاز المسافر يُفتح ويكسر . قال الليث وسمعت أهل البصرة يخطئون الجهاز بالكسر ، قال الأزهرى والقراء وكلهم على فتح الجيم فى قوله تعالى «ولما جهزهم بجهازهم» قال وجهاز بالكسر لغة رديئة (ص١٩٠) .

٨- الحَفزْ الأجل فى لغة بنى سعد وأنشد بعضهم هذا البيت :

واللهِ أفعلُ ما أردتم طائعا أو تضربوا حفَزاً لعامٍ قابلِ

٩- وفى لغة هديل الحمَزُ التحديد يقال حمَز حديدته إذا حددَها ، وقد جاء ذلك فى أشعارهم (ص٢٠٥) .

١٠- الرُنْز بالضم لغة فى الأُرْز وقد يكون من باب إنجاص وإجّاص وهى لعبد القيس ، والأصل فيها رزّ فكرهوا التشديد فأبدلوا من الزاى الأولى نونا كما قالوا إنجاص فى إجّاص (ص٢٢٤) .

١١- وفى الحديث أنه قدِم على النبي صلى الله وعليه وسلم ، صاحبُ كسرى ، فوهب له معْجَرَةَ فسمِّيَ ذا المِعجزة هى بكسر الميم المِنطقة بلغة اليمن ، قال وسميت بذلك لأنها عجز المتنطَّق بها (ص٢٤٠) .

١٢- وقال ابن كيسان فى «أمْس» يقولون إذا نكروه كل يوم يصير أمساً ، وكل أمسٍ مضى فلن يعود ومضى أمس من الأموس ، وقال البصريون إنما لم يتمكن «أمسِ» فى الإعراب لأنه ضارع الفعل الماضى وليس بمعرب ، وقال الفراء إنما كسرت لأن السين طبعها الكسر ، وقال أبو الهيثم السين لايلفظ بها إلا من كسر الفم مابين الثنية إلى الضرس وكسرت لأن مخرجها مكسور فى قول الفراء ، قال ابن برى أعلم أن «أمس» مبنية على الكسر عند أهل الحجاز وبنو تميم يوافقونهم فى بنائها على الكسر فى حال النصب والجر ، فإذا جاءت أمس فى موضع رفع أعربوها فقالوا ذهب أمس بما فيه (ص٣٠٥) .

١٣- وقال قوم أصل «إنسان» إنسيان على إفعلان فحذفت الياء استخفافاً لكثرة ماتحرى على ألسنتهم فإذا صغروه ردّوها لأن التصغير لا لكثر (أُنَيْسيان) والناب لغة فى الناس على البدل الشاذ وأنشد :

ياقَبّح الله بنى السعلاة عمرو بن يربوع شرار الناب

غير أُعقّاءٍ ولا أكياب

أواد ولا أكياس فأبدل التاء من سين الناس والأكياس لموافقتها إياها فى الهمس والزيادة وتجاور المخارج ، وقد حكي أن الإيسان لغة فى الإنسان طائية . قاله اللحيانى فى لغة طىء ما أنت ثم إيسانا أى إنسانا . وقال الفراء العرب جميعاً يقولون الإنسان إلا طيئا فإنهم يجعلون مكان النون ياء (ص٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠) .

١٤- لابأس عليك ، وهو فى لغة حمير لبَاتِ أى لابأس عليك ، قال شاعرهم :

شرينْا النوم إذ عصيت غلاب بتسهيد وعقدٍ غير مين
هادُّوا عند غدرهم لبات وقد ترددتْ معاذر ذى رُعَيْن

(ص٣١٧) .

١٥- الخُنْفَس بالفتح والخُنْفَساء بفتح الفاء ممدود دويّبة ، وضم الفاء فى كل ذلك لغة ، ويقال خِنْفُس للخنفساء لغة أهل البصرة (ص٣٧٦) .

١٦- وطيء تقول طَسْتٌ وغيرهم طسّ ، قال وهم الذين يقولون لِصْتْ للِصّ وجمعه لُصوص وطوت عندهم (ص٤٣٠) .

١٧- الطاؤوس فى كلام أهل الشام الجميل من الرجال . والطاؤوس فى كلام أهل اليمن الفِضّة . والطاؤوس طائر حسن همزته بدل من واو (ص٤٣٤) .

الجزء الثامن

١- وغسّ الرجلُ فى البلاد إذا دخل فيها ومضى قدُماً ، وهى لغة تميم قال رؤبة :

كالحوت لَما غسّ فى الأنهارِ

(وانظر غمس) (ص٣٣) .

٢- ورجل مُتَغَطْرِس بخيل فى كلام هذيل (ص٣٥) .

٣- ومِن هذا قيل للسَّطْل القُدَّس لأنه يتقدَّسُ منه أى يُتطهر والقَدَس بالتحريك السَّطْل بلغة أهل الحجاز لأنه يتطهر فيه (ص٥٠) .

٤- وقِسْتُ الشىء بغيرِه وعلى غِيره أَقِيسُ قَيْساً وقياساً فانقاسَ إذا قدرتَه على مثاله وفيه لغة أخرى قسته أقوسه قوساً وقياساً . ابن سيدة قُسْت الشىء قسْته وأهل المدينة يقولون لايجوز هذا فى القوْس يريدون القياس (ص٧٠) .

٥- وقيل الكَسَسُ أن يكون الحنك الأعلى أقصر من الأسفل فتكون الثنيتان العُلْيَيَان وراء السفليين من داخلِ الفم . وكسكسة هوازن هو أن يزيدوا بعد كاف المؤنث سينا فيقولون أَعْطَيْتكسِنْ ومِنْكسِ وهذا فى الوقف دون الوصل ، الأزهرى الكسكسة لغة من لغات العرب تقارب الكشكشة ، وفى حديث معاوية تياسروا عن كسكسة بكر يعنى إبدالهم السين من كاف الخطاب تقول أُبوس ، وأُمُس أى أبوكَ وأمّك ، وقيل هو خاص بمخاطبة المؤنث ومنهم من يدع الكاف بحالها ويزيد بعدها سينا فى الوقف ، فيقول مررت بِكِسْ أى بِكِ والله أعلم (ص٨٠ ، ٨١) .

٦- المِلْدَسُ لغة فى المِلْطَس وهو حجر ضخم يدقّ به النوى (ص٩٠ المبادلة بين الدال والطاء) .

٧- أبومالك : أهل الحجاز يقولون الهجْرِس القرد وبنو تميم يجعلونه الثعلب (ص١٣٣) .

هدَسَه يهدسه هدْساً طرده وزجره يمانية مماته ، والهدَسُ شجر وهو عند أهل اليمن الآسَ .

٨- الهيْسُ اسم أداة الفدان عمانية (شرح القاموس يمانية) (ص١٣٩) .

٩- قال أبوزيد عُليا مصر تقول يحْسبُ وينْعِم وييْئِسُ وسفلاها بالفتح قال سيبويه وهذا عند أصحابنا إنما يجيئ علَى لغتين يعنى يئِس ييأَس ، يأَس ييئِس لغتان ثم يركب فيهما (ص١٤٧) .

١٠- والجحش وله الظبية هذلية قال أبو ذؤيب :

بأسفل ذات الدّنْر أفراد جحشُها فقد ولهتْ يومين فهى خَلوجُ .

والجحش أيضاً الصبىّ بلغتهم (ص١٥٧) .

١١- جَفَشَ الشىءَ يجفِشُه جفْشا جمعه يمانية (ص١٦٢) .

١٢- قال ابن الفرج يقال أَلْحقْ الحسَّ بالإسَّ قال وسمعت بعض بنى أسد ألْحقْ الحسَّ بالإشّ قال كأنه يقول ألحق الشىء بالشىء إذا جاءك شىء من ناحية فافعَل به ، جاء به أبو تراب فى باب الشين والسين وتعاقبهما (ص١٧٣) .

١٣- الخَمُوش البعوض بفتح الخاء فى لغة هذيل (ص١٨٨) .

١٤- تداعش القوم اختلطوا فى حرب أو صخب ، ودعشَ عليهم هجَمَ يمانية (ص١٩١) .

١٥- الكسائى الزّوْشْ العبد اللئيم والعامة تقول رُوشّ (ص٢٠٠) .

١٦- وقال المؤرَج هى المعيشة قال والمعْوشة لغة الأزد (ص٢١٢) .

١٧- ولقيهُ غشاشاً وغَشاشاً أى عند الغروب والغَشَاشُ العَجلَةْ يقال لقيتُهُ على غِشاشِ وغَشاشِ أى على عجلة ، حكاها قطرب وهى كنانيّة (ص٢١٤) .

١٨- والفراش ما افترش والجمع أفرشه وفُرُشّ ، سيبويه وإن شئت حققت فى لغة بنى تميم (ص٢١٧) .

١٩- والكشكشة لغة لربيعة وفى الصحاح لبنى أسد يجعلون الشين مكان الكاف وذلك فى المؤنث خاصة فيقولون عليْش ومِنْش وبِشِ وينشدون :

فعنياش عيناها وجيدش جيدها ولكن عظم الساق منْشِ رقيقُ

وأنشد أيضاً :

نصحك منّى أن رأَتْنى أحتَرِشْ ولو حرشتْ لكشفتُ عن حرشْ

ومنهم من يريد الشين بعد الكاف فيقول عليْكشْ وإليْكشْ وبكشْ ومنكشْ وذلك فى الوقف خاصة ، وإنما هذا لتبين كسرة الكَاف فيؤكد التأنيث وذلك

لأن الكسرة الدالة على التأنيث فيها تخفى فى الوقف ، فاحتاطوا للبيان بأن أبدلوها شيناً فإذا وصلوا حذفوا لبيان الحركة ، ومنهم من يجرى الوصل مجرى الوقف فيبدل فيه أيضاً ، وأنشدوا للمجنون «فعياش عيناها» البيت ، قال ابن سيده قال ابن جنى وقرأت على أبى بكر محمد بن الحسن عن أبى العبّاس أحمد بن يحيى بعضهم :

عليّ فيها أبتــعى أبعيـش   بيضاء وصبى ولا أصبتسِ
وتَطّــبى ودّ مـــنى أبيشِ   إذا دنــوْتِ جعَــلتْ تُنْئيش
وإنْ نأيْتِ جعــلتْ تُدنيشِ   وإن تكلمْتِ جلتْ فى فيشِ
حتى تنقّى كنقيق الديشِ

أبدل من كاف المؤنث شيناً فى كل ذلك وشبّه كاف الديك لكسرتها بكاف المؤنث ، وربما زادوا على الكاف شيناً حرصاً على البيان أيضاً قالوا مررت بكِشْ وأعطيتكشْ فإذا وصلوا حذفوا الجميع ، وربما ألحقوا الشين فيه أيضاً وفى حديث معاوية تياسروا أبوشِ وأمشِ ، وزادوا على الكاف شيناً فى الوقف فقالوا مررت بِكِشْ كما تفعل تميم (ص٢٣٣-٢٣٤) .

٢٠- الجِصّ معروف الذى يُطْلى به وهو معرب ، ولغة أهل الحجاز فى الجصّ القصّ (ص٢٧٥) وانظر ٣٤٥ .

٢١- وأهل البصرة اختاروا حِمّصاً وأهل الكوفة اختاروا حِمّصاً وقال الجوهرى الاختيار فتح الميم ، وقال المبرد بكسرها (ص٢٨٣) .

٢٢- قال فقلتُ فكان ينبغى أن يقول خَوْصاً فقال هى معاقبة يستعملها أهل الحجاز يسمون الصُّوّاغ الصُّيّاغ ويقولون الصُّيّام للصُّوّام ومثله كثير (ص٣٠٠) .

٢٣- الشِّيص والشِّيصاء ردئ التمر . قال الأموىِ هى لغة بلحرث ابن كعب الصِّيصْ ، وأهل المدينة يسمون الشِّيص السُّخَلْ ، وفى الحديث أنه نهى عن تأثير بخلهم فصارت شيصاً (ص٣١٧) .

٢٤- عصصْتُ أعصّ قال أبوعبيد عَصِصْتُ أعصّ لغة الرّباب (ص٣٢٨) .

٢٥- والقَصّ الجِصّ لغة حجازية (ص٣٤٥ وانظر ٣٢٧٥) .

٢٦- القُمْوص ضرب من الكمأة والقُعموص والجُعموص واحد ، يقال تحرك قُعموصه فى بطنه وهو بلغة أهل اليمن (ص٣٤٧) .

٢٧- واللَّصْتُ لغة فى اللَّصَ أبدلوا من صاده تاء وغيروا بناء الكلمة لما حدث فيها من البدلِ ، وقيل هى لغة ، قال اللحيانى وهى لغة طىء وبعض الأنصار وجمعه لصوت وقد قيل فيه لِصْت فكسروا اللام فيه مع البدل (ص٣٥٦) .

٢٨- وَحَصَهُ وَحْصاً سَحَبَهُ يمانيةِ قال ابن السكيت سمعت غير واحدِ من الكلابيين يقول أصبحتْ وليس بها وحصَةٌ أى بَرْد يعنى البلاد والأيام ، والحاء غير معجمة ، الأزهرى قال ابن السكيت أصبحت وليس بها وحصة ولاوذْية ، قال الأزهرى معناه ليس بها علة (ص٣٧٤) .

٢٩- مُشيحةٌ حذَرة والمُشيحُ فى لغة هذيل المُجِدّ (ص٣٨٩) .

الجزء التاسع

١- وقد عَضِضْتُه أَعَضُّه وعضضتُ عليه عضاً وعضاضاً وعضيضاً ، وعَضَضْتُه تميمية ، ولم يسمع لها بآيات على لغتهم (شرح القاموس وعضضته تعضيضاً لغة تميمية) (ص٥٠) .

٢- وغضّ من صوته ، وكلُّ شيء كففتَه فقد غَضَضْتَه ، والأمر منه فى لغة أهل الحجاز اغْضُضْ . وأهل نجد يقولون غضَّ طرفك بالإدغام ، قال جرير :

فغُضَّ الطرف إنك من نُمَيْرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كلاباً

٣- وأما أبو عبيدة ، فقال فاظت نفسه بالظاء لغة قيس ، وفاضت بالضاد لغة تميم ، وقال أبو حاتم سمعت أبا زيد يقول بنو ضبة وحدهم يقولون فاضت نفسه ، وكذلك حكى المازنى عن أبى زيد ، قال كل العرب تقول فاظت نفسه إلا بنى ضبة فإنهم يقولون فاضت نفسه بالضاد ، وأهل الحجاز وطيء يقولون فاظت نفسه وقضاعة وتميم وقيس يقولون فاضت نفسه مثل فاضت دمعته ، وزعم أبوعبيدة أنها لغة لبعض بنى تميم يعنى فاظت نفسه وفاضت (ص٧٧) .

٤- وكَرَضَتْ الناقةُ تكرِضُ كرْضاً والكِراضُ فى لغة طيء الخِداجُ (ص٩٣) .

٥- إذا أرادت الناقة أن تضع قيل مَخَضَتْ ، وعامة قيس وتميم وأسد يقولون مِخضتْ بكسر الميم ، ويفعلون ذلكَ فى كل حرف كان قبل أحد حروف الحلق فى فَعِلْتُ وفِعيل يقولون بِعِير وزِئِير وشِهِيق وبِهِلتِ الإبل وسِخِرتْ منه (ص٩٥) .

٦- أبوعبيدة مَضَنّى الأمرُ وأمضنّى ، وقال أمضنّى كلام تميم (ص١٠١) .

٧- أبو سعيد الأنواض والأنواطُ واحد ، وهى مانُوِّط على الإبل إذا أُوقرتْ قال رؤبة :

جاذِبنَ بالأصلاب والأنواضِ

(ص١١٦) .

٨- وأهل اليمن يسمون النَّبلَ الذى يرمى به حنَطاً (ص١٤٧) .

٩- وأهل الشام يسمون الخمر الرَّساطُونَ وسائر العرب لايعرفونه ، قال وأراها رومِيَّة دخلت فى كلام من جاورهم من أهل الشام ، ومنهم من يقلب السين شينا فيقول رشاطون (ص١٧٥) .

١٠- ورجل سَبْط الشعر وسَبِطُه ، ولغة أهل الحجاز رجل سَبِطُ الشعر وامرأة سَبِطة (ص١٨٠) .

١١- والسِّراطُ السبيل الواضح ، والصراط لغة فى السراط ، والصاد أعلى لمكان المضارعة وإن كانت السين هى الأصل ، قال الفراء ونفر من بلْعنبر يصيرون السين ، إذا كانت مقدمة ، ثم جاءت بعدها طاء أو قاف أو غين أو خاء ، صاداً ، وذلك أن الطاء حرف تضع فيه لسانك فى حنكك فينطبق به الصوت فقلبت السين صاداً صورة الطاء واستخفوها ؛ ليكون المخرج واحداً كما استخفوا الإدغام ، فمن ذلك قولهم الصراط والسراط ، قال وهى بالصاد لغة قريش الأولين التى جاء بها الكتاب ، قال وعامة العرب تجعلها سينا (ص١٨٥) .

١٢- ويقال هو سعِيطُ النفس أى سخيها طيّبها لغة أهل الحجاز (ص١٨٧) .

١٣- قال أبو تراب سمعت بعض قيس يقول اشْمعطَ القوم فى الطلب واشْمعلُّوا إذا نادروا فيه وتغرقوا (ص٢١٠) .

١٤- الغلاطُ الفجأة لغة هديل لقيته فَلْتاً وفلاطاً أى فجأة هذلية ، وأفلطنى الرجل إفلاَطاً مثل أفلتنى ، وقيل لغة فى أفلتنىَ تميمية قبيحة (ص٢٤٧) .

١٥- القَحْطِىّ من الرجال ، الأكول الذى لايبقى من الطعام شيئاً وهذا من كلام أهل العراق ، وقال الأزهرى هو من كلام الحاضرة دون أهل البادية والتقحيط فى لغة بنى عامر التلقيح (ص٢٤٩ ، ٢٥٠) .

١٦- كشط الغطاءَ عن الشىء والجلدَ عن الجزور ، والقَشْطُ لغة فيه ، قيس تقول كشطت وتميم تقول قشطت بالقاف ، قال ابن سيده وليست الكاف فى هذا بدلاً من القاف ، لأنهما لغتان لأقوام مختلفين ، وقال يعقوب قريش تقول كشط وتميم وأسد يقولون قشط (ص٢٦٢ ، ٢٦٣) .

١٧- قال ابن الأثير المِلْطَى بالقصر والمِلْطاةُ القشرة الرقيقة بين عظم الرأس ولحمه، وأهل الحجاز يمسونها السِّمْحاقَ (ص٢٨٥) .

١٨- والواسطُ الباب هذلية (ص ٣١١) .

١٩- والوطواط الخفاش وأهل الشام يسمونه السُّرْوَع (ص٣١٢) .

٢٠- الوَقْطُ والوَقيطة حفرة فى علَط أو جبل يجتمع فيه ماء السماء ، والجمع وقِطَان ووقاط وإقاط الهمزة بدَل الواو ، ولغة تميم فى جمعه الإقاط مثل إشاح يصيرون كل واو تجيئ على هذا المثال ألفا (ص٣١٢ ، ٣١٣) .

٢١- قال أبو تراب سمعت أعرابياً من أشجع يقول بهضنى الأمرُ وبهظنى ، قال ولم يتابعه أحد على ذلك (ص٣١٥) .

٢٢- الدَّظُّ هو الشَّلُّ بلغة أهل اليمن دَظَّهم فى الحرب يدُظُّنهم دَظاً طردهم يمانية (ص٣٢٣) .

٢٣- قال الفراء يقال فاضت نفسه تفيض فيْضاً وفُيُوضاً ، وهى فى تميم وكلب ، وأفصح منها وآثرْ فاظت نفسه فيوظاً والله أعلم . وفاظتّ نفسه تفيظ ؛ أى خرجت روحه وكرهها بعضهم ، الليث فاظت نفسه فيْظاً وفَيْظوظةَ إذا خرجت والفاعل فائظ ، وزعم أبوعبيدة أنها لغة لبعض تميم يعنى فاظت نفسه وفاضت ، وحكى عن أبى عمرو بن العلاء أنه لايقال فاظت نفسه ولا فاضت إنما يقال فاظ فلان ويقال فاظ الميت ، قال ولا يقال فاض بالضاد بتّةً، ابن السكيت يقال فاظ الميت يفيظ فيظا ويفوظ فوظا كذا رواها الأصمعى (ص٣٣٣) .

الفراء أهل الحجاز وطىء يقولون فاظت نفسه وقضاعة وتميم وقيس يقولون فاضت نفسه مثل فاضت دمعته ، وقال أبو زيد وأبو عبيدة فاظت نفسه بالظاء لغة قيس وبالضاد لغة تميم ، وروى المازنى عن أبى زيد أن العرب تقول فاظت نفسه بالظاء إلا بنى ضبة فإنهم يقولونه بالضاد (ص٣٣٤) .

٢٤- والبالّوعة والبلُّوعة لغتان ، وبالوعة لغة أهل البصرة (ص٣٦٧) .

٢٥- الباعُ والبوْعُ مسافة مابين الكفّين إذا بسطتهما الأحيرة هذلية ، قال أبو ذؤيب:

فلو كان حبْلاً من ثمانين قامةً وخمسين بُوعاً نالها بالأناملِ

(ص٣٦٩) .

٢٦- والتِّرِعُ السفيهُ السريع إلى الشر ، وروى الأزهري عن الكلابيين فلان ذو مترِعةٍ إذا كان لايغضب ولايعجل ، قال وهذا ضد الترِع (ص٣٨١) .

٢٧- والجُزْعُ المحور الذى تدور فيه المحالة لغة يمانية (ص٣٩٩) .

٢٨- يومُ الجُمُعَةَ ، والقراء قرأوها بالتثقيل ويقال يوم الجْمعة لغة بنى عُقَيْل ولو قرئ بها كان صواباً ، قال والذين قالوا الجُمَعَة ذهبوا بها إلى صفة اليوم أنه يجمع الناس كما يقال رجل همزة (ص٤٠٩ ، ٤١٠) .

٢٩- قال الفراء بنو أسد يقولون إن الشّعْر لَمُخادِع وقد خدعَ إذا ارتفع وغلا (ص٤١٨) .

٣٠- والحُضعَةُ من النخل التى تنبت من النواة لغة بن حنيفة (ص٤٢٧) .

٣١- الدّثْعُ الوطء الشديد لغة يمانية قال والدّعْث والدّثْع واحد (ص٤٣٥) .

٣٢- والدّقْعاء الذرة يمانية (ص٤٤٥) .

٣٣- الدُّوعُ ضرب من الحيتان يمانية (ص٤٤٧) .

٣٤- قال الجوهرى وحكى عن بعض بنى أسد فتح الباء فى الأربعاء (ص٤٦٦) .

٣٥- ورَجَعْتُه أَرْجِعُه رَجْعاً ومَرْجعاً ومَرْجَعاً وأرْجعتُه فى لغة هذيل ، قال وحكى أبوزيد عن الضّبّيين أنهم قرأوه (أفلا يرون أن لايُرْجِعُ إليهم قولاً) (ص٤١) .

٣٦- رَضَعَ الصبىُّ وغيره يَرْضِع مثال ضرب يضرب لغة نجدية ، ورضِع مثال سمِع يرضَع (ص٤٨٤) .

الجزء العاشر

١- وفى التهذيب ، سُدِعُ الرجل نُكِبَ يمانية (ص١٤) .

٢- كل مايذكر فى ترجمة صقع بالصاد فالسين فيه لغة ، قال الخليل كل صاد تجيئ قبل القاف ، وكل سين تجيىء قبل القاف ، فللعرب فيه لغتان : منهم من يجعلها سيناً ، ومنهم من يجعلها صاداً لايبالون أمتصلة كانت بالقاف أو منفصلة بعد أن يكونا فى كلمة واحدة ، إلا أن الصاد فى بعض أحسن والسين فى بعض أحسن (ص٢٢) .

٣- ومَهرْ سنيع كثير وقد أسنغه إذا كثَره عن ثعلب ، والسنائع فى لغة هذيل الطرق فى الجبال واحدتها سنيعة (ص٣٣) .

٤- وقال أبو عبيدة لرؤبة ما الوَدْىُ فقال يسمى عندنا السُوعاَء (ص٣٤) .

٥- صارعهُ فصرَعَهُ يصْرَعُهُ صرْعاً وصِرْعاً الفتح لتميم والكسر لقيس عن يعقوب (ص٦٤) .

٦- وفى الحديث من زنى من امْبِكْر فاصفعوه مائة أى اضربوه ، وقوله من امبكر لغة أهل اليمن يبدلون لام التعريف ميماً (ص٦٨) .

٧- الصُنْتُع الشاب الشديد ، وحمار صُنْتُع صُلْبُ الرأس ناتئ الحاجبين عريض الجبهة ، والصنتع عند أهل اليمن الذئب عن كراع (ص٨٢) .

٨- قال الفراء الضَّرِيعُ نبت يقال له الشِّبْرِقْ وأهل الحجاز يسمونه الضريع إذا يبس، وقال ابن الأعرابى الضريع العوسج الرطب ، فإذا اجف فهو عوسج (ص٩٢) .

٩- قال شمر طَبِعَ إذا دَنِسَ وطَبَّعَ وطُبِعَ إذا دُنِّسَ وعيبَ وأنشدتنا أم سالم الكلابية :

ويحمدها الجيران والأهلُ كلهم وتبغِضُ أيضاً عَنْ تُسَبَّ فتطْبُعا

وقال ابن الطَّبَرِية :

وعَنْ تخلطى فى طيِّب الشّرب بيننا من الكدر المابِىَ شِرْباً مُطَبِّعا

أراد أن تخلطى وهى لغة تميم ، والمطبَع الذى نُجِّس (ص١٠٤) والمابىَ الماء الذى تأبى الإبل شربه .

١٠- الفَعْفَعَةُ والفعفع حكاية بعض الأصوات والفَعْفَعانىّ الجازر (الجزّار) هذلية (ص١٢٦) .

١١- وفَتى بمعنى فَنِىَ فى لغات طىء (ص١٣٧) .

١٢- المُقَرْصِعُ المُخْتِفِى ، وقال أعرابى من بنى تميم إذا أكل الرجل وحده من اللؤم فهو مقرْصِعٌ (ص١٤٣) .

١٣- القُطْعَةُ فى طىء كالعنعنة فى تميم ، وهو أن يقول يا أبا الحكا يريد يا أبا الحكمِ فيقطع كلامه (ص١٥٩) .

١٤- قال الأزهرى سمعت البحرانيين يقولون للقَسْبِ إذا يبس وتقعقع تمر سَحٌّ وتمر قَعْقاعٌ (ص١٦١) .

١٥- وقول سيف بن ذى يزن حين قاتل الحبشة :

قد علمتْ ذاتُ امْنَطِعْ ... أنى إذا امْمَوْتُ كَنِعْ

أضربهم بذا امْقَلَعْ ... لا أتوقّى بامْجَزَعْ

اقتربوا قِرْفَ امْقِمَعْ

أراد ذات النِّطع ، وإذا الموت كنع ، فأبدل من لام المعرفة ميماً (ص١٦٩) .

١٦- الكُتَعُ ولد الثعلب ، والكُتَعُ الذئب بلغة أهل اليمن (ص١٨٠) .

١٧- الكُسْعُومُ الحمار بالحميرية (ص١٨٥)

١٨- التَكَنُّع التحالف والتجمّع لغة يمانية ، وبه سمى ذو الكلاع بالفتح ، وهو ملك حميرى من ملوك اليمن من الأذواء ، وسمى ذا الكلاع لأنهم تكلّعوا على يديه أى تجمعوا (ص١٨٨) .

١٩- اللَّخْعُ استرخاء الجسم يمانية (ص١٩٣) .

٢٠- وأراد بالحِدَوْ الحدأة وهى لغة أهل مكة (ص ٢٠٢) .

٢١- وحكى الكسائى عن ربيعة وغَنَمٍ أنهم يسكنون العين مِنْ مَعْ فيقولون مَعْكُم ومعْنا (ص٢١٨) .

٢٢- ومَناعِ بمعنى امنَعْ قال اللحيانى وزعم الكسائى أن بنى أسد يفتحون مَناعَها ودراكها وما كان من هذا الجنس والكسر أعرف (ص٢٢١) .

٢٣- وبنو أسد يقولون بِيجَعُ بكسر الياء وهم لايقولون يِعْلَم استثقالا الكسرة على الياء ، فلما اجتمعت الياءان قويتا واحتملت مالم تحتمله المفردة (ص٢٥٩) .

٢٤- تسمى الريح الجنوب بلغة هذيل النُّعامَى (ص٢٩٦) .

٢٥- البالغاءُ الأكارع فى لغة أهل المدينة وهى بالفارسية بايْها (ص٣٠٣) .

٢٦- الصَّدْع وربما قالوا السُّدْع بالسين ، قال محمد بن المستنير قطرب إن قوماً من تميم يقال لهم بلْعنبر يقلبون السين صاداً عند أربعة أحرف عند الطاء والقاف والغين والخاء إذا كنّ بعد السين ولاتبالى أثانيةً كن أم ثالثةً أم رابعة بعد أن يكنّ بعدها يقولون سزاط وصراط ، وبسطة وبصطة ، وسيْقَل وصيْقل ، وسرقْت وصرقت ، ومِسغب ومصْغبة ، ومسدْغة ومصْدغة ، وسخرَ لكم ، وصخر لكم ، والسَّخب والصخب (ص٣٢٢) .

٢٧- ورجل صائغ وصوَّاغ وصيَّاغ معاقبة فى لغة أهل الحجاز ، قال الفراء بنو سليم وهوازن وأهل العالية وهذيل يقولون هو أخوه صوغه بالصاد قال وأكثر الكلام بالسين (ص٣٢٥) .

٢٨- الأُكافُ من المراكب شبه الرِّحال ، وكاف ، قال اللحيانى آكفَ البغلَ لغة بنى تميم وأوْكفه لغة أهل الحجاز (ص٣٥١) .

٢٩- المِجْداف السَّوْط لغة نجرانية عن الأصمعى (ص٣٦٦) .

٣٠- والخشَفُ الخزف يمانية (ص٤١٨) .

٣١- وأهل البحرين يسمون جِلالَ التمر خَصَفاً ، والخَصَفُ الخزف (ص٤٢٠) .

٣٢- قال ابن برى المخاليف لأهل اليمن كالأجنْاد لأهل الشام والكُور لأهل العراق والرساتيق لأهل الجبال والطَّساسيج لأهل الأهواز (ص٤٣٢) .

الجزء الحادي عشر

١- ودفَّفَ على الجريح كذفَّفَ أُجهز عليه وكذلك دافّة مُدَافَّةً ودفافاً ودافاهُ الأُخيرة جهينِيِّة ، وفى حديث ابن مسعود أنه دافّ أبا جهل يوم بَدر أى أجهز عليه وحرّر قتله يقال دافَفت عليه ودافَيْته ودفّفت عليه تدفيفاً ، وفى حديث خالد أنه أسر من بنى جَذيمة قوماً فلما كان الليل نادى مناديه ألا من كان معه أسير فلْيدافّه معناه فَلْيُجهِزْ عليه ، قال أبو عبيد وفيه لغة أخرى فلْيدافه بتخفيف الفاء من دافيْته وهى لغة لجهينة ، ومنه الحديث المرفوع أنه أتى بأسير فقال أدْفُوه يريد الدفء من البرد فقتلوه فوداه صلى الله عليه وسلم ، (ص٤) (انظر أيضاً جـ١٨ ص٢٨٩ ، انظر جـ١ ص٧٠) .

دفا الجريحَ دفْواً أجهز عليه ، وفى الحديث أن قوماً من جهينة جاءوا بأسير إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو يرْعد من البرد فقال لهم اذهبوا به فأدْفوه يريد الدفء من البرد ، وهى لغته عليه الصلاة والسلام ، فذهبوا به فقتلوه وإنما أراد أدْفئوه من البرد فوداه صلى الله عليه وسلم .

٢- دافَ الشيءَ دَوْفاً وأدافهُ خلطه وأكثر فى الدواء والطيب ، ومِسْكٌ مَدْوُوف مدوف جاء على الأصل وهى تميمية (ص٧) .

٣- رَضفْتُ الوسادةَ ثَنَيْتُها يمانية (ص٢٢) .

٤- الزُّحلُوفَةُ آثار تَزَلُّجِ الصبيان من فوق التل إلى أسفله ، وهى لغة أهل العالية وتميم تقوله بالقاف (ص٣١) (رويت هنا أبيات منفردة منسوبة لأوس ابن حجر ، ومزاحم العقيلى والعجاج) .

٥- أبو زيد السَّدُفةُ فى لغة بنى تميم الظلمة قال والسُّدْفة فى لغة قيس الضوء ، وحكى الجوهرى عن الأصمعى السُّدْفة والسَّدْفة فى لغة نجد الظلمة وفى لغة غيرهم الضوء ، وهى من الأضداد (ص٤٦) .

٦- قال أرض الجنة مسلوقة قال الأصمعى هى المستوية أو المُسَوّاة قال وهذه لغة أهل اليمن والطائف (ص٦١) .

الشَّحْفُ قَشْر الجلْد يمانية ، الشَّخافُ اللَّبَنُ حميرية (ص٦٩) .

٧- الشِّرْنافُ ورق الزرع إذا كثر وطال وخُشِيَ فساده ، فقُطع يقال حينئذ شَرْنَفْت الزرع إذا قطعت شرنافه ، قال الأزهرى وهى كلمة يمانية (ص٧٧) .

٨- وأهل هَجَر يقولون للمجنون مَشْعُوف وبه شُعَاف أى جنون (ص٧٩) .

٩- المُصْحَف والمِصْحَف الجامع للصحف المكتوبة بين الدَّفتَيْن كأنه أُصْحِفَ والكسر والفتح فيه لغة ، قال أبو عبيد تميم تكسرها وقيس تضمها ، ولم يذكر من يفتحها ولا أنها تفتح إنما ذلك من اللحيانى عن الكسائى (ص٨٨) .

١٠- الصَّخْبُ حفر الأرض والمِصْخَفَةُ المِسْحاةُ يمانية (ص٨٩) .

١١- قال الأزهرى سمعت أعرابياً من بنى حنظلة يسمى المَضْطَبَةَ المَصْطَفَةَ بالفاء (ص٩٥) .

١٢- ماذاق عَدْفاً ولا عَدُوفاً ولاعداُفاً أى شيئاً والذال المعجمة فى كل ذلك لغة ، قال أبو حسّان سمعت أبا عمرو الشيباني يقول ماذقت عَدوفاً ولاعِدَوفة قال وكنت عند يزيد بن مزْيد الشيبانى فأنشدته بيت قيس بن زهير :

ومُجَنَّباتٍ مايذقن عَدُوفةً يقذِفْنَ بالمُهرَاتِ والأَمْهَـارِ

بالدال فقال لى يزيد صحفتَ أبا عمرو ، وإنما هى عذوفة بالذال قال فقلت له لم أصحف أنا ولا أنت ، تقول ربيعة هذا الحرف بالذال ، وسائر العرب بالدال (ص١٣٩ ، ١٤٠) .

١٣- الغادفُ الملاّح يمانية ، والغادف والمِغدَفَة والغادوف والمِغْدَف المِجْداف يمانيةَ (ص١٦٩) .

١٤- والغُرْفَةَ حبل معقود بأُنْشُوطة ، يُلْقَى فى عنق البعير وغرف البعيرَ يغرفُه ويغرفه غرْفاً ألقى فى رأسه الغرفة يمانية ، والغريفةَ النَّمْل بلغة بنى أسد قال شمر وطىء تقول ذلك (ص١٧٠) .

١٥- القَدْفُ غرف الماء من الحوض أو من شىء تصبّه ، بكفّك عُمانيّة (ص١٨٣) .

١٦- والهَيَفُ بالتحريك رِقّةُ الخَصْر وضمور البطن هَيِفَ هَيَفاً وهافَ هَيْفاً فهو أهيف ولغة تميم هاف يهَافُ هيْفا وامرأة هيفاء (ص٢٦٦) .

١٧- وَزَفَهُ وزْفاً استعجله يمانية (ص٢٧١) .

١٨- الواقِفةُ القدم يمانية (ص٢٧٧) .

١٩- اللحيانى أَوْكفتُ البغلَ أُوكفُه إيكافاً وهى لغة أهل الحجاز ، وتميم تقول آكفته أُوكفه إيكافاً (ص٢٨١ ، وانظر أيضاً جـ١٠ ص٣٥١) .

٢٠- بُخْنُقُ الجرادة الجلباب الذى على أصل عنقها وجمعه بخانق وبعض بن عقَيْل يقول بخنق (ص٢٩٤) .

٢١- البُرَقِىُّ الطَّيْلىَ حجازية (ص٢٩٨) .

٢٢- البطاقةُ الورقةُ عن ابن الأعرابى ، وقال غيره البطاقة رقعة صغيرة وهى كلمة مبتذلة بمصر . وما والاها يدعون الرُّقعة التى تكون فى الثوب وفيها رقم ثمنه بطاقةً (ص٣٠٣) .

٢٣- البطْريقُ بلغة أهل الشام والروم هو القائد معرب ، ويقال إن البطريق عربى وافق العجمى وهى لغة أهل الحجاز وقال أمية بن أبى الصلت :

من كل بطـــريقٍ ببِطْ   ريقٍ نقىِّ الوجــه واضـحْ

(ص٣٠٣) .

٢٤- قال ابن سيده والحازقةُ والحزّاقة العيرُ طائية (ص٣٣١) .

٢٥- الحلَقةُ كل شىء استدار كحلقة الحديد والفضة والذهب ، وكذلك هو فى الناس، وقد حكى سيبويه فى الحلَقة فتح اللام وأنكرها ابن السكيت ، وحكى الأموىّ حِلقْة القوم بالكسر ، قال وهى لغة بنى الحرث بن كعب (ص٣٤٦ ، ٣٤٧) .

٢٦- الخانقُ مضيق فى الوادى والخانق شِعْب ضيّق فى الجبل ، وأهل اليمن يسمونَ الزقاق خانقاً (ص٣٨١) .

٢٧- وأهل مكة يسمون توابل القدْر كلّها دُقةً ، ابن سيده الدُّقّة التوابل وماخُلط بها من الأبزار (ص٣٩٠) والدّقّة الملح وماخلط به من الأبزار .

٢٨- راق الماء يَرِيقُ رَيْقاً انصبّ حكاه سيبويه وأراقهُ هو إراقةً ، وهَراقَةً على البدل عن اللّحيانى ، وقال هى لغة يمانية ، ثم فشت فى مصر (ص٤٢٨) .

الجزء الثانى عشر

١- الزُحلوقة آثار تزلج الصبيان من فوق إلى أسفل ، قال عامر بن ملاعب الأسنة:

لما رأيتُ ضِراراً فى مُسَلمَلمَةٍ كأنما حافتاها حافتا نِيقِ
يمّمْتُه الرمح شَزْراً ثم قلت له هذى المروءةُ لا لِعْبُ الزحاليقِ

(النيق أرفع موضع فى الجبل) (ص٣) .

٢- الزُّقاق السكّة يذكر ويؤنث قال الأخفش أهل الحجاز يؤنثون الطريق والسراط والسبيل والسوق والزقاق والكلاء ، وهو سوق البصرة ، وبنو تميم يذكرون هذا كله (ص٩) .

٣- كلبٌ تقلب الصاد مع القاف زاياً تقول أزْدُقْنِى أى أصدقنى (ص٦١) .

٤- الصاقُ لغة فى الساق عنبرية ، قال ابن سيده وأراه ضرباً من المضارعة لمكان القاف ، والصويق لغة فى السويق المعروف لمكان المضارعة (ص٧٦) .

٥- الطّريق ضرب من النخل ، وقيل الطريق أطول مايكون من النخل بلغة اليمامة واحدته طريقة ، وقيل الذى ينال باليد ، والطُّرْقُ النخلة فى لغة طىء عن أبى حنيفة (ص٩٣) .

٦- الطَّهْقُ سرعة المشى يمانية زعموا (ص١٠١) .

٧- وفى لغات هذيل أعتقت الأرضُ إذا أخصبتْ (ص١٠٩) .

٨- العرَاقِى عند أهل اليمن التّراقِى (ص١٢١) .

٩- العزِيقُ مطمئنٌ من الأرض يمانية (بالعين والزاى) (ص١٢٢) والعَسَقُ العرجون الردئ أسديّة .

١٠- والعقيقة نواة رخوة كالعجوة تؤكل ، ونوَى العقُوقِ نوَى هشّ ليّن رخو الممْضغة تأكله العجوز أو تلوكه تعلْفه الناقة العقوق (الحامل) إلطافاً لها فلذلك أضيف إليها ، وهو كلام أهل البصرة ، ولاتعرفه الأعراب فى باديتها (ص١٣١) .

١١- قال الفراء لغة أهل الحجاز عَمِيق وبنو تميم يقولون معيق (ص١٤٣).

١٢- رجلٌ عَـوْقٌ لاخـيـر عنده والجـمع أعـواق ، ورجل عُـوَقَ جـبـان هذليـة (ص١٥٢) .

١٣- ابن سيده الفَحقْةَ راحة الكلب بلغة أهل اليمن (ص١٧٣) .

١٤- قـال الفـراء سـمـعت أعـرابيـاً من قـضـاعـة يقـول فُنْتُق للفُنْدق وهو الخـان (ص١٨٨) .

١٥- وشىء لَثِقٌ حلوٌ يمانيـة حكاه الهروى فى الغريبين قـال ورواه الأزهرى عن على بن حرب وأنشد :

فبُغْضُكم عندنا مُرٌّ مَذَاقَتُه وبغضنا عندكم ياقومنا لَثِقُ

(ص٢٠٢) .

١٦- لَصِقَ به يلْصَقُ لَصُوقاً وهى لغة تميم ، وقيس تقول لسِقَ بالسين وربيعة تقول لزق وهى أقبحها ، إلا فى أشياء نصفها فى حدودها (ص٢٠٥) .

١٧- قال أبو زيد لَمَقَ الشىء كتبه فى لغة بنى عُقَيْل ، وسائر قيس يقولون لَمَقَهُ محاه (ص٢٠٨) .

١٨- الصفُّ من اللبِن أو الحجارة فى البناء عند أهل الحـجاز مِدْماك ، وعند أهل العراق ساف (ص٣١٢) .

١٩- الدِّيكُ فِى كـلام أهل اليمن الرجلُ المشْفِقُ الرءوم ، ومنه سمى الديك ديكا ، قال والديك الربيع فى كلامهم (ص٣١٤) .

٢٠- سـِيك به بالكسـر سَـدْكـاً وسَـدَكـاً لزِمَـهُ ، والسَّـدِكُ المُولَع بالشىء طائيـة (ص٣٢٣) .

٢١- ضَبَكَ الرجلَ وضبكَهُ غمز يديه يمانية (ص٣٤٥) .

٢٢- العنْكُ البابُ يمانية ، وعَنَكَ البابَ وأعنكهُ أغلقه يمانية (ص٣٥٩) .

٢٣- فدَكَ القطنَ تفديكاً نفشهُ وهى لغة أزدية (ص٣٦١) .

٢٤- الفِرْسكُ الخَوْخُ يمانيـة ، وقيل هو مثل الخوخ فى القَدْر وهو أجردُ أملس أحمرٍ وأصفرَ ، قال شمر سمعت حميرِّية فصيحة سألتها عن بلادها فقالت : النخْل

قُل ، ولكِن عيشتنا امْقَمْحُ (القمح) امُفرْسكُ ، امْعَنَبُ ، امْحَمَاطُ (الحِماطُ = التين) طوب ، أى طيّب فقلت لها مَا اَلفرسكَ فقالت امتين عندكم (ص٣٦٣) .

٢٥- النّتْكُ شبيهٌ بالنّتْف يمانية (ص٣٨٨) .

٢٦- هلَكَ الشىءَ وهلكهُ وأهلكه قال العجاج :

ومَهْمَةٍ هالكِ مَنْ تعرّجا   هائلةٍ أهوالُه مَنْ أَدْلَجا

يعنى مهلك لغة تميم (ص٣٩٤ ، ٣٩٥) .

الجزء الثالث عشر

١- الليث : الأَشْلُ من الذَّرْع (المقاييس) بلغة أهل البصرة يقولون كذا وكذا حبْلاً ، وكذا وكذا أُشْلاً لمقدار معلوم عندهم ، قال أبومنصور وما أراه عربياً ، قال أبو سعيد الأُشول هى الحبال ، وهى لغة من لغات النبط قال ولولا أننى نبطىٌ ما عرفته (ص١٥ ، ١٦) .

٢- التهذيب الإِصْطَفْلِينُ الجزَرُ الذى يؤكل لغة شامية الواحدة اصْطَفْلِينة ، قال شمر الإصطفلينة كالجزرة ليست بعربية محضة لأن الصاد والطاء لايكادان يجتمعان في محض كلامهم ، قال وإنما جاء فى الصراط والإصْطَبْل والاصْطُمَّة أن أصلها كلها السين (ص١٨) .

٣- الأزهرى وخطّأ بعضهم قول من يقول : فلان يستأهل أن يُكرم أو يُهان، قال وأما أنا فلا أنكره ولا أخطئ من قاله ، لأنى سمعت أعرابياً فصيحاً من بنى أسد يقول لرجل شكر عنده يداً أُوليها : تستأهل يا أباحازم ما أُوليت (ص٣٠) .

٤- التهذيب آلَ فلان من فلان أى وأل منه ونجاه وهى لغة الأنصار يقولون رجل آيل مكان وائل (ص٤١) .

٥- البُرْطُلَّة المظلّة الصيفية نبطية ، وقد استعملت فى لفظ العربية ، وقال غيره إنما هو ابن الظّلَّة (ص٥٤) .

٦- ويقال بِلٌ مُباحٌ مُطْلَق يمانية حميرية (ص٦٩) .

٧- تميم تقول البلُولة من بِلّة الثرى وأسد تقول البِلّة (ص٧٠) .

٨- قال الفراء والعرب تقول بَلْ والله لا آتيك ، وبَنْ والله ، يجعلون اللام فيها نونا ، وهى لغة بنى سعد ولغة كلب ، قال وسمعت الباهليين يقولون لابنْ بمعنى لابلْ (ص٧٤) .

٩- أبو تراب عن بعض بنى سُلَيم : فى الغِرارة ثُقّلةٌ من تمر وثُمْلة من تمر أى بقية منه (ص٩٠) .

١٠- الأصمعى إذا اخضرّ طلْعُ النخيل واستدار ، قبل أن يشتدّ فإن أهل نجد يسمونه الجِدَالَ (ص١١٠) .

١١- قال كراع ويقال للجُعَلِ أبو وَجزةَ بلغة طيء (ص١١٩) .
والجَعْوَلُ ولد النعام يمانية .

١٢- الجفالُ من الزبَد كالجُفاءِ ، وكانِ رؤبةِ يقرأ فأما الزبد فيذهب جُفالاً لأنه لم يكن من لغته جفأت القدر ولاجفأ السيل (ص١٢١) .

١٣- وجُلّ الداية وجُلُها الذى تُلبسه لتصان به ، الفتح عن ابن دريد قال وهى لغة تميمية معروفة (ص١٢٥) .

١٤- والجَلَ بالفتح شراع السفينة ، قال شمر رواه أبو عدنان الملاح جُلُ وهو الكساء يلبس السفينة ، قال ورواه الأصمعى جلّ وهو لغة بنى سعد بفتح الجيم (ص١٢٨) .

١٥- الحَرْجَلُ والحرْجلةُ الجماعة من الخيل تميمية (ص١٥٨) .

١٦- وروى الأزهرى بإسناده عن الفراء قال سمعت أعرابياً من بنى سلَيم ينشد (فإنها حِيل الشيطان يَحْتَئِل) قال وغيره من بنى سليم يقول يحتال بلا همز . المشتئِق ، قال وغيره يقول المشتاق (ص١٩٨ ، ١٩٩) .

١٧- اللِيِث لغة تميم حالتْ عينُه تَحُول حولاً وغيرهم يقول حَولتْ عينُه تَحْوَل حولاً (ص٢٠٣) .

١٨- الخَلالُ بالفتح البلَح واحدته خَلالة بالفتح ، قال شمر وهى بلغة أهل البصرة (ص٢٣٣) .

١٩- قال ابن الأثير الخَولَىُّ عند أهل الشام القيّم بأمر الإبل وإصلاحها ، من التخوّل التعهّد وحسن الرعاية (ص٢٣٩) .

٢٠- وفى الحديث ما إخالُك سرقتَ أى ما أظنك ، وتقول فى مستقبله إخالُ بكسر الألف ، وهو الأفصح ، وبنو أسد يقولون أَخال بالفتح وهو القياس ، والكسر أكثر استعمالاً (ص٢٤٠) .

٢١- وقال محمدِ بن حبيب : الدُئِلُ فى كنانة بضم الدال وكسر الهمزة ، قال وكذلك فى الهون بن خزيمة أيضاً ، والدِّيل فى الأزد بكسر الدال وإسكان الياء (ص٢٤٨) .

٢٢- الدرَكلّة لعبة يلعب بها الصبيان وقيل هى لُعبةٌ للعجم معرب قال ابن دريد أحسبها حبشية معربة ، وقال أبو عمرو هو ضرب من الرقص (ص٢٥٩) .

٢٣- لادَهْلَ أى لاتخفْ نبطية معربة (ص٢٦٧) .

٢٤- التَّراجيلُ الكَرَفْس سواديّة ، وفى التهذيب بلغة العجم وهو اسم سواديٌّ من بقول البَساتين (ص٢٩١) .

٢٥- الرِّكْلُ الكُرَاث بلغة عبدالقيس (ص٣١٣) .

١٦- نزَيَلَ القومُ تزيَلاً وتزييلاً تفرقوا الأخيرة حجازية ، رواها اللحيانى قال وربيعة تقول تزايل القوم تزايلاً (ص٣٣٦) .

٢٧- الفراء يقال للتمر الذى لايشتد نواه الشيّص ، قال وأهل المدينة يسمونه السُّخَّل والسُّخَّل بضم السين ، وتشديد الخاء الشيص عند أهل الحجاز (ص٣٥٣) .

ويقال سخَلتَ الرجل إذا عبْتَهُ وضعَّفته ، وهى لغة هذيل .

٢٨- السُّمَّالُ شجر يمانية (ص٣٦٩) .

٢٩- التهذيب فى الرباعى : الشُّشْقَلَةُ كلمة حميرية ، لهجَ بها صيارفة أهل العراق فى تعبير الدنانير (وزنها) يقولون قد شَشْقلناها أى عيرناها أى وزناها ديناراً ديناراً ، وليست الششقلة عربية محضة (ص٣٧٥) .

٣٠- الكسائى الضِّئيلُ الداهية ، ولغة بنى ضبة الصِّئيل قال : والضاد أعرف ، وأبو عبيدة رواه الضَئيل بالضاد ، قال ولم أسمعه بالصاد إلا ماجاء به أبو تراب (ص٤٠١) .

٣١- صَلَّ الشراب يَصُلُّهُ صلاً صفَّاه والمِصلّة الإناء الذى يُصَفَّى فيه يمانية(ص٤٠٨) .

٣٢- اضمحلّ السحاب تقشع واضمحل الشىء أى ذهب ، وفى لغة الكلابيين امْضحلّ بتقديم الميم حكاها أبو زيد (ص٤١٤) .

٣٣- بنو تميم يقولون ضَلَلْتُ أَضَلُّ ضلَلْتَ أضِلُّ ، وقال اللحيانى أهل الحجاز يقولون ضللت أضِلّ ، وأهل نجد يقولون ضَللت أضلّ ، وأهل العالية يقولون ضلِلْت بالكسر أضَلّ ، وقال الجوهرى لغة نجد هى الفصيحة (ص٤١٤) .

٣٤- الطُّفَال والطِّفَالُ الطين اليابس يمانية (٤٢٩) .

٣٥- ظلّ نهاره يفعل كذا وكذا ، يَظِلّ ظَلاً وظُلولاً وظَلِلْتُ أنا وظَلْتُ وظِلْت قال ومن العرب من يحذف لام ظَلِلْت ونحوها حيث يظهران ، فإن أهلَ الحجاز

يكسرون الظاء على كسرة اللام ، التى أُلقيتْ فيقولون ظِلْنا وظِلْتُمْ (ص٤٤١).

٣٦- والعَزْجَلَةُ من الخيل القطيع ، وهى بلغة تميم الحَرْجَلَة (ص٤٦٥) .

٣٧- وحكى أبو زيد أن لغة عُقَيل لعَلَّ زيدٍ منطلق بكسر اللام من لعلَّ وجر زيد ، وقال الأخفش ذكر أبوعبيدة أنه سمع لام لعلّ مفتوحة فى لغة من يجرّبها (ص١٠٥) .

٣٨- والمُعاملةُ فى كلام أهل العراق هى المُساقاةُ فى كلام الحجازيين (ص٥٠٤).

الجزء الرابع عشر

١- واسم ماتغزل به المرأة المغْزَل والمُغْزَل والمَغْزَل تميم تكسر الميم ، وقيس تضمها والأخيرة أقلها (صَ٤) .

٢- النضر فى كتاب الزرع : الفَقْلُ التذرية فى لغة أهل اليمن (ص٤٥) .

٣- وفي حديث معاوية أنه صعد المنبر وفى يده فَليلة وطَريدة الفليلة الكُبَة من الشعر والفليل الليف هذلية (ص٤٨) ، وأهل اليمن يسمون ثمر الغاف فَلْفلاً .

٤- القُمْعُلُ والقُلْعُمُ القدح الضخم بلغة هذيل (ص٨٧) .

٥- وبنو أسد يقولون : قُولَ وقِيلَ بمعنى واحد (مبنى للمجهول) (ص٩٢) .

٦- المقْولُ القَيْلُ بلغة أهل اليمن ، قال ابن سيده المقْولُ والقَيْلُ الملك من ملوك حمير (ص٩٤) .

٧- وبرٌ مَكِيلٌ ويجوز في القياس مكْيُول ولغة بنى أسد مَكُولٌ ولغة رديئة مُكالٌ ، قال الأزهرى أما مكال فمن لغات الحضريين ، قال وما أراها عربية محصة ، وأما مكول فهى لغة رديئة ، واللغة الفصيحة مكيل ، ثم يليها فى الجودة مكيول (ص١٢٥) .

٨- قال الفراء أملَلْتُ لغة أهل الحجاز وبنى أسد ، وأمْلَيْتُ لغة بنى تميم وقيس (ص١٥٤) .

٩- وأهل الحجاز يؤنثون النَّخْل ، وفى التنزيل العزيز والنخل ذات الأكمام ، وأهل نجد يذكّرون (١٧٥) .

١٠- وكتابٌ منمَّلٌ مكتوب هذلية (ص٢٠٤) .

١١- والنّوْلُ الوادى السائل خثعمية عن كراع (ص٢٠٨) .

١٢- الجوهرى فى المستقبل منه أربع لغات يوْجَل وياجَلُ ويِيْجَلُ ويِيجلُ بكسر الياء ، قال وكذلك فيما أشبهه من باب المثال إذا كان لازماً ، فمنَ قال ياجل جعل الواو ألفاً لفتحة ما قبلها ، ومن قال يِيجل بكسر الياء فهى على لغة بنى أسد، فإنهم يقولون أنا إيجل ونحن نيجل وأنت تيجل ، كلها بالكسر ، وهم لايكسرون الياء فى يعلَم لاستثقالهم الكسر على الياء ، وإنما يكسرون فى ييجل لتقوّى إحدى الياءين بالأخرى (ص٢٤٨) .

١٣- الوَذِيلةُ المرآة طائية ، قال أبو عمرو قال الهذلىّ الوذيلة المرآة فى لغتنا (ص٢٤٩) .

١٤- المُوتَصِلة لغة قريش فإنها لاتدغم هذه الواو وأشباهها فى التاء فتقول مُوتَصِل ومُوتَفِق ومُوتَعِد ونحو ذلك ، وغيرهم يدغم فيقول متّصِل ومتّفِق (ص٢٥٣) .

١٥- الأُجُمُ القصر بلغة أهل الحجاز ، وفى الحديث حتى توارتْ بآجام المدينة أى حصونها (ص٢٧٣) .

١٦- الأرومة الأصل ، قال ابن الأثير الأرومة بوزن الأكولة الأصل (ص٢٧٩) .
والأُرومة والأَرومة الأخيرة تميمية الأصل والجمع أُرُوم (ص٢٨١) .

١٧- قال الليث وتكون «أمْ» مبتدأ الكلام فى الخبر وهى لغة يمانية ، يقول قائلهم :
أَمْ نحن خرجنا خيار الناس ، أم نطعم الطعام ، أم نضرب الهام ، وهو يخبر.
وروى عن أبى حاتم قال : قال أبوزيد «أم» تكون زائدة لغة أهل اليمن (ص٣٠١) . تكون «أم» بلغة بعض أهل اليمن بمعنى الألف واللام ، وفى الحديث ليس من امبر امصيامِ فى امسِفر ، قال أبو منصور والألف فيها ألف وصل تكتب ولاتظهر إذا وصلتْ ، ولاتقطع كما تقطع ألف «أمْ» التى قدمنا ذكرها ، وأنشد أبوعبيد:

ذاك خليلى وذو يُعاتبنى　　　يرمى ورائى بِامسيفِ وامسْلِمة

ألا تراه كيف وصل الميم بالواو فافهمه (ص٣٠٢) .

١٨- البُطْمُ شجر الحبة الخضراء واحدته بُطْمة ، ويقال بالتشديد ، وأهل اليمن يسمونها الضرْو (ص٣١٧) .

١٩- وجَحْمَتا الإنسان عيناه وجحمتا الأسد عيناه بلغة حمير ، قال ابن سيده بلغة أهل اليمن خاصة (ص٣٥٢) .

٢٠- قال أبو حنيفة الجُدامِىْ ضرب من التمر باليمامة ، وهو بمنزلة الشُهْرِيز بالبصرة والتبى بالبحرين (ص٣٥٣) .

٢١- يقال للجَذَع جَذَعمّ وجَذْعَمة ، قال ابن الأثير ، وفى حديث على كرم الله وجهه أسلم والله أبو بكر وأنا جذعمة ، وفى رواية ، أسلمتُ وأنا جذعمة ، أراد وأنا جَذَع أى حديث السن (ص٣٥٧) .

الجزء الخامس عشر

١- وفى حديث عمر رضى الله عنه فى الحرامِ كفارةُ يمين : هو أن يقول حَرامُ اللهِ لا أفعل ، كما يقول يمين الله وهى لغة العقَيْليين (ص١٨) .

٢- الأزهرى قال أبو تراب سمعت بعض بنى سُلَيم يقول حمزه وحمظه أى عصره ، وجاء به فى باب الظاء والزاى (ص٣٠) .

٣- الخزُّومة البقرة بلغة هذيل (ص٦٦) .

٣- وقال أبو عمر الدِّمْدِمُ أصول الصِّلِّيَانِ (شجر) المُحيل فى لغة بنى أسد وهو فى لغة بنى تميم الدِّنْدِن ؛ الدندم النبت القديم المسودُّ كالدندن بلغة بنى أسد . قال ابن سيده ولولا أنهَ قال بلغة بنى أسد لجعلت ميم الدندم بدلاً من نون الدندن (ص٩٩) .

٥- الرِّحمُ القرابة والرِّحْم بالكسر مثله ، وذهب سيبويه إلى أن هذا مطرد فى كل ماثانيه من حروف الحلق بكْرِيّة (ص١٢٤) .

٦- وزعم أبو زيد الأنصارى أن من أهل اليمن من يقول رَخْمِتُه رَخْمةً بمعنى رحمته رحمة (ص١٢٥) .

٧- فإن الخليل زعم أن ناسا من بكرِ بنِ وائل يقولون رَدْتُ ورِدّتَ وكذلك مع جماعة المؤنث يقولون ردن ومرن ، يريدون : رددْت ورددْت واردْدن وامْرُرْن (ص١٤٥) (وانظر جـ٤ ص٢٢٠) .

٨- الزُّعْمُ تميمية والزَّعْمُ حجازية (ص١٥٦) .

٩- الأحمر : بعيرٌ أريَمْ وأسْجَمٌ ، وهو الذى لايرغو ، قال شمر الذى سمعت : بعير أَزْجَم بالزاى والجيم قال وليس بين الأزيم والأزجم إلا تحويل الياء جيما، وهى لغة فى تميم معروفة ، قال أبو الهيثم والعرب تجعل الجيم مكان الياء لأن مخرجيهما من شجْر الفم ، وشجر الفم الهواء وخرق الفم الذى بين الحنكين (ص١٧٢) .

١٠- سُطُمَّةُ البحر والحسب واسْطُمَّتُه واسْطُمُّه وسطه ومجتمعه والجمع الأسائِمُ ، قال وتميم تقول أساتِم نعاقب بين الطاء والتاء فيه (ص١٧٨) .

١١- قال يونس : أهل العالية يقولون السُّمّ والشُّهْد يرفعون ، وتميم تفتح السمّ

والشهد (ص١٩٥) .

١٢- والحروف الصُّتْم التى ليست من حروف الحلق ، قال ابن سيده ولذلك معنًى ليس من غرض هذا الكتاب ، قال الجوهرى الحروف الصّم ماعدا الذلْق ، والصتيمة الصخرة الصلبة ، والأصْتَمة معظم الشىء ، تميمية التاء فيها بدل من الطاء ، وفلان فى أصتمة قومه مثل أُصْطُمَّتهم ، التهذيب والأصاتم جمع الأصطمة بلغة تميم جمعوها بالتاء كراهة تفخيم أصاطم فردّوا الطاء إلى التاء (ص٢٢٥) .

١٣- الجوهرى : الصَّوْمُ شجر فى لغة هذيل (ص٢٤٤) .

١٤- وأهل الحجاز إذا أطلقوا اللفظ بالطعام عنوا به البُرّ خاصة (ص٢٥٦) .

١٥- والعُظْمَةُ والعظامة والعُظَّامةُ بالتشديد والإعظامَةُ والعَظيمة ثوب تعظّم به المرأة عجيزتَها ، وقال الفراء العظمة شىء تعظم به المرأة ردْفها من مرْفقة وغيرها ، وهذا فى كلام بنى أسد ، وغيرهم يقول العِظامة بكسر العين (ص٣٠٤) .

١٦- وأما الذى ورد فى حديث عائشة ، رضى الله عنها : استأذنت النبى، صلى الله عليه وسلم ، فى دخول أبى القعيْس عليها فقال ائذنى له فإنهَ عمُّج ، فإنه يريد عمك من الرضاعة فأبدل كاف الخطاب جيما ، وهى لغة قوم من اليمن ، قال الخطابى إنما جاء هذا من بعض النقلة ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان لايتكلم إلا باللغة العالية قال ابن الأثير ، وليس كذلك فإنه قد تكلم بكثير من لغات العرب ، منها قوله ليس من امبرّ امصيام فى امسفر ، وغير ذلك (ص٣١٩) .

١٧- المَغْرَم المملوء بالماء وغيره هذلية ، أبو عبيد المُغْرَم من الحياض المملوء بالماء فى لغة هذيل ، الجوهرى أفرمْتُ الإناء ملأْته بلغة هذيل (ص٣٤٩) .

١٨- قطامِ ، قطامُ اسم امرأة وأهل الحجاز يبنونه على الكسر فى كل حال، وأهل نجد يجرونه مجرى مالاينصرف ، وقد ذكرناه فى رقاشِ (ص٣٩١) .

١٩- القهِمُ القليل الأكل من مرضٍ أو غيره ، وقد أقْهمَ عن الطعام وأقْهَى أى أمسكَ ، وصار لايشتهيه وقهِى لبعض بنى أسد (ص٣٩٧) .

٢٠- الكَحْمُ لغة فى الكحْبِ وهو الحصْرِم واحدته كَحْمة يمانية (ص٤١٢) .

٢١- الكلْمَةُ لغة تميمية والكَلِمَةُ اللفظة حجازية ، والجمع فى لغة تميم الكلِم (ص٤٢٨) .

الجزء السادس عشر

١- أبو زيد قال تميم تقول تلثّمت على الفم وغيرهم يقول تلفّت (ص٥) .

٢- وتكون «لَمّا» بمعنى «إلاّ» فى قولك سألتك لَما فعلت ، بمعنى إلاّ فعلت وهى لغة هذيل (ص٢٧) .

٣- فى الحديث أن النبى صلى الله وعليه وسلم ، رأى على «عبدالرحمن بن عوف» وضَراً من صفْرة فقال : مَهْيَمْ ؟ قال قد تزوجت امرأة من الأنصار على نواةٍ من ذهب . فقال أَوْلِمْ ولو بشاة . أبو عبيد قوله مهيم كلمة يمانية معناه ما أمرك ؟ (ص٤٢) .

٤- ونعمَةُ الله بكسر النون مِنَّهُ ، وما أعطاه الله العبد ، والجمع نِعَمٌ وأَنْعُمٌ ونِعِمات ونِعمَات الإتباع لأهل الحجاز (ص٥٩) .

٥- وحكى سيبويه أن من العرب من يقول نَعْمَ الرجلُ فى نِعُمَ . كأن أصله نَعِمَ ثم خفف بإسكان الكسرة على لغة بكر بن وائل (ص٦٥) .

٦- أمرنا أميرِ المؤمنين عمرُ رضى الله عنه بأمرٍ فقلنا نَعَمْ ، فقال لاتقولوا نَعَمْ ، وقولوا نعِمْ بِكسر العين ، وقال بعض ولد الزبير ماكنت أسمع أشياخ قريش يقولون إلا نعِمْ بكسر العين (ص٦٩) .

٧- الهيْصَمّ حجر أملس يتخذ منه الحقاق وأكثر مايتكلم به بنو تميم ، وربما قلبت فيه الصاد زايا (ص٩٦) .

٨- قال سيبويه هلُمّ فى لغة أهل الحجاز يكون للواحد والاثنين والجميع والذكر والأنثى بلفظ واحد ، وأهل نجد يصرفونها ؛ وأما فى لغة تميم وأهل نجد فإنهم يجرونه مجرى قولك ردّ يقولون للواحد هلمّ كقولك ردُّ وللاثنين هلمّا ، وقال الليث هلُمّ كلمة دعوة إلى شىء الواحد والاثنان والجميع والتأنيث والتذكير سواء ، إلا فى لغة بنى سعد ، فإنهم يحملونه على تصريف الفعل تقول هلمّ هلمّا هلمّوا ونحو ذلك (ص١٠١ ، ١٠٢) .

٩- قال اللحيانى وسمع الكسائى رجلا من بنى عامر ، يقول إذا قيل لنا أبقى عندكم شيء قلنا همْهامٌ وهمَّامٍ ياهذا ، أى لم يبق شيء (ص١٠٧) .

١٠- الوسمة أهل الحجاز يثقلونها (أى الوَسِمَةُ) وغيرهم يخففها كلاهما شجر له ورق يختص به وقيل هو العِظْلِم (ص١٢٣) .

١١- الإجّانة والإنجانة والأجّانة الأخيرة طائية عن اللحيانى المرْكَنُ (التى تغسل فيها الثياب ونحوها) وأفصحها إجّانة واحدة الأجاجين وهو بالفارسية إكّانة(ص١٤٥) .

١٢- قال أبو إسحاق والحجة فى إن هذان لساحران بالتشديد والرفع أن أبا عبيدة روى عن أبى الخطاب أنه لغة كنانة يجعلون ألف الاثنين فى الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد ، يقولون رأيت الزيدان ، وروى أهل الكوفة والكسائى والفراء أنها لغة لبنى الحارث بن كعب (ص١٧٢) .

١٣- وحكى ابن جنى عن قطرب أن طيئا تقول هِنْ فعلتَ فعلتُ ، يريدون إنْ، فيبدلون (ص١٧٨) .

١٤- فأبدل العين مكان الهمزة وهذه عنعنة تميم ، وهى مذكورة فى موضعها (ص١٧٨) (انظر جـ١٧ ص١٦٨) .

١٥- للعرب فى «أنا» لغات وأجودها أنك إذا وقفت عليها ، قلت «أنا» بوزن «عنا» ، وإذا مضيت عليها قلت «أنَ» فعلتُ ذلك بوزن «عنَ» فعلت تحرك النون فى الوصل ، ومن العرب من يقول أنا فعلتُ ذلك فيثبت الألف فى الوصل ولاينون ، ومنهم من يكن النون ، وهى قليلة فيقول أنْ قلتُ ذلك ، وقضاعة تمد الألف الأول آن قلته (ص١٧٩) .

١٦- البُلْسُن العدَس يمانية ، الجوهرى البلسن بالضم حب كالعدس وليس به(ص٢٠٤) .

١٧- والباهين ضرب من التمر عن أبى حنيفة ، وقال مرة أخبرنى بعض أعراب عمان أن بهجر نخلة يقال لها الباهين لايزال عليها السنة كلها طلع جديد (ص٢٠٧) .

١٨- الفراء فى قولهم «بلْ» بمعنى الاستدراك تقول بل والله لا آتيك وبَنْ والله ، يجعلون اللام فيها نونا ، قال وهى لغة بنى سعد ولغة كلب ، قال وسمعت الباهليين يقولون لابن بمعنى لابل (ص٢٠٦) .

١٩- المثْبنة كيس تضع فيه المرأة مرآتها وأداتها يمانية (ص٢٢٦) .

٢٠- الجرين هو موضع تجفيف التمر ، وهو له كالبيدر للحنطة ، وقيل الجرين موضع البيدر بلغة أهل اليمن ، قال وعامتهم بكسر الجيم وجمعه جرن ، والجرين الطّحْن بلغة هذيل (ص٢٣٨ ، ٢٣٩) .

٢١- الجوهرى حَزَنهُ لغة قريش وأحزنه لغة تميم وقد قرىء بهما (ص٢٦٦) .

الجزء السابع عشر

١- الدَّحنَة الأرض المرتفعة عن أبى مالك يمانية (ص٥) .

٢- الدِّرَان الثعلب وأهل الكوفة يسمون الأحمق دُرَيْنَة (ص١٠) .

٣- أبو حنيفة الدُّرّاقِن الخَوْخ بلغة أهل الشام (ص١١) .

٤- داشِنٌ معرب من الدَّشْنِ ، هو كلام عراقى وليس من كلام أهل البادية ، كأنهم يعنون به الثوب الجديد الذى لم يلبس أو الدار الجديدة التى لم تسكن ولا استعملت (ص١١) .

٥- الدَّعْنُ سعفٌ يضم بعضه إلى بعض ، ويُرمَّل بالشريط ، ويبسط عليه التمر أزدية (ص١١) .

٦- قال أبو حنيفة قال أبو عمر «الدَّنْدِنُ» الصِّلِّيان المُحيل تميمية ثابتة (ص١٧) .

٧- ورجل دائن ومدين ومديون الأخيرة تميمية ، ومُدان عليه الدَّيْنُ ، وقيل هو الذى عليه دين كثير ، الجوهرى رجل مديون كثر ماعليه من الدين (ص٢٥).

٨- وقيل الزَّرَجُونُ قصبان الكرم بلغة أهل الطائف وأهل الغَوْر ، قال السيرافى هو فارسى معرب شبه لونها بلون الذهب ؛ لأن «زر» بالفارسية الذهب وجون اللون (ص٥٧) .

٩- الزِّفْنُ ، الزِّفْنُ بلغة عُمان كلاهما ظلة ، يتخذونها فوق سطوحهم تقيهم ومد البحر أو حره ونداه ، والرَّقْس عسيب من عسب النخل يضم بعضه إلى بعض شبيه بالحصير المرمول قيل هى لغة أردية (ص٥٨) .

١٠- الزُّوانُ حَبٌّ يكون فى الحنطة تسميه أهل الشام الشَّيْلَم (ص٦٢) .

١١- سَخُنَ الشىءُ والماءُ بالصم ، سَخَنَ بالفتح ، سخِنَ الأخيرة لغة بنى عامر (ص٦٦) .

١٢- السخاخينُ المَساَحِي واحدها سِخِّينٌ بلغة عبدالقيس وهى مسحاةٌ منعطفة (ص٦٩) .

١٣- السُّعْنُ ظلة أو كالظلة تتخذ فوق السطوح جدر ندى الومد ، والجمع سعون ، وقال بعضهم هى عمانية لأن متخذيها إنما هم أهل عمان (ص٧١ وانظر الزقن) .

١٤- السَّكَنْ ، والمِسْكَن ، المَسكنُ المنزل والبيت الأخيرة نادرة ، وأهل الحجاز يقولون مسكَن بالفتح (ص٧٤) .

١٥- حكى الكسائى عن بعض بنى أسد المُسْكِينُ بفتح الميم فى المِسْكِينُ (ص٨١) .

١٦- التّسْمِينُ التبرِيد طائفية ، وفى حديث الحجاج أنه أتى بسمكة مشوية فقال للذى حملها سمنها فلم يدر مايريد ، فقال عنبسة بن سعيد إنه يقول لك بردها قليلاً (ص٨٣) .

١٧- الشّتْن النسج والشاتِنُ والشُّتُون الناسج يقال شتن الشاتنُ ثوبَه أى نسجه وهى هذلية (ص٩٦) .

١٨- وثوب مَصُونٌ على النقص ، مَصْوُون على التمام الأخيرة نادرة وهى تميمية (ص١١٨) .

١٩- الضائنُ خلاف الماعز والجمع الظأن والضّأن مثل المَعْز ، المَعَز ، والضّئين ، والضِّئين تميمية ، والضّين والضين غير مهمورين عن ابنِ الأعرابى كلها أسماء لجمعها ، فالضأن كالركب والظأن كالقعد والضّئِين كالغزِى والقطعين ، والضِّئين داخل على الضَّئين أتبعوا الكسر الكسر ، يطرد هذا فى جميع حروف الحلق إذا كان المثال فَعلاً أو فعيلاً (ص١١٩) .

٢٠- ضَدَنْتُ الشيء أَضْدِنُه ضَدْناً سهلته وأصلحته ، لغة يمانية (ص١٢٢) .

٢١- وحكِى اللحيانى عن بنِى سُلَيم لقد ظَنَتُ ذلك أى ظننتُ فحذفوا كما حذفوا ظلْتَ ومسْتَ وما أحسْتَ ذاك وهى سلَمية (ص١٤٣) .

٢٢- قال أبو تراب سمعت زائدة البكرِىّ يقول العرب تدعو ألوان الصوف العَهَنَ غير بنى جعفر فإنهم يدعونه العِثن بالثاء (ص١٤٨) .

٢٣- العِجَانُ بلغة أهل اليمن العُنُق . قال شاعرهم يرثى أمّه وأكلها الذئب :

فلم يبق منها غير نصف عجانها وشنترة منها وإحدى الذوائب

٢٤- وعنعنة تميم إبدالهم العين من الهمزة ، كقولهم «عَنْ» يريدون «أنْ» ، قال

الفراء لغة قريش ومن جاورهم «أنّ» ، وتميم وقيس وأسد ومن جاورهم يجعلون ألف «أنّ» إذا كانت مفتوحة عينا يقولون أشهد عنّك رسول الله ، فإذا كسروا رجعوا إلى الألف ، قال ابن الأثير كأنهم يعقلونه لبحح فى أصواتهم . والعرب تقول لأنك ولعنّك تقول ذلك بمعنى لعلّك . ابن الأعرابى لعنّك لبنى تميم ، وبنو تيم الله بن ثعلبة يقولون رعنك يريدون لعلّك (ص١٦٨) .

٢٥- ونخلة عَوانٌ طويلة أزدية ، وقال أبو حنيفة العَوانَةُ النخلة فى لغة أهل عُمان ، والعانة الحظ من الماء للأرض بلغة عبدالقيس (ص١٧٤) .

٢٦- وقيل العَيْنُ والعَيِّنُ الجديد طائية ، وكذلك قربة عَيِّنٌ جديد طائية أيضاً (ص ١٧٩) .

٢٧- الغِدَانُ القضيب الذى تعلق عليه الثياب يمانية ، بلغة أهل اليمن (ص١٨٧) .

٢٨- التهذيب قال أبو عمرو أتيتُه على إفّان ذلك ، وقفّان ذلك ، وغفان ذلك، قال والغين فى بنى كلاب (ص١٩٠) .

٢٩- فَتَنَ الرجلُ بالمرأة وافتتن ، وأهل الحجاز يقولون فتنته المرأة إذا ولّهته وأحبّها ، وأهل نجد يقولون أفتنته (ص١٩٤) .

قال الفراء أهل الحجاز يقولون «ما أنتم عليه بفاتنين» ، وأهل نجد يقولون بمفتنين من أفتنت (ص١٩٦) .

٣٠- قال أبوعبيد يُتَفكنون أى يتندمون ، اللحيانى أزد شنوءة يقولون يتفكهون ، وتميم تقول يتفكنون (ص٢٠١) .

٣١- ابن بزرج يقول بعض بنى أسد يافُلُ أقبلْ ، ويافُلُ أقبلا ، ويافُلُ أقبلوا، وقالوا للمرأة فيمن قال يافل أقبل يافلان أقبلى ، وبعض بنى تميم يقول يافلانة أقبلى، وبعضهم يقول يافلاة أقبلى ، قال سيبويه ليست ترخيما وإنما هى صيغة ارتجلت فى باب النداء ، وقد جاء فى غير النداء وأنشد :

فى لَجّةٍ أمسك فلانا عن فُلِ

(ص٢٠٢) .

٣٢- ابن شميل أهلِ الحجاز يسمون القارورة «القَرّانَ» الراء شديدة ، وأهل اليمامة يسمونها الحنجورة (ص٢٢٠) .

٣٣- والقينة الأمة المغنية تكون من التزيّن لأنها كانت تتزيّن ، وربما قالوا للمتزين من الرجال قينة ، قال وهى كلمة هذلية (ص٢٣١) .

٣٤- روى الأزهرى قال سمعت محمد بن اسحق السعدى ، يقول سمعت علىّ بن حرب الموصلى يقول : شىء لَثِنٍ أى حلو بلغة أهل اليمن ، قال الأزهرى لم أسمعه لغير على بن حرب وهو ثبت ، وفى حديث المبعث :

بُعْضُكم عندنا مُرٌّ مذاقته ... وبغضنا عندكم ياقومنا لَثِنُ

٣٥- أبو زيد عن الكلابيين أجمعين : هذا من لُدْنِه ، ضموا الدال وفتحوا اللام ، وكسروا النون (ص٢٦٩) .

٣٦- ولغنّ لغة فى لعلّ وبعض بنى تميم يقول لغنك بمعنى لعلك ، قال الفرزدق :

قفا ياصاحبىّ بنا لغّنا ... نرى العرصاتِ أو أثرَ الخيامِ

(ص٢٧٥) .

٣٧- قال أبو منصور سمعت رجلاً من أهل هَجَر يقول لآخر : مَشّنْ الليفَ أى ميّشْه وانفشْع للتلسين ، والتلسين ، أن يسوّى الليف قطعة قطعة (ص٢٩٥) .

٣٨- قال اللحيانى فإذا لقيت النون ألف الوصف فمنهم من يخفض النون فيقول : منِ القوم ، ومنِ ابنك ، وحكى عن طىء وكلب ، اطلبوا منِ الرحمن . وبعضهم يفتح النونِ عند اللامِ وألف الوصِل ، فيقول منَ القوم ومن ابنك . قال سيبويه قالوا من الله ومنَ الرسول ومنَ المؤمنين ففتحوا ، قال وزعموا أن ناسا يقولون منِ الله فيكسرونه ويجرونه على القياس ، يعنى أن الأصل فى كل ذلك أن تكسر لالتقاء الساكنين ، قال وقد اختلف العرب فى «منْ» إذا كان بعدها ألف وصل غير الألف واللام ، فكسره قوم على القياس ، وهى أكثر فى كلامهم وهى الجيدة ، ولم يكسروا فى ألف اللام لأنها مع ألف اللام أكثر ؛ إذ الألف واللام كثيرة فى الكلام تدخل فى كل اسم نكرة ، ففتحوا استخفافاً فصار «منِ ابنك ومنِ امرىء ، قال وقد فتح قوم فصحاء فقالوا منَ ابنك فأجروها مَجرى قولك منَ المسلمين .

قال أبو اسحاق ويجوز حذف النون من (منْ وعَنْ) عند الألف واللام لإلتقاء الساكنين وحذفها من (منْ) أكثر من حذفها من (عنْ) ؛ لأن دخول (من) فى الكلام أكثر من دخول (عن) ، وأنشد :

أبلغ أبا دختنوسَ مألُكة غيرُ الذى قد يقال مِ الكذبِ

(ص ٣١١ ، ٣١٢) .

٣٩- والوهينُ بلغة من يلى مصر من العرب ، وفى التهذيب بلغة أهل مصر الرجل يكون مع الأجير فى العمل يحثه على العمل (ص٣٤٧) .

٤٠- التابوه لغة فى التابوت أنصارية (ص٣٧٣) .

٤١- قال أبو زيد قال لى رجل من بنى كلاب : ألقيتنى فى التُّوهِ يريد التيهَ (ص٣٧٥) .

٤٢- قيل الأجلهُ الأجلحُ (الأصلع) فى لغة بنى سعد (ص٣٧٨) .

٤٣- وفى بعض الحديث أن رجلا من «أسلم» عدا عليه ذئب ، فانتزع شاة من غنمه فجهجأه أى زبره ، وأراد «جهجهه» فأبدل الهاء همزة لكثرة الهاءات وقرب المخرج (ص٣٧٩) .

٤٤- قال ابن سيده والشَّبَهانُ والشُّبُهانُ ضرب من العضاه ، وقيل هو الثمام يمانية حكاها ابن دريد (ص٤٠٠) .

٤٥- الأصمعى وغيره العَضْهُ السِّحْرُ بلغة قريش ، وهم يقولون للساحر عاضهٌ (ص٤١١) .

٤٦- والكِرْهاءُ أعلى النقرة هذلية أراد نقرة القفا (ص٤٣٣) .

٤٧- الماء والماه والماءة معروف ، وهمزة «ماء» منقلبة عن هاء ، بدلالة ضروب تصاريفه فإن تصغيره «مويه» ، وجمع الماء أمواه ومياه ، ومن العرب من يقول «ماءة» كبنى تميم ، يعنون الركيّة بمائها .

٤٨- النُّكَّة من الإبل التى ذهبت أصواتها من الضعف ، وهى لغة تميم فى «النُّقَّة» (ص٤٤٨) .

٤٩- الوافهُ قيِّم البيعة الذى يقوم على بيت النصارى ، الذى فيه صليبهم ، بلغة أهل الجزيرة كالواهف (ص٤٥٩) .

الجزء الثامن عشر

١- وقرىء «يومَ يأت» بحذف الياء ، كما قالوا «لا أدْرِ» وهى لغة هذيل . وأما قول قيس بن زهير العَبسىّ :

ألم يأتيك والأنبــاء تنْمِى بما لاقــتْ لبونُ بنى زيادِ

فإنما أثبت الياء ولم يحذفها للجزم ضرورة وردّه إلى أصله ، قال المازنى ويجوز في الشعر أن تقول : «ريد يرميك» برفع الياء ، ويغزوك برفع الواو ، وهذا قاضى بالتنوين ، فتجرى الحرف المعتل مجرى الحرف الصحيح من جميع الوجوه فى الأسماء والأفعال جميعاً لأنه الأصل (ص١٤) .

٢- وآتيتهُ على ذلك الأمر مؤاتاة إذا وافقته وطاوعته ، والعامة تقول : واتيته ، قال ولا تقل واتيته إلى فى لغة لأهل اليمن (ص ١٨) .

٣- وتقول آخيتهُ على مثال فاعلْتُه ، قال ولغة طيىء واخيتهُ (ص٢٣) .

٤- وأهل الحجاز يقولون : آديتُه علي أفعلته أى أعنتُه ، وآدانى السلطان عليه أعدانى ، واستأديته عليه استعديته ، وآديته عليه أعنْته ، كله منه الازهرى أهل الحجاز يقولون استأديت السلطان على فلان ، أى استعديتُ فآدانى عليه أى أعدانى وأعاننى ص٢٧ .

٥- وهو بإدائه أى بإزائه طائية (ص٢٨) .

٦- قال الأزهرى سمعت الفصيح من بنى كلاب يقول لمأوى الإبل «مأواة» بالهاء (ص٥٤) .

٧- قال ابن برى قالِ ابنِ خالويه : ليس أحد يقول بَديتُ بمعنى بدأتُ إلا الأنصار ، والناس كلهم بديت وبدأت ، لما خففت الهمزة كسرت الدالِ ، فانقلبت الهمزة ياءً ، قال وليس من بنات الياء ، وأهل المدينة يقولون بدِينا بمعنى بدأنا (ص٧١) .

٨- وطيِء تقول بقِى ، بقَتْ مكان بقَى ، بقَيَتْ ، وكذلك أخواتها من المعتل، قال البولانى :

نستوقِدُ النَّبْلَ بالحصيص وتصـ طـادُ نفوساً بُنتْ على الكرمِ

أى بُنيتْ ، ولغة طيِّئ بَقَى يبقى . وكذلك لغتهم فى كل باء انكسر ماقبلها، يجعلونها ألفاً نحو بقى وبقوته بطرت إليه (ص٨٨) .

٩- وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما : وصلاة الليل فَبَتَيتُ كيف يصلى النبى صلى الله عليه وسلم ،وفى رِواية كراهة أن يرى أنى كنت أَبْقِيه أى أنظره وأرصده ، اللحيانى بقيته وبقوته نظرت إليه (ص٨٨) .

١٠- قال الفراء والعرب تقول ، بل والله لا آتيك ، وبَنْ والله ، يجعلون اللام فيها نونا ، قال وهى لغة بنى سعد ولغة كلب ، قال وسمعت الباهليين يقولون : «لابَنْ» بمعنى «لابَلْ» (ص٩٥ وانظر أيضاً جـ١٦ ص٢٠٦) .

١١- وحكى الفارسىّ أن طيئا تقول «تَوَى» ، قال ابن سيده وأراه على ماحكاه سيبويه من قولهم بقى ورضى ونهى (ص١١٤) .

١٢- ويقال جرت عنك شاة أى قضت ، وبنو تميم يقولون أجزأت عنك شاة بالهمز أى قضتْ (ص١٩٥) .

١٣- وقيل أهل مكة يسمون «الحِدأ» حِدَوّاً بالتشديد (ص١٨٤) .

١٤- الحُكَأَةُ العَظَاةُ بلغة أهل مكة ، وجمعها حُكى ، قال وقد يقال بغير همز ويجمع على حُكًى مقصور (ص٢٠٨) .

١٥- وحَميتُ عليه غضبتُ والأمويّ يهمزه (ص٢١٨) .

١٦- يقال حانةٌ وحانوت وصاحبها حانىّ ، وفى حديث عمر أنه أحرق بيت رويْشد الثقفى ، وكان حانوتاً تعاقر فيه الخمر وتباع . وكانت العرب تسمى بيوتَ الخمّارين الحوانيت ، وأهل العراق يسمونها المواخير ، واحدها جانوت ، ماخور (ص٢٢٤) .

١٧- الحياة نقيض الموت ، وحكى ابن جنى عن قطرب أن أهل اليمن يقولون الحيوة واو قبلها فتحة ، وكذلك يفعل أهل اليمن بكل ألف منقلبة عن واو كالصلاة والزكاة (ص٢٣٠) ، وقرأ أهل المدينة «ويحيا من حيِى عن بيِّنة» وغيرهم «من حىَّ عن بيِّنة» .

١٨- الأزهرى للعرب فى هذا الحرف لغتان ، يقال استَحَى الرجلُ يستَحِي

بياء واحدة ، واستحيا فلان يستحى بياءين ، والقرآن نزل بهذه اللغة الثانية ، وقال الأخفش استحى بياء واحدة لغة تميم ، وبياءين لغة أهل الحجاز، وهو الأصل (ص٢٣٨ ، ٢٣٩) .

١٩- والخَشْوُ الحشفُ من التمر ، وخَشَتِ النخلةُ تخشو خَشْواً أحشَفَتْ وهى لغة بلحْرث بن كعب (ص٢٥١) .

٢٠- والخَوافِى السَّعَفَات اللواتى يلينَ القِلَبَةَ نجدية ، وهى فى لغة أهل الحجاز العواهن (ص٢٥٩) .

٢١- قال اللحيانى تميم تقول : خلا فلانٌ على اللين وعلى اللحم إذا لم يأكل معه شيئاً ولا خلطه به ، قال وكنانة وقيس يقولون : أخْلَى فلان على اللين واللحم (ص٢٦١) .

٢٢- الخَوِىُ الثابت طائية (ص ٢٧١) .

٢٣- الدِّعْوَة والدَّعْوة والمَدْعاة مادعوت إليه من طعام وشراب ، الكسر فى الدِّعْوة لعدِىً بن الرِّباب ، وسائر العرب يفتحون (ص٢٨٥) .

٢٤- الدعِىَّ المنسوب إلى غير أبيه ، وإنه لبَيِّن الدِّعوة والدَّعوة الفتح لعَدِىً بن الرِّبابِ وسائر العرب تكسرها بخلاف ماتقدم فى الطعام (ص٢٨٥) .

٢٥- ودَفَا الجريحَ دفْواً أجهز عليه ، وفى الحديث أن قوماً من جهينة جاءوا بأسير إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو يرعد من البرد فقال لهم اذهبوا به فأدفوه يريد الدفء من البرد وهى لغته عليه الصلاة والسلام ، فذهبوا به فقتلوه ، وإنما أراد أدفئوه من البرد ، فوداه رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٨٩) .

٢٦- ذَأَى العودُ والبقْلُ يذْأَى ذأوا وذِأباً وذُئياً الأخيرة عن ابن الأعرابى ، قال يعقوب وهى حجازية دوى وذبل (ص٣٠٨) .

٢٧- دوى العودُ والبقلُ بالفتح يَدوِى دباً ودُوِيًّا كلاهما ذيل ، وقال الليث لغة أهل بثينة ذأى العود (ص٣١٨) .

الجزء التاسع عشر

١- يرى ، ترى ، نرى ، أرى ، قال وبها نزل القرآن ، إلا تيم الرِّباب فإنهم يهمزون حروف المضارعة فتقول : هو يرأى ، ترأى ، نرأى ، أرأى (ص٤، ٥) .

٢- قال الفراء : أهل المدينة يقرءونها «ريًّا» بغير همز ، قال وهو وجه جيد من رأيت لأنه مع آيات لسن مهموزات الأواخر (ص٧) .

٣- الرَّئِيُّ ، الرَّئِيُّ الجِنِّيُّ يراه الإنسان ، وقال اللحيانى له رَئِيٌّ من الجن ورِئِيّ إذا كان يحبه ويؤالفه ، وتميم تقول رِئِيّ بكسر الهمزة والراء مثل سِعِيد ، بِعِير (ص١٠) .

٤- الاختيار من اللغات «رُبْوَة» لأنها أكثر اللغات ، والفتح لغة تميم (ص١٩) .

٥- أرْجَى الأمرَ أخَّره لغة فى أرجأه ، وفى قراءة أهل المدينة «قالوا أرْجِهِ وأخاه» (ص٢٤) .

٦- قال أبو عمرو «الأُرْعُوَّة» بلغة أزد شنوءة نيرُ الفدّان ، يحترث بها (ص٤٢) .

٧- قال اللحيانى «الزِّنَى» مقصور لغة أهل الحجاز ، قال تعالى : «ولا تقربوا الزِّنَى» بالقصر ، والزِّناء ممدود لغة بنى تميم ، وفى الصحاح المدّ لأهل نجد (ص٧٩) .

٨- الزَّهْوُ ، الزهْوُ البِسر إذا ظهرت فيه الحمرة ، وقيل إذا لوّن واحدته زَهْوَةٌ ، وقال أبو حنيفة زهو وهى لغة أهل الحجاز بالصم جمع زهو كقولك قوس ورْد وأفراس ورْد (ص٨٢) .

٩- شمر : السَّدَى ، السَّدَاء ممدود البلح بلغة أهل المدينة ، وقيل السَّدَى البلح الأخضر ، وقيل البلح الأخضر بشماريخه يمدّ ويقصر يمانية (ص٩٨) .

١٠- سَرَيْت سُرًى ، مَسْرىً ، وأَسْرَيْتُ بمعنى إذا سرْتَ ليلا ، بالألف لغة أهل الحجاز ، وجاء القرآن العزيز بهما جميعاً (ص١٠٣) .

السُّرَى مصدر سريتُ ، ويقل فى المصادر أن تجيئ على هذا البناء ؛ لأنه من أبنية الجمع ، يدل على صحة ذلك أن بعض العرب يؤنث السُّرَى

والهُدَى ، وهم بنو أسد توهماً أنهما جمع سُرْيَة ، هُدْية (ص١٠٤) .

١١- ابن الأعرابى : «سفَا» إذا ضعف عقله ، و «سقا» إذا رق شَعْره وجلِحَ لغة طىء (ص١١١) .

١٢- قال اللحيانى : اسُمُهُ فلان كلام العرب ، وحكى عن بنى عمرو ابن تميم اسْمه فلان بالضم ، وقال الضم فى قضاعة كثير (ص١٢٦) .

١٣- السَّهْوَةَ الصخرة طائية لايسمون بذلك غير الصخرة (ص١٣٣) .

١٤- قولهم «لايَسْوَى» [بمعنى لايساوى] أحسبهُ لغة أهل الحجاز (ص١٣٦) .

١٥- الشَّبَا الطُّحْلُب يمانية (ص١٤٨) .

١٦- صَلَوْتُ الظَّهر ضربت صَلاَهُ (وسط الظهر) أو أصبتُه بشىء منهم ، أو غيره عن اللحيانى ، قال وهى هذلية (ص٢٠٠) .

١٧- ابن الأعرابى أخفضُ الأعلامِ «الثايَةُ» وهى بلغة بنى أسد بقدر قَعْدة الرجل ، فإذا ارتفعت عن ذلك فهو «صوْة» [حجر يكون علامة فى الطريق] (ص٢٠٦) .

١٨- وشِدَّ ما ضَحَيْتُ وضَحَوْتُ للشمس (أى برزتُ) والريح وغيرهما ، وتميم تقول ضحوْتَ للشمس أضحو (ص٢١٣) .

١٩- قال أبو زيد الكلابيون يقولون «وبلدةٍ ليس بها طُوئِيٌ» [أى ليس بها أحد» الواو قبل الهمزة ، وتميم تجعل الهمزة قبل الواو فتقول طُؤْوِىٌ (ص٢٢٦) .

٢٠- تقول سمعتُ طَغْىَ فلانٍ أى صوته هذلية (ص٢٣١) .

٢١- قال ابن جنى أعلم أن الظاء لاتوجد فى كلام النبط ، فإذا وقعت فيه قلبوها طاء ولهذا قالوا البرْطلة ، وإنما هو ابن الظلّ وقالوا ناطور ، وإنما هو ناظور فاعول من نظر ينظر (ص٢٥١) .

٢٢- عَتَّى بمعنى «حتَّى» هذلية وثقفيّة ، وقرأ بعضهم «عتّى حين» أى «حتى حين» ، وفى حديث عمر رضى الله عنه بلغه أن ابن مسعود رضى الله عنه يقرئ الناس «عتّى حين» يريد (حتى حين) فقال إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل فأقرئ الناس بلغة قريش . كل العرب يقولون (حتى) إلا هذيلا وثقفياً فإنهم يقولون (عتى) (ص٢٥٣) .

٢٣- قال أبو عبيد «العَدِىُّ» جماعة القوم بلغة هذيل (ص٢٥٨) .

٢٤- ابن سيده عن أبى حنيفة : العَجْوةُ بالحِجاز أُمُّ التمر الذى إليه المرجع كالشُّهرِيزِ بالبصرة ، والتَّبِّىِّ بالبحرين والجذامِىِّ باليمامة (ص٢٥٧) .

٢٥- قال الليث وكلمة (شنعاء) من لغة أهل الشحر، يقولون : يِعْزَى ماكان كذا وكذا كما نقول نحن لعمرى لقد كان كذا وكذا ، ويعزيك ماكان كذا وقال بعضهم «عزوى» كأنها كلمة يتلطف بها (ص٢٨٣) .

٢٦- العاسِى الشِّمراخ من شماريخ العِذْق فى لغة بلْحرث بن كعب (ص٢٨٣) .

٢٧- وحكى اللحيانى عن الكسائى : «بالعَسِىِ أن يفعل» قال ولم أسمعهم يصرفونها مصرّف أخواتها ، يعني بأخواتها حرى وبالحرى وما شاكلها (ص٢٨٥) [لهجة لبنانية بالعسى يجيئ] .

٢٨- أبو زيد : العِفْوَةُ أفْتاء الحُمر ، قال ولا أعلم فى جميع كلام العرب واوا متحركة بعد حرف متحرك فى آخر البناء غير واو عِفوةٍ ، قال وهى لغة لقيس (ص٣١١) .

٢٩- قال سيبويه ألف علاَ زيداً ثوبٌ منقلبة من واو ، إلا أنها تقلب مع المضمر ياء تقول عليك ، وبعض العرب يتركها على حالها قال الراجز :

أىُّ قَلوصٍ راكبٍ تراهـا فاشدُدْ بِمَثْنَى حَقَبٍ حقْواها
ناديــةً وناديـاً أباهـــا طاروا علاهنّ فطرْه علاها

ويقال هى بلغة بلحرث بن كعب (ص٣٢٢) .

٣٠- العوّاء النابُ من الإبل ممدودة ، وقيل هى فى لغة هديل الناب الكبيرة التى لاسنام لها (٣٤٦) .

٣١- وعبَىٌ شعره قصّر منه لغة لعبد القيس ، وقد تكلم بها غيرهم(ص٣٥١) .

الجزء العشرون

١- شمر : فجا بابه يفجُوه إذا فتحه بلغة طئ ، قال ابن سيده قاله أبو عمرو الشيبانى ، وأنشد للطرماح :

كحبّة السّاحِ فجا بابهـا   صُبْحٌ جَـلاَ خُضرة أهْدابهَا

(ص٦) .

٢- وفى حديث هوازن لما انهزموا ، قالوا :

الرأىُ أن نُدخل فى الحِصْن ماقدرنا عليه من «فاشيتنا» أى مواشينا (ص١٤) .

٣- وفى حديث ابن عِباس رضى الله عنه أنه سئل عن قتل المُحْرِم الحيْات فقال لابأس بقِتله «الافعَو» ، ولابأس بقتل «الحدَوْ» فقلب الألف فيهما واوا فى لَغته ، أراد الأفعى وهى لغة أهل الحجاز ، قال ابن الأثير ومنهم من يقلب الألف ياء فى الوقف ، وبعضهم يشدّد الواو والياء وهمزتها زائدة (ص١٨) .

٤- القبَايَةٌ المفازة بلغة حمير (ص٢٨) .

٥- ابن سيده : القَرْيَةٌ والقِرْية لغتان للمصِر الجامع ، التهذيب المكسورة يمانية ، ومِن ثم اجتمعوا فى جَمعها على القِرى ، فحملوها على لغة من يقول كِسْوة وكِساً ، وقيل هى القرية بفتح القاف لاغير ، قال وكسر القاف خطأ (ص٣٧) .

٦- قال ابن السكيت ماكان من النعوت مثل العُلْيا والدنيا ، فإنه يأتى بضم أوله وبالياء ؛ لأنهم يستثقلون الواو مع ضمة أوله ، فليس فيه اختلاف إلا أن أهل الحجِاز قالوا القصْوَى ، فأظهروا الواو ، وهو نادر وأخرجوه على القياس ؛ إذْ سكن ماقبل الواو ، وتميم وغيرهم يقولون القصْيا (ص٤٤) .

٧- وفى حديث طلحة : فوضعوا اللُجّ على قَفَىّ أى وضعوا السيف على قَفاىَ ، قال وهى لغة طائية يشددون ياء المتكلم (ص٥٥) .

٨- تقول قلاهُ يَقْلِيه قِلى وقَلاءً ويقْلاَهُ لغة طئ (ص٥٩) .

٩- أهل الحجاز يقولون : قِنْوان ؛ وقيس : قُنْوان ؛ وتميم وضبة : قُنْيان ، قال ، وكلب تقول : قِنْيان (ص٦٧) .

١٠- الكُلْوةُ لغة فى الكُلْيَة لأهل اليمن ، قال ابن السكيت ولاتقل «كِلْوة» بكسر الكاف (ص٩٤) .

١١- وقال ابن سيده و «لَقَاه» طائية ، أنشد اللحيانى :

لم تلقَ خيل قبلها ماقد لقَتْ   من غِبِّ هاجرة وسَيْرٍ مُسْأدِ

(ص١٢٠ سأد = سير الليل كله) .

١٢- قال أهل التفسير اللَّهْوُ فى لغة حضرموت «الولدُ» ، وقيل اللهو المرأة (ص١٢٦) .

١٣- محا الشيءَ يمحوه ويمحاه محْواً ومحْياً أذهب أثره . الأزهرى المَحْوُ لكل شيء يذهب أثره ، تقول أنا أمحوه وأمحاه ، وطئ محيْته محْياً ومحْواً (ص١٣٩) .

١٤- المِرْيةُ والمُرْية الشك ، قال ثعلب هما لغتان ، قال وأما مِرْيةُ الناقة فليس فيه إلا الكسر والضم غلط ، قال ابن برى يعنى مسْح الضرْع لتدرَّ الناقة ، قال وقال ابن دريد مرية الناقة بالضم ، وهى اللغة العالية (ص١٤٦) .

١٥- المنَا النكيل أو الميزان الذى يوزن به بفتح الميم مقصور ، يكتب بالألف وهو أفصح من «المنَّ» والجمع أمْناء ، وبنو تميم يقولون هو «منّ» ومنَان وأمْنان (ص١٦٧) .

١٦- نَطَا الرجلُ سكت وفى حديث زيد بن ثابت رضى الله عنه كنتُ مع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو يملى علىَّ كتاباً وأنا أستفهمه فدخل رجل فقال له : انْطِ أى أسكت بلغة حمير ، وأنْطيت لغة فى أعطيت وقد قرئ إنا أعطيناك الكوثر ، والإنطاء لغة فى الإعطاء ، وقيل الإنطاء الإعطاء بلغة أهل اليمن (ص٢٠٦) .

وفى حديث الدعاء «لامانع لما أنطيت ولامُنْطىَ لما منعت» ، قال هو لغة أهل اليمن .

١٧- النَّماء الزيادة نَمَى ينْمى نمياً ونُمِيّاً ونَماءً زاد وكثر ، وربما قالوا ينْمو نُموّاً المحكم قال أبو عبيد قال الكسائى ، ولم أسمع ينمو بالواو إلا من أخوين من بنى سليم ، قال ثم سألت عنه جماعة بنى سليم فلم يعرفوه بالواو ، قال ابن سيده هذا قول أبى عبيد وأما يعقوب ، فقال ينمى وينمو فسوّى بينهما (ص٢١٥) .

١٨- قال ثعلب الهُدْىُ بالتخفيف لغة أهل الحجاز والهَدىُّ بالتثقيل على فعيل لغة بنى تميم وسفلى قيس وقد قرئ بالوجهين جميعاً «حتى يبلغ الهدى محله» (ص٢٣٤) .

٢٠- قال الكسائى : «هِيَ» أصلها أن تكون على ثلاثة أحرف مثل «أنت» فيقال «هِيَ» فعلتْ ذلك ، وقال هى لغة عمدان ومن فى تلك الناحية ، قال وغيرهم من العرب يخففها وهو المجتمع عليه فيقول : هى فعلتْ ذلك ، قال اللحيانى وحكى عن بعض بنى أسيد وقيس هِيْ فعلتْ ذلك بإسكان الياء (ص٢٥٣ ، ٢٥٤) .

٢١- الأواغِى مغاجِر الماء في الديار والمزارع واحدتها آغية يخفف ويثقل (أى أواغِى ، أواغِيّ جمع آغيـة) وهو من كلام أهل السواد ؛ لأن الهمزة والغين لايجتمعان فى بناء كلمة واحدة (ص٢٧٨) .

٢٢- فى لغة بنى سعد يقولون «أَلاَتا» يقول «ألا تجيئ» ؟ فيقول الآخر «بلَى فَا» أى فاذهب بنا (ص٣١٣) .

٢٣- قال أبوزيد ومن العرب من يقول «هؤلاء» قومَك ، ورأيت هؤلاء فينوّن ويكسر الهمزة ، قال وهى لغة عقيل (ص٣٢١) .

٢٤- وأما «ذُو» التى فى لغة طئ بمعنى الذى فحقها أن تُوصل بها المعارف تقول: أنا ذو عرفت وذو سمعتِ ، وهذه امرأة ذو قالت ، كذا يستوى فيه التثنية والجمع والتأنيث ، قال بجير بن عثْمة الطائى أحد بنى بوْلان :

وإن مولاى ذو يعاتبنى لا إحنةٌ عنده ولاجَرِمَه

ذاك خليلى وذو يعاتبنى يرمى ورائى بامْسَهم وامْسَلِمَه

(ص٣٤٧ ، ٣٤٧) .

٢٥- قال الأزهرى وسمعت غير واحد من العرب يقول : «كنا بموضع كذا وكذا مع ذى عمرو وكان ذو عمرو بالصّمّان» أى كنا مع عمرو ومعنا عمرو ، و«ذو» كالصلة عندهم ، وكذلك ذوِى ، قال وهو كثير فى كلام قيس ومن جاورهم (ص٣٤٩) .

٢٦- فإن جعلتها حرف نفى لم تعملها فى لغة أهل نجد لأنها دوارة ، وهو القياس ، وأعملتها فى لغة أهل الحجاز تشبيهاً بليس ، تقول مازيد خارجاً وماهذا بشراً

(ص٣٦٢) .

٢٧- الأصمعى ؛ متى فى لغة هذيل قد تكون بمعنى «منْ» ، وأنشد لأبى ذؤيب :

شربن بماء البحر ثم ترفّعتْ   منـى لجـجٍ خضر لهنّ نئيجُ

(ص٣٦٤) .

٢٨- وأهل الحـجـاز يقـولـون : ها إنك زيد ؟ مـعناه أإنّك زيد ؟ فى الاسـتـفـهـام ويقصرون فيقولون : هإنّك زيد ؟ فى موضع أإنك زيد ؟ (ص٣٦٥) .

٢٩- قال الكسائى : «هوَ» أصله أن يكون على ثلاثة أحرفٍ مثل «أنت» ، فيقال ، هوّ فعل ذلك ، قال ومن العرب من يخففه ، فيقول : هوْ فعل ذلك بإسكان الواو (ص٣٦٦) .

٣٠- أبو الهـيـثم : بنو أسد تسكّن هِي ، هُو ، فـيـقـولون هُو زيدٌ وهِي هندٌ ، كـأنهم حذفوا المتحرك ، وهِي قالته وهو قاله وأنشد :

وكنّا إذا ماكان يومُ كريهةٍ   فقد علموا أنّى وهُو فتَيانِ

(ص٣٦٨) .

٣١- قال الفراء : والعرب تقف علي كل هاء مؤنث بالهاء إلا طيئاً ، فإنهم يقفون عليها بالتاء فيقولون : هذه أمتْ ، وجاريتْ ، طلحتْ (ص٣٧٠) .

٣٢- قال الفراء : يقال اجلسْ هَهُنَا أى قريباً ، وتنحّ هَهُنا أى تباعد أو ابعُدْ قليلاً ، قال و «ههنَا» أيضاً تقوله قيس وتميم ، قال الأزهرى وسمعت جماعة من قيس يقولون : اذهبْ هَهَنَا بفتح الهاء ولم أسمعها بالكسر من أحد (ص٣٧٤) .

ملحوظة :

تِعلّم بالكسر لغة قيس وتميم وأسد وربيعة وعـامـة العرب ، وأما أهل الحـجاز وقـوم من أعـجـاز هوازن وأزد السراة وبعض هذيل فـيـقـولون تَعلّم ، والقـرآن عليها .

أهم المراجع العربية

١- ابن الجزرى :

النشر فى القراءات العشر .

٢- سيبويه :

الكتاب .

٣- ابن يعيش :

شرح المفصل .

٤- ابن جنى :

(أ) الخصائص .

(ب) سر صناعة الإعراب .

٥- السيوطى :

(أ) المزهر .

(ب) الإتقان فى علوم القرآن .

٦- ابن فارس :

الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها .

٧- اليازجى :

مجعة الرائد وشرعة الوارد فى المترادف والمتوارد .

٨- ابن خلدون :

المقدمة والتاريخ .

٩- القلقشندى :

صبح الأعشى «الجزء الأول» .

١٠- ابن سيده :

المخصص .

١١- ابن منظور .

لسان العرب .

١٢- ابن الأنبارى :

كتاب الأضداد .

١٣- مجلة مجمع اللغة العربية ،الأجزاء ١ ، ٢ ، ٣،

١٤- جورج زيدان :

تاريخ آداب اللغة العربية .

١٥- حفنى ناصف :

مميزات لغات العرب .

١٦- الدسوقى :

تهذيب الألفاظ العامية .

١٧- الدكتور أحمد عيسى :

المحكم فى أصول الكلمات العامية .

١٨- محمد فخر الدين :

مجموعة من الخرط التاريخية لبلاد العرب .

١٩- الدكتور أحمد أمين :

ضحى الإسلام .

٢٠- الدكتور على عبدالواحد وافى :

(أ) علم اللغة .

(ب) فقه اللغة .

٢١- عبدالوهاب حمودة :

القراءات واللهجات .

٢٢- يوهان فك : (ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار) .

العربية (دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب) .

٢٣- ابن حزم الأندلسى :

جمهرة أنساب العرب .

٢٤- برجشتراسر :

التطور النحوى .

٢٥- ابن دريد :

(أ) الاشتقاق .

(ب) الجمهرة .

٢٦- ابن فارس :

مقاييس اللغة .

٢٧- القرطبى :

الجامع لأحكام القرآن .

٢٨- الجاحظ :

البيان والتبيين .

٢٩- الباقلانى :

إعجاز القرآن .

٣٠- المبرد :

الكامل .

٣١- القالى :

الأمالى .

٣٢- ابن عبد ربه :

العقد الفريد .

٣٣- ابن هشام :
مغنى اللبيب .
٣٤- الحريرى :
درة الغواص فى أوهام الخواص .
٣٥- الرافعى :
تاريخ آداب العرب .
٣٦- أبو حيان :
البحر المحيط (تفسير) .
٣٧- الزمخشرى :
(أ) الكشاف (تفسير) .
(ب) المفصل وشرحه لابن يعيش .
٣٨- صحيح البخارى ، صحيح مسلم .
٣٩- ابن حجر العسقلانى :
الإصابة فى تمييز الصحابة .
٤٠- أبو عمرو الدانى :
التيسير .
٤١- ابن السكيت ، الأصمعى ، السجستانى :
ثلاثة كتب فى الأضداد (نشرها أوغست هوفنر) .
٤٢- أبو البركات الأنبارى .
الإنصاف فى مسائل الخلاف .
٤٣- شهاب الدين الخفاجى :
شفاء الغليل .
٤٤- أبو زيد الأنصارى :
نوادر اللغة .
٤٥- البغدادى :
خزانة الأدب .

الفهرس